النوم مع سِحلية ميتة

رواية

سعد عودة

النوم مع سحلية ميتة

رواية

سعد عودة

بغداد\٢٠١٨

مقدمة

كنتُ أنام مع سحلية ميتة، حتى انني لا أتذكر كيف و متى ماتت هذه السحلية التي تستلقي بهدوء بين فخذيَّ الان والتي كانت تمنحني على الدوام عوالم من اللذة والاكتشاف، أحلم احيانا انها ستتحول في يوم ما الى افعى تتسلل بهدوء داخل تنورة فتاة جميلة وتلامس عالمها المملوء باللذة والشبق، الامر ممكن هناك في بغداد، ممكن ان تتعثر سحليتك بأي حياة لتنبض مع كل لحظة وممكن ان تلامس ولو بالصدفة جسد امرأة حتى ولو من فوق ثيابها لتتورم من جديد على امل الوصول الى العمر الذي يجعلها تقف منتشية بانتصاراتها على افخاذ النساء وتتحول الى افعى طويلة قادرة على الوصول الى اي بظر كوني وملامسته بالشكل اللازم، هذه السحلية التي كانت تتلوى طوال النهار تحت البنطال وتسبب لي الكثير من الاحراجات خاصة مع امي وابي وقد بدأوا ينتبهون اليها وهي تصنع مثلثا رأسه منتصف سحاب البنطال، كانوا يبتسمون بالسر وهو يروونني احاول ان اغطي هذا الانتفاخ بكلتيّ يدي قبل ان اذهب للحمام وادعكها بقوة لتنفض وجعها ولذتها وتنام بهدوء وتجعلني اتخلص من كل هذا الخجل بعد ان تمنحني نشوة غريبة اكتشف من خلالها اللون الوردي لهذهِ الحياة، سأكون سخيفا اذا قلت ان هذا هو سري، في الحقيقة هذا السر الذي يعرفهُ الجميع لكنهم يتجنبون التحدث عنه امام الاخرين، ربما يبتسمون فقط وهم يتذكرون ذلك، بالتالي فهذا جزء طبيعي من مسيرة الحياة، لا شيء جديد ولم اكن اريد سوى

ان استمر في هذا المشهد، امي وابي يبتسمون وانا اعبر من امامهم ببنطال منتفخ من الاعلى محاولا اخفاء هذا الانتفاخ حتى اصل الى الحمام، الحمام هنا يبدو المكان الاهم في البيت، هو وحده يقول كل شيء، هو الجريء المفضوح الذي يخبر أمي وابي بكل ما افعله خلف بابه المغلق حتى مع حرصي على دفع كل ما اقذفه الى مجرى الماء وانا اتأمله ينزل بهدوء ويختفي ليظهر في يوم اخر، كنت اعرف انني سأترك صديقي الحمام في يوم ما وانني سأفعل هذا بالطريقة التقليدية وكما يفعلها امي وابي كل يوم، المهم ان تمضي الامور هكذا، لا اعرف ان كان هذا صعبا على الحياة او على الرب الذي كان يخبأ لي حياة اخرى وعالم اخر وسحلية ميتة احاول ايقاظها من دون جدوى، الشارع قتل امي وابي وشيء ما في هذه القرية قتل هذه السحلية ليحولني الى كائن من قلق فانا لا استطيع ان اخبر احدا بالأمر، ماذا اقول لهم؟ كيف أجعلهم يفهمون انني لم اعد قادرا على ممارسة العادة السرية منذ ان حولني هذا المرض الى كتلة من الوجع المستمر لاكتشف بعدها انني لم امت لكن جزءا مني مات، ليحولني الى كائن اخر، مسخ اخر يسير في الشوارع الترابية لقرية تقع في اخر الدنيا ولم تجد لها اسما اخرا غير تل الخصيان.

لكن ايضا لا يسعني الصمت هنا، لا يمكنني ارى سحليتي تلفظ انفاسها الاخيرة من دون ان افعل شيئا، اشعر الان بأشياء كثيرة، بانني اتحول بشكل ما الى كائن اخر، مسخ لا اعرف ما هو وكيف سيكون فموت هذه السحلية ليس بالأمر العادي التي تستمر معه الحياة من دون ان تصنع جبالا من الوجع لا اعرف الى اين سيؤدي بي، كيف سأتزوج؟ ماذا سأقول لنفسي لو اخذتني شهوة ما الى فتاة جميلة تقف امامي بكل أنوثتها بل كيف يمكنني ان انبهر بسيقان ممثلة ما او صورة لامرأة شبة عارية في مجلة

ملونة، الشيء الاكثر اهمية هو انني كيف سأبني حياتي من دون هذه السحلية وما اهمية هذه الحياة بعدها، انا مريض، هذا شيء مؤكد وعليّ ان اخبر شخصا ما بالأمر، على ان افعل ذلك ولكن اخبر مَن؟ وانا بلا ام واب بعد ان اخذتهم السيارة المفخخة مني، لم أرهم، سمعت فقط انهم تحولوا الى اجساد متفحمة بعد ان احترقت سيارتهم بالكامل وهم داخلها، كانت صدمة عظيمة ولكن حيرتي مع هذه السحلية الميتة تتجاوز كل ما مررت به وانا لم اتجاوز بعد الخامسة عشر من عمري، بالتأكيد لن أخبر جدي ولا عمي شيخ ابراهيم رغم انه هو من اهتم بي طوال فترة مرضي الذي استمر حوالي الشهرين ولكنني لم اشعر للحظة واحدة انه يفعل هذا بدافع الحب او كونه عمي، ربما بدافع الواجب فقط او ليقول للناس انه يفعل ما عليه فقط وكيف لا وهو شيخ الدين الوحيد في هذه المنطقة الذي يعلّم الاخرين الاهتمام بصلة الرحم وان من يصل رحمه له اجر عظيم عند الله، لا اعرف ربما سأفعل ذلك بالتالي هو الوحيد الذي اتكلم معه وربما على ان ابقى صامتا حتى يأتي الوقت الذي احتاج فيه هذه السحلية بشكل حقيقي عندها سأخبرهم انها ماتت وتحولت الى قطعة لحم متهدلة ونائمة ولا تستطيع اجمل النساء انتشالها من هذا الركود العظيم، كم اشتاق لذلك الان، اشتاق ان اراها متصلبة ومنتفخة بين يدي وتنفض كل ترهات العالم مرة واحدة، انا الطفل الذي لم يتجاوز الخامسة عشر من العمر والذي كان عليه ان يشهد موت امه وابيه بل وحتى سحليته الجميلة من دون يخبر احدا بذلك

الفصل الأول

أسرار تل الخصيان

(١)

ما أن تركت السيارة الشارع الرئيسي وعرجت الى طريق فرعي حتى تغير شكل العالم، الصحراء تحولت فجأة الى مناطق خضراء واسعة واشجار متنوعة الأشكال والأثمار تمتد على جانبي الشارع، قمريات الاعناب الواطئة شكلت واجهة ثانوية للمنظر بعد ان اختفت الاشجار العالية وظهرت مزارع الخِيار الذي يتمدد على الارض وكأنه يأخذ قيلولة من عملية البناء الضوئي الذي انهكته طوال الفترة ما بين شروق الشمس وانتصافها في وسط السماء، الساعة تقترب من الواحدة بعد الظهر وبطني بدأت تقرقر من الجوع وانا وسط كل هذه الملذات وهذا جعلني اطلب من زوجي سعود ان يرصف السيارة على جانب الطريق قبل ان انزل وأتناول خيارة تنام بهدوء بالقرب من الشارع الترابي الذي يقودنا الى القرية التي يسكن فيها أهل زوجي ، زغب خفيف مازال ينتشر على جسد الخِيارة جعلني اقضم جزء منها قبل ان يتسلل الى داخلي طعمها المائي المشوب بطراوة غريبة، تمنيت لو املك قطعة خبر حار لوضعت هذه الخيارة داخلها وافترستها بكل الجوع الذي يحتويني الان، كانت قمريات الاعناب بعيدة عن الشارع الترابي رغم انني فكرت للحظة ان اخترق مزرعة الخيار هذه حتى اصل اليها، تخيلت للحظة عنقودا من العنب الاحمر ينام بهدوء بين يدي لكنني عدلت عن الفكرة بعد ان طلب مني سعود ركوب السيارة، احساس هائل بالنقاء انتابني وانا اخترق هذه البساتين الممددة على جانبي النهر، النهر الذي يبدو اوسع كثيرا مما هو عليه في بغداد وجريان

الماء هنا يبدو مرعبا وكأن الماء هنا لا يريد ان ينتظر احدا، التفتُ الى سعود وسألته

- اين تقع القرية
- في الجانب الاخر من النهر...واشار بيده
- وكيف سنعبر الى الجانب الاخر
- لا تستعجلي ...سترّين كل شيء

بعد حوالي عشر دقائق دلفت السيارة الى شارع جانبي ليقف الجسر العائم بمواجهتنا، كانت هناك سيارة حمل صغيرة قادمة في الجانب الاخر وهذا جعلهُ يرصف السيارة على جانب الطريق بانتظار مرور سيارة الحمل من الجسر عندها فتحت باب السيارة ونزلت، صرخ بي سعود

- الى اين
- سأعبر هذا الجسر مشيا

اومأ لي برأسه وبدأ يقطع الجسر بتأني شديد، كانت الخزانات الحديدية الضخمة التي تسند الجسر من الاسفل تغوص في الماء نتيجة لوزن السيارة لكنها ما تلبث ان تعود لتطفو عندما تغادرها إطارات السيارة وهذا يجعل الجسر يهتز وكأنه سفينة داخل بحر هائج، ورغم ان الحبال المشدود على جانبي الجسر توحي بالقوة والمتانة لكنها بدت متأكلة ومتعبة من كثرة الشد والانفلات طوال عمر هذا الجسر وهذا جعلني اتقدم بهدوء خلف السيارة بعد ان سمحت لها بالابتعاد عني حتى الجزء الاخر من النهر، اكتشفت ان النهر يتكون من مفصلين، كانت الارض تحت مياه النهر تبدو واضحة نتيجة لنقاء الماء حتى الاسماك في هذا الجزء من النهر يمكنك اصطيادها بيدك وبشكل مباشر، يكفي ان تقف وسط المياه فاتحا قدميك ومستعدا لمرور الاسماك بينهما لتختار السمكة التي

تريد الامساك بها، تمنيت للحظة لو انزل عن الجسر وامشي داخل النهر حتى الغرق فأرضية النهر تبدأ تختفي كلما تقدمت الى الامام حتى تصل الى منتصف الجسر، عندها يبدو النهر مرعبا فالمياه تحيطك من كل مكان وهذا الجسر لا يمنحك شعورا بالأمان من هذه المياه المندفعة بقوة، النهر يبدو عميقا تحت قدميك حتى ان طعم الغرق في هذا المكان من الجسر يبدو شهيا بينما نسمات الهواء الباردة تولد شعورا بالانتشاء لا تريده ان يغادرك كما انك لا تريد ان تغادر هذا الاحتواء الغريب الذي يشعرك بالحياة بكل مكوناتها الدقيقة، سعود نزل من السيارة بعد ان اجتاز الجسر وبدأ يناديني للالتحاق به وهذا جعلني اسير بهدوء حتى اعبر للجهة الاخرى، ملامحي بدأت تتغير وبدوت وكأنني مخدرة او انني انتهيت لتوي من تناول بطل من العرق العراقي الابيض الذي حولّني الى كتلة كاملة من الغباء لا أسمع سوى صدى روحي ولا اعترف بشيء سوى ما أقول حتى ان الاخرين يصغرون داخلي الى الدرجة التي يمكنني سحقهم بأصابعي وبسهولة كبيرة، الامر المختلف ان العرق الابيض يمنحني رغبة بشتم كل شيء اما هذا المكان يمنحني رغبة هائلة بتقبيل كل شيء والارتماء بأحضانه، في الحقيقة لم أكن اتصور ان مكانا مثل هذا يمكن ان اجده في بلد مثل العراق انا الذي عشت معظم حياتي بين المناطق الخضراء في هولندا لكن الامر هنا مختلف، الامر لا يتعلق بالجمال والتنظيم كما هو عليه الحال هناك، هنا حياة تستمر بالطريقة التي تريدها هي دون ان يتدخل الانسان فيها بشكل حقيقي، الانسان هنا يضع البذور ويوصل الماء للأرض ويجعلها تنمو بالطريقة التي تشاء وهذا يمنحها جمالا حقيقيا وليس مصطنعا، هكذا كان احساسي في هولندا، كل شيء كان مصطنعا متكلفا وغارقا بالتكنلوجيا، كنت اتمنى دائما

لو تركوا العشب ينمو بالطريقة التي يريدها هو، الاشجار ترتفع كما تشاء والانسان يختار حياته كما يريد لكن هذا مستحيل هناك فكل شيء يجب ان يستمر بالطريقة المرسومة له مسبقا والانسان مجرد اداة في صناعة حركة حياة جماعية تجعلهُ يفقد القيمة الحقيقية لحياته كفرد يمكنه الوقوف بمفرده امام العالم، العالم الذي تحول الى نهر يندفع بقوة نحو المجهول، شهيتي للحياة التي انفتحت على مصراعيها هنا لم يكن سببها ما عشته في هولندا فهي تمنحك حياة هادئة ومتصالحة ومنظمة بطريقة جيدة لكن ما عشته في بغداد هو الذي جعلني افتقد اي طعم للحياة، هذه المدينة الغريبة التي تعيش على الدوام بالقرب من الموت وتستمد بقائها من هذا الموت الذي يتجول في شوارعها ويمنح اطفالها امراضا مختلفة ورجالها رصاصا فائض عن الحاجة، تلك اللوكيميا اللعينة هي التي جعلت امي الدكتورة نجيبة مصطفى خالد تصر على ترك هولندا وتحملنا معها لنعيش في بغداد بعد ان زارت قبل ذلك وبرفقة وفد من الاطباء ومن جنسيات مختلفة مستشفى الاطفال في بغداد ورأت اللعنة التي حلت على هذا البلد نتيجة غزو الكويت وبعد ان حول الحصار الاقتصادي هذا البلد الى كتلة متحركة من الوجع، اتذكر ذلك اليوم، كانت المرة الاولى التي اشاهد فيها ابي وامي يتشاجران وترتفع اصواتهما بهذه الطريقة، كانت امي قد قررت الرجوع والعيش في بغداد لمساعدة اطفال اللوكيميا بعد ان اتصلت بجهات في وزارة الصحة العراقية ووعدوها بالعمل في مستشفى الطفل في منطقة الاسكان، قالت لابي ان واجبها الانساني يجبرها على العودة الى العراق اما ابي فكان يصر على ان الاوضاع هناك خطرة وانه لا يستطيع ان يهد كل ما بناه هنا في هولندا بعد ان اصبح استاذا في واحدة من اهم جامعاتها، ابي الذي استطاع ان ينهي دراسة علوم الفيزياء

والحصول على شهادة الدكتوراه بينما امي كانت تعمل كطبيبة استشارية في المشفى القريب من بيتنا قبل ان تعمل مع مؤسسة اطباء بلا حدود وتبدأ تسافر لاماكن مختلفة من العالم، كانت تتجنب الذهاب الى العراق لأنها تعرف ان حياتها بعد هذه الرحلة ستختلف فهي لن تستطيع ان تقف على الحياد وترى اطفال البلد الذي نشأت وتربت فيه ودرست في مدارسه يموتون من دون ان تمد يدا لمساعدتهم، قالت لابي ابقَ هنا وانا سأعود لوحدي الى هناك، وبالفعل بعد اسبوع سافرت امي وجعلت ابي يشعر بتأنيب ضمير حاد تجاه وطنه الذي احبه على الدوام ولكن ليس بوجود هذا الطاغية الذي حول البلد الى ساحة لحروب مستمرة منذ ان استلم السلطة، امي كانت قد سكنت مع اختها في بيت اهلها في منطقة الداودي وبدأت العمل في مستشفى الطفل المركزي الذي لا يبعد كثيرا عن البيت الذي تسكن فيه اما ابي فكان يعرف منذ اللحظة الاولى انه سيلتحق بها وان رغبة خفية كانت تدفعه دائما للرجوع كان يواجها بكل قوة وبدافع الخوف الذي كان قد تمكن منه وهو يسمع الكثير من القصص عما تقوم به دوائر المخابرات والامن هناك ولأسباب سخيفة، كانت المسألة بالنسبة اليه وكأنه يدخل الجحيم بإرادته لكنه لم يستطع ان يعيش بعيدا عن امي الذي احبها بكل ذرة من ذرات كيانه...

رزمنا حقائبنا وعدنا الى بغداد، كان بيت جدي في منطقة السبع ابكار قد احتله الحارس الذي كلفه اصغر اعمامي بالحفاظ على البيت قبل ان يسافر هو الاخر الى السويد، الحارس احتل البيت تماما حيث انتقل هو وعائلته للسكن في البيت مدمرا كل تاريخه وهذا جعل والدي عصبيا وهو يرى ما فعله الحارس ببيت جدي، وبعد نقاش حاد مع الحارس الذي رفض ترك البيت وبدأ يصرخ بوجه والدي قبل ان يخرج احد ابنائه ويحاول ضرب والدي الذي

انسحب بصعوبة وعلامات الدهشة واضحة على محياه، اراد والدي تسجيل بلاغ في مركز الشرطة القريب لكن والدتي قالت انها هي من ستحل الامر وبالفعل اتصلت والدتي بأحد الاطباء الذين يعملون معها في المشفى والذي كان حزبيا كبيرا ولديه اخ يعمل في جهاز الامن العام لكن اتصال والدتي هذا جر الويلات على ابي فبعد يومين وقفت سيارة (لاندكروز) امام بيت اخت والدتي وطلبوا من والدي الذهاب معهم، لم يجيبوا عن اي سؤال وقالوا له ستعرف كل شيء هناك، عاد والدي في المساء وجبل من الهموم على كاهله، اخبرنا انهم طلبوا منه ان يعمل كمستشار في هيئة التصنيع العسكري، كان يخطط للعمل كأستاذ جامعي محاولا الابتعاد عن السلطة قدر الامكان فهو يعرف ان الاقتراب من القصر الجمهوري او احدى الوزارات التابعة له تعني اقترابه كثيرا من الهلاك وربما قادته الظروف الى غرف التعذيب المظلمة المنتشرة في دائرة الامن العامة او في دائرة المخابرات العراقية، لكنهم كانوا يعرفون كل شيء عن ابي، يعرفون سيرته العلمية ولم يكن هناك اي شيء يدعوهم للتوجس من تاريخه الشخصي حيث كان هو وكل عائلته حريصون على الدوام عن الابتعاد عن درب السياسة، وافق ابي على عمله كمستشار في هيئة التصنيع العسكري، في الحقيقة لم يكن لديه اي خيار اخر فعدم الموافقة تعني الملاحقة وقد تصل الامور لاتهامه بالخيانة العظمى، كانت الامور تسير بهذه الطريقة في هذا البلد فالمسافة بين الوطنية والخيانة مسافة وهمية على الدوام وممكن ان تتحول بكل سهولة من كونك وطنيا مخلصا الى خائن تنتظرك اعواد المشانق....

بعد اسبوع من وصولنا، كنت اجلس وحدي في الحديقة الصغيرة التي تتقدم منزل عمتي نورة والتي تعيش مع ابنتها غادة لوحدهم

منذ ان توفى زوجها قبل حوالي سنة، عندها سمعت طرق عنيف على الباب الخارجي للبيت ذهبت وفتحت الباب، كانت هناك امرأة في حوالي الخمسينيات من العمر ترتدي ثوبا اسود وشيلة سوداء ويبدو على وجهها الجدية مع مسحة من الخوف، سألتني عن ابي ان كان في البيت فأجبتها بالنفي عندها انفجرت بالبكاء والتوسل، كانت تتحدث عن ابنها الذي اعتقلته الشرطة وان ابي وحده القادر على اخراجه من هناك، لم افهم في بادئ الامر لكن عمتي سرعان ما لحقت بي وحاولت ان تهدأ من روع المرأة وتطلب منها ان تقول ما تريد عندها اخبرتنا انها زوجة الحارس الذي كان يسكن في بيت جدي في منطقة السبع ابكار وان زوجها رفض الخروج من البيت وابنها هو من حاول ضرب والدي هناك، قالت ان الشرطة اعتقلت ولدها وطلبت منهم اخلاء البيت وانهم مستعدون لترك البيت حالا لكنها تريد من والدي التنازل عن القضية واطلاق سراح ابنها، قالت لها عمتي ان والدي غير موجود الان وعندما يعود سنخبره بذلك، بقت المرأة تتوسل لكن عمتي طمأنتها وطلبت واكدت لها ان والدي هو من سيتصل بكم ويحل الموضوع.

عندما عاد والدي واخبرناه بالأمر صمت قليلا ثم انفجر ضاحكا قبل ان يهدأ ويلتفت الينا ويتكلم بحرقة

- يا إلهي....ما هذا البلد...يبدو اننا نعيش داخل احد افلام الاكشن الامريكية، خلال اسبوع واحد تحولت الى احد كلاب الديكتاتور وبدأت امارس اول بشاعاتي على الفقراء...يا ألهي اسبوع واحد كان كافيا لأتحول الى شيطان حقيقي مؤذي ومرعب للأخرين وقادر على التهام الناس وطحنهم بأسنانه القوية، لا اعرف فقط كيف سأستمر، كيف سأتحمل هذا العالم المجنون

والخطِر والذي يحولك رغما عنك الى كائن متوحش وحاقد وخطير..

ابي احتاج لأسبوع ليتحسس بشاعة العالم الذي حُشر فيه حشرا اما امي فاحتاجت ستة اشهر لترفع رايتها البيضاء

كان الوقت ما زال مبكرا ففي العادة نبقى نائمين حتى وقت متأخر ايام الجمعة ولكن هاجسا ما جعلني اقفز من فراشي لأسمع بكاءً ونحيباً صادرا من المطبخ، قفزت من فراشي لأجد امي تجلس وحدها وتبكي بحرقة، وقفت امامها من دون ان انبس ببنت شفه لكنها وقفت واحتضنتني وهي تصرخ

- لقد تعبت...تعبت..
- امي....خير

كل يوم وانا اودع احد الاطفال بسبب نقص الدواء، لا افهم كيف يستمر العالم بهذه الطريقة، غير مبالي بالأطفال الذين يموتون كل يوم ، ارسلت لكل منظمات العالم لكن ما يرسلونه لا يكفي لإنقاذ ربع ما هو موجود، لقد تعبت ..تعبت...واشعر الان انني داخل جحيم حقيقي، اشعر بعجز كبير وبخيبة هائلة وان عودتي لم تساعد بشكل حقيقي في انقاذ هؤلاء الاطفال ولا حتى بالتخفيف عن وجعهم...العالم سيء ...سيء بطريقة لا يمكنني احتمالها، بعدها بدأنا نشعر كلنا اننا في حبس كبير لا يمكننا الخروج منه فأبي كان ممنوعا من السفر بسبب عمله في هيئة التصنيع العسكري الذي بدأت مرة اخرى بتصنيع صواريخ الحسين والعباس والمدفع العملاق، كان يعمل ويعيش من دون وعي بالعالم وهذا حول بيت جدي في السبع ابكار الذي انتقلنا اليه بعد ان خرج الحارس منه وبعد ان ذهب ابي بنفسه واخرج ابنه

المعتقل في مركز شرطة الاعظمية الى عالم غريب وغامض وواقف على قدميه بانتظار كارثة ما.

(٢)

الجانب الاخر من النهر يضعنا في قلب القرية بصورة مباشرة، الأسيجة الطينية تمتد بمحاذاة الشارع الترابي وتسير بموازاة النهر، اشجار الحمضيات المتنوعة ترتفع من فوق الاسيجة الطينية وتمد اغصانها الى الخارج وهي محملة بثمار البرتقال والنارنج والسندي والنومي بنوعيه الحلو والحامض بينما تقف قرب النهر شجرة سدر كبيرة تظلل جزء من جرف النهر وجزء اخر من الشارع الترابي الذي يلتف داخل القرية فيختفي النهر ويضيق الشارع بشكل واضح يجعل سعود يخفف من سرعة السيارة التي تسير بين سياجين طينيين يخبئان ابواب واسعة بينهما، بينما يستمر بزوغ اشجار الحمضيات من فوق هذا الاسيجة وبشكل مثير للشهية قبل ان نصل الى فسحة واسعة يقع في وسطها جامع ترتفع في اعلاه مئذنة صغيرة مثبت عليها سماعتين بوقيتين توصل صوت الاذان الى ابعد بيت في القرية، سعود اوقف السيارة في باب الجامع ونزل لرؤية اخوه شيخ ابراهيم وهو شيخ القرية المسؤول عن كل الطقوس الدينية في هنا، طلب مني البقاء في السيارة ونزل هو ليدخل الى الجامع رغم انه لم يبق طويلا هناك قبل ان يخرج برفقة شيخ ابراهيم وهذا جعلني اترجل من السيارة لأسلم عليه، نظر الي بطرف عينه قبل ان يزيح وجهه الى الجهة الاخرى وهو يقول لي

- كيف حالك زوجة اخي
- اهلا ..بخير الحمد لله....انت كيف حالك

- نحمده على كل شيء

شيخ ابراهيم شاب في الثلاثينات من العمر اسمر البشرة اطول من زوجي بشكل واضح حتى انه لا يشبهه نهائيا ومن الصعب ان تفكر انهما اخوان لو انك لم تكن تعلم بذلك من قبل ، كان يتجنب النظر اليّ بشكل مباشر وبدى لي انه منزعج من شعري الذي ينسدل على ظهري ومن ملابسي المكونة من بنطال جينز وقميص وردي يغطي جزء بسيط من وسطي وبفتحة صدر تجعل قلادة الذهب المسبوكة بشكل خارطة العراق والتي تكسر مساحة بياض الصدر التي يكشفها القميص، لم نمشِ طويلا قبل ان نصل الى بيت العائلة، فتح شيخ ابراهيم الباب الخارجي المصنوع من قطع الحديد المتشابك والذي يظهر بشكل واضح الطريق الى داخل البيت، المسافة بين الباب الخارجي للبيت والباب الداخلي ليست قصيرة، هناك بعض اشجار النخيل العالية تصطف بقرب السياج وتنتشر تحتها اشجار الحمضيات والرمان وعدد قليل من اشجار التفاح، في وسط الساحة هناك مزرعة صغيرة للخيار بقربها مزرعة اخرى للباميا وفي الجانب الاخر تنتشر قمريات الاعناب بينما تمتد مساحات صغيرة من الثيل في المكان الذي يحيط البيت، هناك تنور طيني ما زالت جمراته متقدة، تولدت داخلي رغبة هائلة بمعرفة هؤلاء الناس، كيف يعيشون؟ ماذا يعتقدون؟ كيف يفكرون؟ ما هي احلامهم، طموحاتهم وهم يعيشون وسط هذه الحياة الهائلة، كيف يتلمسون روعتها، حقيقة احتاج ان اعرف خبرتهم الهائلة في هذا العالم المختلف والمكتمل، فتح شيخ ابراهيم الباب وصرخ بأعلى صوته

- يا الله.....حسنة غطي راسك

خرجت علينا زوجة الشيخ (حسنة) وهي فتاة جميلة لم تصل الى الثلاثينات من العمر، تبدو قوية وناضجة بطريقة مثيرة وغريبة، اقتربت منا سلمت على سعود قبل ان تقترب مني وتقبلني من خدودي، انا ايضا بادلتها هذه القبلات، جلسنا على الارض في صالة كبيرة مفروشة بالسجاد الايراني الجميل وتستند وسائد على كل جوانب الغرفة، دقائق ودخل علينا ابو ابراهيم، وقف سعود وركض نحوه وقبله من يده عندها ادركت اني علي انا ايضا اقبله من يده وبنفس الطريقة لكنه سرعان ما سحب يده ووضعها على رأسي وهو يقول

- الله يرضى عنك

احتضن سعود وجلسا سوية وبدأ يسأله عن حاله وعن وضعه في بغداد قبل ان يلتفت أليّ ويسألني عن اهلي، كانت التفاتة ذكية منه جعلتني ابتسم بوجهه طوال الجلسة، بعد دقائق جاءت حسنة وفرشت امامنا مفرش من النايلون المشجر بالورود الملونة فذهبت لمساعدتها في اعداد طعام الغداء، كان الاكل يكفي لإطعام عشيرة كاملة وهذا جعلني ابتسم واسأل حسنة

- من سيأكل كل هذا
- من غيرنا؟...انتِ لا تعرفين معزة زوجكِ عند عمي

ساعدنا شيخ ابراهيم في نقل الصحون الى سفرة الطعام، كنتُ جائعة والاكل يبدو شهيا ورائجا وهذا جعلني اكل بشراهة اثارت

انتباه الجميع وجعل عمي يسألني وهو يبتسم

- أعجبكِ الأكل

التفت الى حسنة وقلت لها

- جدا طيب ..عاشت ايدك
- الف عافية...اجابتني

شربنا الشاي وتركونا لنرتاح قليلا داخل الصالة، حالما وضعت رأسي على الوسادة غبت عن العالم

ابي كان يمتطي صاروخاً بالستياً على وشك الانطلاق، قال لي سنضرب اسرائيل وهو يضرب مؤخرة الصاروخ ويصرخ بأعلى صوته

- تي....تي....هيا تحرك يا ابن الكلب

لكن الصاروخ لم يكن مبالياً بصراخ ابي ولا بضرباته المتوالية، وهذا دعي ابي للنزول منه والتقدم نحوي، قال لي بصوت هادئ سأعود، ابتسمت بوجهه وقلت له ولكن انت ممنوع من السفر، قال لي لا...لقد فتحوا المنع وسأعود فقط علي ان اشتري حقيبة كبيرة، امي كانت تجلس تحت شجرة سدر كبيرة وتمد قدميها داخل النهر بينما تضع طفل ميت في حضنها، تأخذ قليلا من ماء النهر وترشه على وجهه وتقول لها

- هيا يا صغيري، عد للحياة ...عد.... عد للحياة

فيشهق الطفل شهقة كبيرة ويفتح عينيه ويبتسم بوجه امي فتقف تركض نحو والدي الذي كان يضع ملابسه داخل حقيبة كبيرة وتصرخ بوجهه

- انظر....لقد عاد الينا....عاد للحياة

تضع الطفل على الارض فيبدأ يقفز ويرقص فتعود امي للصراخ بوجه ابي

- انظر ارجوك ..انظر اليه

لكن ابي يبدو غير مبال حتى انه لا يلتفت اليها وكأنه لا يراها ولا يسمع ما تقول لكنها تصر فتضربه على ظهره وهي تصرخ (لقد عاد للحياة...انظر..) فيلتفت اليها بعصبية ويمسكها من كتفها ويصرخ بها

- من الذي عاد للحياة...

تلتفت نحو الطفل فتجد انه قد تحول الى غصن شجرة مكسور ومحترق ويابس تماما، تركض نحوه وترفعه فتجد نفسها على الجانب الاخر من النهر بينما اقف انا في منتصف الجسر العائم انظر الى ابي وهو يجمع ملابسه بحقيبة كبيرة والى امي في الجانب الاخر وهي تضع غصنا في حضنها وتحاول ان ترطبه بماء النهر، احاول ان اذهب الى امي لكن الجسر يتحرك بقوة ويبدأ يندفع مع جريان النهر، الحبال الغليظة تنفلت من الجانبين فيندفع الجسر داخل النهر بقوة، احاول التمسك بالحبال لكنها تنفلت مني فأبقى عائمة في الهواء ومن تحتي مياه النهر تبدو مرعبة بشكل يجعلني احاول الصراخ لكن صوتي يأبى الخروج، اشعر حينها بتعب وارتباك شديدين، احاول الصراخ مرة اخرى ولكن هذه المرة لزوجي وهو يقف بقرب السيارة على جرف النهر، كان يبدو وكأنه لا يراني فاصرخ بكل قوة، يخرج بعض الصوت مقطعا

- سعووووووود

اشعر ان صوتي يخرج هذه المرأة قبل ان اقفز من فراشي واجد نفسي انام لوحدي على احدى فرش الصالة الكبيرة في بيت اهل سعود، للحظة تساءلت من الذي جاء بي الى هنا لكنني بعدها تذكرت كل شيء، خرجت من الصالة وغسلت وجهي بقوة

لأصحو قبل ان التفت الى المطبخ كانت حسنة تغسل المواعين الكثيرة هناك، رأتني فقالت لي

- تشربين شاي؟
- نعم...اشرب

اخذت قدح كبير من الشاي وخرجت الى خارج البيت لأجد عمي يجلس وحده في الحديقة اقتربت منه فابتسم بوجهي، سلمت عليه وجلست قبالته

- مساء الخير عمي
- مساء الخير أبنتي

بدى للحظة انه يريد ان يسألني شيئا ما لكنه تردد قبل ان يقول لي

- اردت ان اسألك واتمنى ان لا تفهميني بشكل خاطئ
- لا طبعا عمي....اسأل ما تريد
- لماذا اخترتِ سعود
- نعم؟
- اعني لماذا وافقت على الزواج منه ...هو بالتالي ابن فلاح كما ترين

ابتسمت بوجهه وسألته

- عمي ....هل تعرف ان الفلاحة اهم مهنة موجودة في المجتمع
- كيف
- الانسان يمكن ان يتخلى عن اشياء كثيرة ولكنه لا يعيش اذا لم يأكل والفلاح هو من ينتج اهم شيء ليستمر الانسان بالحياة

فهو بالتالي يمارس المهنة الاهم، فانا افتخر حقا ان يكون والد زوجي فلاح

ابتسم بوجهي وقال لي

- الله يجبر بخاطرك
- الامر الاخر انني عندما تزوجت سعود، فكرت بهِ فقط وهو انسان اكثر من رائع، ذكي جدا ومتفهم وشفاف
- نعم سعود وصديقه جمال كانوا الاكثر ذكاء في تل الخصيان

كانوا شطار جدا في المدرسة

- ماذا؟
- نعم؟
- قلت تل الخصيان...ماذا تعني بذلك
- هذه القرية ..يسمونها تل الخصيان
- ولماذا يسمونها بهذا الاسم
- والله لا اعرف....نحن انتقلنا اليها في نهاية السبعينات وكانوا يسمونها هكذا
- ولم تسألوا اهلها عن ذلك
- سألنا ولكنه اسم قديم وهم ايضا لا يعرفوا او ...ربما لا يريدوا ان يخبروا احدا...بالتالي هي مجرد تسمية
- معقولة ليس هناك في هذه القرية من يعرف تاريخها
- لا...هناك حجية سريوه
- ومن تكون حجية سريوه؟
- ام جمال...الصديق الأقرب لسعود لكن لا يمكنك ان تعرفين الصدق من الكذب فيما تقول...والاخرين لا يصدقونها كثيرا
- حسنا عمي ..عن اذنك

تركتهُ وذهبت ابحث عن زوجي، وجدته يجلس في احدى غرف البيت ويستمع الى الاخبار من خلال شاشة تلفاز، اقتربتُ منه وبدأت امسد على رأسه فنظر الي وابتسم، قلت له

- حبيبي اريد منك شيئا
- خير
- اريد ان اذهب الى بيت حجية سريوه

قفز من مكانه وبدت علامات الدهشة واضحة على محياه

- من؟
- حجية سريوه
- من اين تعرفين انتِ حجية سريوه
- جلسة صغيرة مع عمي تكفي لأعرف كل شيء
- ايتها الشيطانة
- انت تعرف انني مغرمة بالميثولوجيا ..وانت خبأت عني هذه القصة العظيمة
- أي قصة
- تل الخصيان...لماذا لم تخبرني بذلك
- بصراحة خجلت من ذلك، تصورتك وانت تخبرين اباك انك ستتزوجين رجلا يعيش في مكان اسمه تل الخصيان
- اذا اخبرني انت
- لا اعرف....والحقيقة انني لا اريد ان اعرف...انتِ تعرفين انني اكره التاريخ واعتقد انه مزيف على الدوام

كانت هذه نقطة خلاف كبيرة بيني وبين سعود فانا اهتم بشكل كبير بتاريخ الناس الشخصي بينما يهتم هو بالظواهر التاريخية لذلك كان موضوع رسالته للماجستير هو واقع المرأة العراقية في ستينات وسبعينيات القرن العشرين، كان يعتقد ان واحدة من اهم

اسباب هذا الانتقال الاجتماعي في هذه الفترة وخروج المرأة من البيت الى الدراسة والعمل هو هذا النزوح الكبير الذي نقل الجنوبيين الى بغداد، البغداديون لأول مرة يشاهدون المرأة تخرج من البيت طوال النهار وتمارس اعمال اقتصادية متنوعة، المرأة البغدادية التي كانت لا تخرج من بيتها الا لتدخل بيت الجيران كما يقول ناظم الغزالي تقف امام نموذج اخر لامرأة تعمل في الاسواق وربما حتى في المعامل من دون اي يشكل ذلك أي احراج للرجل، لكن معظم اساتذته خاصة البغداديون عارضوا هذه الفكرة واعتبروا ان المرأة الجنوبية كانت تعمل في اعمال بسيطة اضافة الى كونها امرأة غير متعلمة ولهذا فهي لا يمكن ان تشكل دافعا للأخريات ليحذن حذوها، لكن سعود بقى مصرا على فكرته وبدأ يسندها ويدعمها بالكثير من الحقائق والقصص، الاساتذة احترموا قناعته تلك رغم انهم لم يتبنوها بالنهاية، اعتقد هذا الذي جعل الاساتذة لا يمنحونه درجة الامتياز لنيل شهادة الماجستير، اما انا فما زلت غير واثقة من انني استطيع ان اقدم رسالتي رغم ان الرؤية مكتملة عندي اضافة الى تشجيعه لي في هذا المجال، افكر احيانا ان اطبع كتابا يتحدث عن القصص والاساطير العراقية في العصر الحديث وتأثيرها على تكوين الشخصية العراقية، كنت اسمع الكثير من قصص العجائز لكنها لم تكن تمتلك الاثارة وكلها مستمدة من قصص قديمة سواء قصص الف ليلة وليلة او قصص الزير سالم وربما بعض القصص المرتبطة بالدين او الحكمة والتي تخلو من التلقائية وتفتقد عنصر الدهشة وواضح انها تصدر من خيال بشري بسيط وغير واعي لمقتضيات السرد، اسم مثل (تل الخصيان) لابد انه يحمل قصة مثيرة فمن غير المعقول ان يتورط اهل القرية بهذه التسمية من دون ان تكون هي من التصقت بهم ولم تعد لهم القدرة

على تغييرها او محوها من ذاكرة الاخرين، الاخرون خارج هذه القرية هم من فرضوا التسمية واصبح نكرانها او تغييرها غير ممكن عمليا، بالنهاية يمكنهم ان ينسوا القصة وتبقى التسمية الشاهد الوحيد عليها، لكن ما الذي حصل هنا هذا ما ستخبرني به حجية سريوه وهذا جعلني اتوسل بسعود ليأخذني اليها، حقيقة هو لم يكن مستعدا للذهاب الى هناك، بدى منزعجا وهو يصرخ بوجهي (انسي الموضوع) لكنني قلت له (اذا تريدني ان انسى الموضوع فاخبرني السبب)، صمت لفترة طويلة ثم هز برأسه وقال لي

- اسف...لا استطيع

كنتُ اعرف ان هناك شيئا ما يمنعه من الذهاب الى هناك، وهذا جعلني اقف واضمه الى صدري قبل ان اضع وجهي مقابل وجهه مباشرة واقول له

- حبيبي ...انت تعرف انني احبك، احبك بطريقة كاملة واريدك كاملا بين يدي بكل ذكرياتك، بكل تاريخك، بكل حسناتك وسيئاتك، ارجوك دعني اشاركك في كل شيء وهذا لا يمكنني التنازل عنه، لا اريد ان اشعر ولو للحظة انني لا اعرف شيئا عنك ..انا اخبرتك بكل شيء عني، اسوأ لحظاتي وكل ما افكر وفكرت فيه لكنني اشعر دائما ان جزء منك مفقود، جزء لا يمكنني العثور عليه، جزء يبقى بيني وبينك واحيانا يدفعك بعيدا عني وانا لا اريدك هكذا، انا زوجتك واريدك عاريا تماما، لا يمكنني الالتصاق بك وانت ترتدي كل هذا التاريخ

- ولكن هناك اشياء لا يمكنني قولها وربما ليس من حقي ذلك

- من حقي انا ان اعرف كل شيء عن الرجل الذي اصبح حياتي كلها والحقيقة ان المعرفة لن تغير شيئا ولكنها تمنحني التصاقا كاملا، تذكر انني تعريت امامك تماما، اخبرتك كل شيء

لا نني اعتقد ان ذلك من حقك ولن اشعر بك تماما الا اذا كنت عاريا، الان عليك ان تختار، فالعشق لا يتحمل الاشياء

الناقصة، كنتُ لا افهم لماذا تبقي مرتديا بعض الملابس وانت تضاجعني، كنت احبك عاريا تماما، صحيح انني كنت اخجل ان اطلب منك ذلك وكنت اتأمل ان تقوم انت بذلك من دون ان اطلبه منك لكنك لم تكن تبالي او بالأحرى كان هناك شيئا ما لم افهمه يمنعك من التعري، عرفت ذلك عندما منعتني من ان اعريك بيدي، احسستُ حينها بعار حقيقي لكن ما ازعجني حقا هو انني تأكدت ان هناك سعود اخر لا اعرفه ولم اصل اليه بعد، هناك عشرات القصص وربما عشرات العقد التي لا اعرفها ولا يمكنني تلمسها، هل تعرف حبي لك جعلني اتجاهل ذلك ولكن جدارا من نوع ما بدأ يبعدك عني، اقفز بكل قوتي لأراك من فوقه دون جدوى، عندما طلبت مني ان نذهب لزيارة اهلك فرحت كثيرا فلابد انني سأجد هناك بعض تاريخك مرمي هنا او هناك، بين جنبات البيت او في شوارع هذه القرية لكن الامر يبدو اكبر من ذلك، هناك تاريخ للقرية، للناس، لهذه البساتين، تاريخ مشوق ومثير علي ان اعرفه وربما اجد تاريخك بين ثناياه عندها فقط ستسمح ليديَّ هاتين ان تعريك حتى اخر قطعة

ابتسم بوجهي وقال لي

- حسنا...هذه المرة سأتعرى بإرادتي رغم صعوبة ذلك لكن يبدو انني كنتُ انانيا، كان علي ان افهم ان حبي لك اكبر حتى من التاريخ وان الحب لا يفهم عقد الماضي ولن يبقي على سريتها، دعيني نذهب للخارج وسأتعرى امامك تماما

(٣)

عندما خرجنا الى البستان المتصل بالبيت بدى سعود محتارا، انا اعرف انه متردد وغير متأكد ان ما سيقوم به سيكون عمل صائب ، هل سيغير شيء في علاقتنا، ربما يقلل من احترامه وهيبته امامي لكنه كان يعرف انني لن اكف عن السؤال من دون ان يخبرني بقصة حياته كاملة، كان عمي وشيخ ابراهيم قد ذهبوا للجامع وحسنة جلست في الصالة الرئيسية تشاهد مسلسل تلفازي يبدو انها تتابع حلقاته باهتمام وهذا جعلنا لوحدنا في هذا الفضاء الاخضر الواسع، بقيت صامتة أتأمل مزرعة الخيار والباميا وقمريات الاعناب عندها كان سعود يتأملني وربما ينتظر ان اسأله مرة اخرى لكن رغبة السؤال عندي كانت ضائعة، هو عليه ان يتكلم الان ان يقول كل شيء لأنها اللحظة المناسبة، لا اعتقد انه سيخبرني بشيء ما لو تعدينا هذه اللحظة وعلي حينها ان اقتنع بهذا الوضع وهذا الجدار العالي الذي بدأ يعلو ويعلو ليمنعني من رؤيته، ضجت العصافير فجأة بزقزقة عالية جعلتهُ ينتبه الي ويعدل من جلسته قبل ان يبتسم ويقول لي

حسنا سأبدأ من هناك من تلك القرية البعيدة التي كنا نسكن فيها في بيت مبني من الطابوق عكس معظم بيوت القرية الطينية ما عدا بيوت الاقطاعيين الاربعة الذين كانوا يملكون معظم الاراضي التي تمتد على مساحة واسعة قرب القرية، جدي ضمد وناس راضي كان الاكثر ذكاء في القرية والذي استطاع ان يغير وضعه الاجتماعي عندما ترك بيت ابيه الفلاح البسيط والتحق بالجيش العثماني حينذاك قبل ان يعمل في الطبابة العسكرية ورغم انه لم يستطع ان يجني الكثير من المال من عمله هذا ولكنه استطاع ان يتعلم الكثير وبشكل يمكّنه من مداواة الناس واجراء عمليات

جراحية صغرى لهم اضافة الى تضميد الجروح ومتابعة الحالات الصحية مع معرفة لابأس بها بالأدوية والاعشاب وهذا جعل الناس في القرية يطلقون عليه لقب (الحكيم)، الناس في ذلك المكان كان يطلقون صفة الحكيم على الطبيب وبمرور الوقت كان بيت جدي يسمى ببيت الحكيم واصبح نقطة مميزة داخل القرية فهو الحكيم الوحيد في القرى المنتشرة على مساحة واسعة من الارض، جدي استطاع ان يحصل على الكثير من الاموال خاصة من الاقطاعيين الذين كانوا لا يبخلون عليه بالمال لشدة حاجتهم اليه حيث انهم في العادة كانوا يضطرون لأن يقطعوا عشرات الاميال للوصول الى مشفى الولاية لكنهم الان يتلقون العناية الطبية وهم في بيوتهم اضافة الى الشعور بالاطمئنان الذي منحه له وجود من يهتم بهم طبيا في الحالات الطارئة، وهذا جعلهم يمنحون جدي قطعة ارض مميزة بنى داخلها بيتا من الطابوق، حاجتهم لجدي كانت قد جعلتهم يتناسون هذا التحول الاجتماعي من ابن فلاح عادي الى حكيم يقترب من المجتمع الاقطاعي الذي كان معزولا عن مجتمع الفلاحين ومن الصعب حقا وربما من المستحيل ان يستطيع احد الفلاحين يعثر على موطأ قدم داخل هذا المجتمع الارستقراطي، كان جدي يقوم بتطبيب الفلاحين بشكل مجاني والحقيقة انهم لم يكونوا يملكون شيئا سوى بعض البيض وربما الحليب وفي احسن الاحول الدجاج لكن جدي كان يرفض ان يأخذ منهم شيئا وهذا جعله محبوبا ومميزا جدا عندهم، ابي لم يكن بذكاء جدي ورغم كل محاولات جدي لتعليمه مهنة الطب لكنه وجد نفسه مزارعا فقط وبدأ يهتم بالأرض التي منحها له الاقطاعيون وبسند ملكية عثماني، كان جدي يخرجه من الصندوق الذي يحفظ فيه اوراقه ووصفاته الطبية ويتأمله قبل ان يبتسم وهو يعيده الى الصندوق، كان هذا السند انتصاره الحقيقي على هذا العالم المختل وهذا جعل بيت جدي

يحتل مكانة غريبة داخل هذا المجتمع الطبقي فلا هو محسوب على مجتمع الفلاحين ولا هو محسوب على مجتمع الاقطاعيين وليس هناك من يشاركه في هذه الطبقة الاجتماعية التي احتلت المسافة بينهما إلا ان جاء الزعيم وسلب الاراضي من الاقطاعيين ومنحها للفلاحين، ورغم ان جدي ترك مهنة الطب بعد ان افتتحوا مركز صحي في المنطقة القريبة من القرية لكن الفلاحين بقوا ينظرون اليه بكل الاحترام اللازم هذه المكانة تحولت الى ابي حيث كانوا يعاملونه وكأنه واحد من الاقطاعيين وكانوا يطلبون منه دائما ان يتوسط في حل الخلافات التي تحصل بينهم في الغالب وبدأوا يطلقون عليه لقب (المبخوت) فهو من يملك الكلمة النهائية بعد ان يسمع الطرفين وعندها يقبل الجميع بحكمه، ابي كان يجيد حقا دور القاضي وفي الغالب يرضى الطرفين على ما يقدمه من احكام...

صمت سعود فجأة وكأنه تذكر شيئا ما وبدأ يتأمل العصافير التي تتحرك بنشاط بين الاشجار استعدادا لنهاية يوم أخر، كنت اعرف انه يسأل نفسه ان كان سيستمر بسرد قصة حياته او يتوقف عند هذا الحد، انا لم اتكلم، انتظرته يتخذ قراره بكل حرية فهو يعرف انني لن اقبل بالقصص الناقصة ولن اقبل به الا بعد ان يتعرى بشكل كامل، اي قطعة قماش على جسده ستكون خلل كبير ربما سيتسع بطريقة لا يمكننا السيطرة عليها كما انني لا اعتقد انني من النوع الذي يستغل القصص والتواريخ الخاطئة لمصالح شخصية، هو يعرف انني من النساء اللواتي يعشقنَ بكل خلية من خلايا جسدها وعندما تشعر ان هذا الحب انتهى فستدير وجهها وتذهب من دون ان تخلف ورائها اي كدمات، هذا النوع من النساء اللواتي لا يعرفن الانتقام كما انني حقا لا اعتقد ان هناك من يستحق ذلك على الاقل هذا الرجل الذي احببته بشكل حقيقي فلا يمكنني ايذائه حتى اذا تحول الى وحش وبالغ في ايذائي او

تصرف معي كأبن فلاح لا يرى في المرأة سوى فرج مهمته الجنس والولادة، انا اعرف ان سعود يختلف ولكن حتى لو تحول الى هذا الكائن فلا يمكنني ايذائه لأنني سأتذكر انني احببته بطريقة صادقة في يوم ما كما انه يعرف ذلك وهذا جعله يعود ويجلس قبالتي، ويبدأ بالتحدث ولكن هذه المرة بصوت واطئ يحمل بين طياته مسحة واضحة من الحزن، قال لي

لم أرَّ امي، كانت قد ماتت بعد ولادتي مباشرة، ورغم ان ابي كان يعرف انها ستموت فيما لو ولدت مرة اخرى بعد ما عانته في ولادة اخي ابراهيم وتحذير الاطباء له ان اي ولادة اخرى ستشكل خطرا واضحا على حياة الام والجنين معا لكن ابي وبعد خمس سنوات من ولادة اخي نسى او ربما تناسى ذلك كما ان ضغط الناس اجبره على هذه المغامرة، اخي ابراهيم مازال يتذكرها بشكل جيد، يتذكر وجهها، ملامحها، بل حتى هذا الشعور الهائل بالحنان الذي فقده ولم تستطع اي امرأة ان تعوضه اياه، ربتني اختي سليمة وهي تكبر اخي ابراهيم بتسع سنوات ولكنها كانت امرأة كاملة وهي بهذا العمر، تحملت مسؤولية البيت بشكل كامل، كانت الام الوحيدة التي اعرفها، التي شعرت بحنانها وبلمستها وهي تضغط على جسدي وتحتضنني بقوة، اخي ابراهيم لم يكن يفهم ذلك وكان يعتقد على الدوام انني السبب في موت امي، حتى عندما كبرنا كان هناك شعورا داخله انني كنت السبب بطريقة ما اما ابي فكان يشعر بالذنب لكنه سرعان ما نسى كل شيء رغم انه رفض ان يتزوج بعد وفاة امي رغم العروض الكثيرة التي تلقاها للزواج ولكنه كان يخاف علينا كما ان اختي سليمة كانت تقوم بكل ما يلزم في امور البيت، عشنا حياة هادئة، كنا نقوم بزراعة الارض وقد يضطر ابي بتأجير بعض الفلاحين خاصة عندما فتحوا مدرسة ابتدائية في مكان قريب من القرية والتحقنا

انا واخي ابراهيم بها، كان ابي يشعر بسعادة كبيرة وهو يرانا ننجح وننتقل من صف لأخر ولكن الشيء الذي لم يكن يفكر به ان سليمة ايضا بدأت تكبر وان فرصها بالزواج بدأت تقل باستمرار فالبنات في هذا المكان يتزوجن في اعمار صغيرة في العادة ولكن سليمة تجاوزت العشرين من عمرها من دون ان يتقدم اليها احد، سليمة كانت جميلة، تشبه ابي بشكل كبير كما انها كانت ذكية وقادرة على العمل من دون كلل او ملل فهي تقوم بمعظم اعمال البيت حتى التي تتطلب رجلا للقيام بها كما انني لا اتذكر انها تعبت او اعترضت على شيء، كانت مبتسمة على الدوام وحنونة بشكل كبير اما لماذا لم يتقدم لخطبتها احد فاعتقد ان المكانة التي كان يتمتع فيها ابي داخل القرية وتاريخ هذا البيت الذي يشكل لوحده الطبقة الوسطى بين طبقة الاقطاعيين وطبقة الفلاحين هي من جعلت حظوظها بالزواج قليلة، عدم الانتماء هنا هو الذي افقد اختي سليمة ابسط حقوقها فالإقطاعيون ما زالوا يحسبون بيت الحكيم على الفلاحين اما الفلاحين فبالرغم انهم لا ينظرون الى هذا البيت كواحد من بيوت الاقطاعيين ولكنه ايضا لا ينتمي اليهم، حتى بعد ان تملكوا الارض ولكن النظرة القديمة ما زالت قائمة وما زالوا ينادون الاقطاعي بلقب (المحفوظ) كلما تكلموا معه، في تلك الايام التحق بالمدرسة استاذ ناظم، واستاذ ناظم هذا شاب لم يصل الى عمر الثلاثين، اسمر البشرة ذو شعر كثيف يفرقه من الجانب، وسيم بطريقة واضحة كما انه يهتم بهندامه بشكل كبير، كان يقوم بتدريس تلاميذ الصف الخامس والسادس وكانت له طريقة محببة بالتدريس جعلت التلاميذ يحبونه ولأنه من مدينة بعيدة فقد منحته ادارة المدرسة غرفة صغيرة ملحقة بالمدرسة بعد ان جهزتها بما هو مطلوب، وخلال فترة قصيرة اصبح استاذ ناظم جزء من القرية فهو لا يفارق

المقهى الوحيد في القرية وبدى وكأنه يعيش هنا منذ زمن طويل، الناس احبوه ولا ضير في ذلك ولكن الذي لم يكن في الحسبان ان سليمة تحبه والشيء الاغرب انه هو ايضا يعشقها، في الحقيقة لا اعرف ان كان قد احبها او لا ولكن على الاقل ظل وفيا معها حتى النهاية، كما انني لا اعرف كيف التقى فيها وهل كانوا يتواعدون بعيدا عن أنظار الناس ، لان ما حصل بعد ذلك كان اكبر من رغبة بالزواج بل انه نوع من العشق الذي يحمل صاحبه الى المستوى الابعد وربما يجعله يخسر كل شيء، بعد حوالي شهر تقدم لخطبتها عندما جاء برفقة عدد من رجال القرية لكن ردة فعل ابي كانت غريبة فقد رفض وبشدة، ابي كان يعتقد ان استاذ ناظم غريب و(الغريب ذيب) كما يقولون هنا لكن دافعا اخرا هو الذي جعل ابي يرفض وبهذه الشدة هو ان البيت سيضيع حقا من دون اختي سليمة فهي كانت تقوم بكل شيء وعندها عليه هو ان يتزوج ويجلب زوجة اب الى هذا البيت، كما انه كان لا يعرف لا هو ولا اي رجل من رجال القرية تاريخ هذا الاستاذ والتاريخ في هذه القرية مهم الى درجة جعلت ابي يضرب سليمة عندما واجهته وقالت له انها تريد هذا الاستاذ، كانت جرأة غير معهودة وربما غير ممكنة في هذه القرية فلا يمكن لفتاة ان تقف بوجه ابيها بهذه الطريقة، لكن خسارات سليمة كانت كبيرة، فهذا النوع من الرجال لا يمكن الحصول عليه على الدوام كما انها بشكل فعلي قد عبرت سن الزواج المعتاد واصبح مجرد لحصول على رجل يصلح للزواج منها حلم بحد ذاته، ضربها لكنها لم تسكت واستاذ ناظم ايضا لم يسكت وبدأ يرسل رجال القرية من اجل اقناع ابي لكن ابي كان يزداد عنادا، كرهت ابي في تلك الفترة فهو يضرب الام الوحيدة التي اعرفها اما اخي ابراهيم كان

يؤيد ابي على الدوام واحيانا يصرخ بوجه سليمة رغم انه لا يستطيع ضربها..

بعد ثلاثة اشهر وكان حينذاك يوما شتويا باردا وممطرا عندما استيقظ ابي وقت صلاة الفجر وصرخ بسليمة كي تجلب له الماء ليتوضأ ولكن لا مجيب عندها اكتشف ان سليمة هربت مع استاذ ناظم وتركتنا للوجع الذي لا ينتهي، كانت ايام مرعبة جعلت ابي واخي ابراهيم يبحثون عنها في كل مكان دون جدوى حتى انهم ذهبوا الى البيت الذي كان يعيش فيه استاذ ناظم قبل مجيئه الى هذه القرية واكتشفوا انه كان قد أجر هذا البيت من دون ان يعرف احد من اين جاء قبل ذلك، البحث عن سليمة استمر لأكثر من شهر، في تلك الفترة كان الكل يغلي وبدأ ابي ينهار بشكل كبير اما اخي ابراهيم فكان في حالة هستيرية على الدوام، سليمة دنست شرف بيت الحكيم وجعلت ابي يطأطأ رأسه كلما مر به احد، بعد شهر باع ابي البيت والارض وجاء بنا الى هذه القرية البعيدة، اشترينا هذه الارض وبنينا هذا البيت رغم ذاك فأخي ابراهيم لم يكف عن البحث عن سليمة.

(٤)

ما زلت اتذكر اليوم الذي خرجنا فيه من القرية، ابي استغل الوقت بين صلاة الفجر وخروج الفلاحين لمزارعهم ليهرب، نعم يهرب فقط بعد ان اصبح وجوده في هذا المكان وجعا لا ينتهي، بمجرد ان خرجت السيارة التي أجرّها ابي لتقلنا الى الولاية ومنها الى المجهول فلتت دمعة من عينيه، ابي يبكي، هذا ليس حادثا عاديا، يبكي امامنا، ودمعته تلامس الهواء من دون ان يحاول ازالتها، يتركها تسير بهدوء على خده وتسقط في الفراغ، ليس حادثا عاديا فأبي لا يبكي ابدا حتى عندما ماتت امي، في حينها اقفل باب الغرفة وراءه وبكى حتى ابتلت لحيته هكذا اخبرني ابراهيم رغم انه لم يكن متأكدا من ذلك او ربما تخيل فقط انه بكى، المهم انني بدأنا نعرف الان انه يعرف شيئا اسمه البكاء، كان مهزوما بالكامل وهو يغادر القرية الى المجهول، في الولاية بتنا ليلة كاملة عند صديق ابي (حجي مؤنس) الذي ولد في تل الخصيان قبل ان ينتقل للعيش في الولاية وهو نفسه قادنا الى هذه القرية وعرّفنا على اهلها بعد ان سمح لنا شيخ الوادي وهو الرجل الكبير في القرية حينذاك للعيش فيها، اشترينا هذا البيت والارض التي كانت مهجورة حينذاك وعشنا هنا رغم اننا لم ننس يوما ما فعلته بنا اختي سليمة، في الحقيقة اخي ابراهيم لم ينس ذلك للحظة واحدة لأنه تركنا ورحل للبحث عنها قبل ان يعود الينا بعد شهر من دون ان يعثر عليها، انا وابي بدأنا نتأقلم مع هذا المكان اما اخي ابراهيم فقد أخصى عار سليمة كل تفكيره وجعله لا يفكر بشيء سوى رغبته بالانتقام، هذا الانتقام الذي لم

يحصل عليه ولكنه حوله الى كائن حاقد على المرأة بل وحتى الحياة بشكل كبير، لجأ الى الله ليمنحه انتقامه او ليهدئ من سريرته التي لا تهدأ، كان يصلي كثيرا ويصوم معظم ايام السنة، حتى في الايام التي لم يكن يصوم فيها فأن رغبة الاكل عنده كانت شبه معدومة قبل ان يقرر الذهاب الى الولاية والالتحاق بالمدرسة الدينية هناك اما انا فقد اكملت تعليمي في المدرسة القريبة من القرية قبل ان التحق بكلية الآداب واراكِ هناك واحبكِ واتزوجكِ واحملكِ معي الى تل الخصيان..

ابتسم سعود وهو يقول لي

- هذه هي كل القصة
- وجمال ابن حجية سريوه
- ما به
- لا اعرف ولكنني شعرت انك لا تريد ان تراه رغم ان اباك اخبرني انكما كنتما لا تتفارقان
- نعم...جمال كان اول من تعرفت عليه في هذه القرية، كان شابا ذكيا وشاطرا في المدرسة، كان هو الاول على الدوام، شاب هادئ، طيب بطريقة، يحب القراءة والمعرفة ولكنه لم يكن يعرف الكثير عن الحياة، لم يفارق هذه القرية الا عندما تخرج من السادس العلمي وبمعدل ٩٤ بالمئة ليلتحق بالجامعة المستنصرية كلية الهندسة المعمارية، تخرجنا سوية وذهبنا الى بغداد سوية وعشنا في الاقسام الداخلية سوية، كان وجودنا معا يشعرنا بالأمان في هذه المدينة الكبيرة التي تعج بالحياة والموت في نفس الوقت، في السنة الثانية قال لي انه بدأ يشعر بالحب تجاه احدى زميلاته في القسم، كانت قد طلبت منه ان يحل لها بعض المسائل التي لم تفهمها، خلال

هذه السنة تطورت علاقتهما بطريقة سريعة، كانت لا تفارقه وهو تمسك بأذيالها مثل الطفل الذي يتمسك بثوب امه، لا اعرف اذا كان ما بينهما حبا او مجرد حاجات مخفية بدأت تتكامل بينهما جعلت كلا منهما يلتصق بالأخر بطريقة مفضوحة امام كل زملائهم في كلية الهندسة، عندما قابلت نجاة لأول مرة اذهلتني بطريقتها بالكلام وقوة شخصيتها وطموحها الذي كان لا يوقفه شيء، شخصية براغماتية بشكل مثير للدهشة وبالعكس تماما من شخصية جمال الحنونة والمتعاونة والمحبة للأخرين، كانت نجاة تعرف ماذا تريد ولا تضع قدمها الا في ارض صلبة، بدأت اشعر انها تحتاج جمال ليساعدها في الدراسة ولم تكن تعشقه رغم انها اخبرته واخبرت الجميع بذلك، لست انا وحدي من شعر بذلك، كل من عرف نجاة كان يعرف هذه الحقيقة اما صديقاتها المقربات فهي من اخبرتهم بذلك، اخبرتهم انها تستعمل جمال لتتجاوز دراسة الهندسة المعمارية الصعبة والتي لن تستطيع عبور الامتحانات من دون مساعدة حقيقية من جمال، الطالب الذكي والمتابع والذي ابهر الاساتذة قبل الطلاب بقابليته على التلقي والتفاعل والمعرفة، كنت افهم هذا العشق الذي اجتاح كيان جمال وحوله الى كائن شفاف وهادئ بطريقة جميلة، كل شيء كان رائعا، اهتمامه بنفسه، طريقة كلامه عن نجاة، عيناه اللتان تلمعان كلما مر اسمها، اعضاءه اللواتي يقفزنَّ من الفرح كلما لمحها من بعيد، في الحقيقة كنت احسده على هذا العالم الذي حول الدراسة في الكلية الى عشق وشغف وعالم مملوء بالمشاعر الرائعة، لكن جمال كان رائعا، هو نفسه كان له خبرة هائلة بالعشق، بتلمس الاشياء والتوغل داخلها وملامسة روحها الحقيقية وهو الذي عاش طوال عمره

في حضن الاشجار والنهر والطيور المتعانقة، ولهذا عندما وجدتك لم اضيعك فقد احببت ان اعشقكِ بطريقة جمال، والحقيقة ان اي طريقة اخرى ستبدو سخيفة وغير لائقة بهذا الهيجان للمشاعر الذي لا يكف عن تحويلنا الى كائنات شفافة ولائقة بالحياة، لكن نجاة لم تفهم كل هذا، كانت تستعمل مشاعرها كطريق للحصول على شهادة الهندسة التي ادركت منذ اليوم الاول انها لن تستطع الحصول عليها من دون مساعدة شخص ذكي وقادر على استيعاب الدروس مثل جمال، في ذلك اليوم كنت اجلس وحدي في حديقة الجامعة عندما اقتربت مني مُنى وهي واحدة من صديقات نجاة المقربات، كنا قد التقينا قبل ذلك مرة او مرتين ودائما برفقة جمال ونجاة، جلست بقربي بعد ان سلمت، بدت مرتبكة لوهلة لكنها تمالكت نفسها وقالت لي

- سعود اريد ان اخبرك بشيء ما

هززت رأسي متسائلا فوقفت وقالت لي بلهجة حادة وواضحة

- نجاة تضحك على جمال....هي لا تحبه، وستتركه بمجرد ان تنتهي الامتحانات، بصراحة اريدك ان تخبره حتى لا ينصدم عندما يعرف هذه الحقيقة

ثم تركتني في حيرة لا يعلم بها الا الله فانا اعرف هذه الحقيقة منذ وقت طويل واتجاهلها او ربما اقنع نفسي انني مخطأ وكل ما علي ان اترك الامور تأخذ مجراها، حتى اذا كانت نجاة لها غايات اخرى غير الحب فربما تجد نفسها تحبه بالفعل فالحب يأتي بغتة ومن دون مقدمات، في الحقيقة وجدت ان من السخف ان أوقظ جمال من هذا الحلم الجميل، لكن الان الامور تختلف فالسنة الاخيرة توشك على النهاية

ومنى كلفتني بشكل رسمي بمهمة ايقاظ جمال ولو لم افعل ذلك فسأكون صديقا سيئا بالفعل، يرى صديقه يغرق من دون ان يمد له يدا وينتشلهُ، في ذلك اليوم اخبرت جمال بما قالت منى فابتسم بوجهي وقال لي (مجرد غيرة نساء، هذه العادة السخيفة عند كل النساء) لكنه صمت عندما اخبرته انني انا ايضا اعتقد ذلك ولست انا وحدي بل كل من يعرف بعلاقتك مع نجاة يعرف ان نجاة تستغلك فقط ولم تبادلك نفس المشاعر في يوم ما، عندها وقف ونظر الي نظرة غريبة تحمل الكثير من الحيرة والوجع وقال لي بلهجة حادة (سعود تكلم عن نفسك فقط، للأسف كنت اعتبرك صديق العمر لكن يبدو انك مثل منى للأسف يا صديقي ...فعلا للأسف) لم يكلمني بعد هذه المحاورة، حاولت ان اشرح له اكثر من مرة لكنه رفض ان يسمع أي شيء، في اليوم التالي تحول الى غرفة اخرى في الاقسام الداخلية بعد ان وجد سريرا فارغا هناك وبصعوبة، في حينها اصابتني حيرة كبيرة ولم اكن اعرف ماذا افعل فانا كنت متأكد ان نجاة ستتركه بالنهاية وهذا سيصيبه بصدمة ستكون لها تأثير كبير على حياته كلها، كان قد طلب من نجاة ان يتقدم لخطبتها بعد ايام من التخرج لكنها بقت تراوغه الا ان انتهت الامتحانات عندها بدأت تتهرب منه، حاول الاتصال بها اكثر من مرة من دون جدوى الا ان جاء يوم استلام النتائج، كان الطلاب مشغولون بنتائجهم وجمال ينتظر نجاة حتى اذا رآها ركض نحوها مثل الطفل، قادها من يدها واخذها الى ركن في حديقة الجامعة وطلب منها تفسيرا لابتعادها وعدم ردها على مكالماته، عندها قالت له بهدوء وبطريقة متكلفة (جمال ارجوك ...اسمعني...انت شاب لطيف وذكي وهناك الف من تتمنى الارتباط بك، في

الحقيقة فكرت كثيرا في الفترة السابقة وتذكرت كل ما دار بيننا طوال هذه السنوات وتأكدت اننا لا يمكن ان نصلح كأزواج، انا بنت مدينة من عائلة متحررة وانت رجل من اصول ريفية لكم عادات وتقاليد صارمة لن تناسبني، ارجوك اعذرني واتمنى لك كل التوفيق في حياتك، اتمنى فقط ان لا تحاول الاتصال بي مرة اخرى، فكل شيء انتهى عند هذا الحد) ..تركته وذهبت استلمت نتيجتها وغادرت الجامعة بينما بقى هو متسمرا في وسط حديقة الجامعة لا يعرف ماذا يفعل، لم يستلم نتيجته، ذهب الى غرفته ولملم اغراضه وثيابه بسرعة وغادر بغداد عائدا الى تل الخصيان، عندما عدت انا الى القرية بعد ايام حاولت الاتصال به لكنه رفض ان يراني، امه حجية سريوه قالت لي انه لم يغادر غرفته منذ عودته من بغداد ويرفض التحدث مع اي احد، حاولت اكثر مرة خاصة مع الحاح امه الذي بدأت ترى ابنها يموت امامها من دون ان تفهم ما الذي حدث، سألتني اكثر من مرة لكنني تملصت من الاجابة فلم يكن من اللائق ان اخبرها بخيبة ابنها، بعد ايام سمعت انه سقط وتم نقله الى المستشفى، ذهبت اليه، كان هيكلا عظيما بلحية منتوفة وعينين غائرتين يحملان كل وجع الدنيا، فتح عينيه ورآني ففلتت دمعة من عينيه قبل ان يعطيه الطبيب ابرة مهدئة تجعله ينام وكأنه لم ينم منذ سنين، كان خجلا مني وغير قادر على مواجهتي بالفعل وهذا جعلني اترك تل الخصيان واعود الى بغداد لاستكمال إجراءات التقديم لرسالة الماجستير قبل ان اراك واعيش معكِ احلى الايام التي جعلتني انسى آلام جمال، رغم انني كنت اسأل عنه كلما اعود الى القرية، بعد اكثر من سنة كان هناك من يطرق الباب، فتحت الباب فوجدت جمال يقف مبتسما، سلم

علي وسلمني بطاقة دعوة زواجه، قال لي احسست انني سأكون سخيفا لو تزوجت من دون ان تقف بقربي، حضرت زواجه لكنني كنت اشعر ان هناك شيئا قد انكسر بيننا، ربما كنت اذكره بنجاة كلما رآني وهذا جعلني ابتعد هو ايضا استطاع ان يجد له تعيينا في دائرة البلدية القريبة من القريبة ولم يعد يذهب الى بغداد

وقف سعود وبدأ يتلفت وكأنه يحاول ان يرى شيئا ما قبل ان يقول لي

- في الحقيقة لقد اشتقت لهذا الملعون
- اذا ما رأيك ان نزوره في الغد

ابتسم وهو يقول لي

- المشكلة انكِ تعرفين دائما كيف تأخذي مني ما تريدين....حسنا سنذهب الى هناك في الغد

(٥)

لم أتذوق من قبل مثل هذا الطعم، قيمر العرب الذي وضعته امامي حسنة كان يحمل طعما غريبا وشهيا وانا اتناوله مع الخبز الحار، شعرت ان الجميع ارتاحوا لطريقتي غير المتكلفة في الاكل وحتى في التعامل معهم، كنت احدثهم وكأنني اعرفهم منذ زمن طويل، الوحيد الذي لم استطع الاقتراب منه هو شيخ ابراهيم الذي اتعبه وجودي بينهم وهو يبحث لرأسهِ دائما عن جهة اخرى غير الجهة التي اكون فيها، هذا الوضع اربك سعود ايضا وجعله يطلب مني ان اغير ملابسي كشرط اخير كي نذهب لبيت حجية سريوه، قال لي لا يمكن ان نمشي في القرية وانت بهذه الملابس، طلب من حسنة ان تعطيني احدى ثيابها مع شال اضعه على رأسي، ثوب حسنة وشالها غيرت شكلي بالكامل ومنحتني شكلا لامرأة بائسة وربما مريضة بمرض ما، فكرت ان ارفض واعاود ارتداء بنطالي الجينز وقميصي الوردي لكنني كنت اعرف ان هذا يسبب احراج كبير لسعود وربما يجعله يرفض الذهاب الى بيت حجية سريوه لذلك خرجت عليهم بثوب حسنة وانا ابتسم، احسست ان الجميع شعروا بالارتياح وانا اتحول الى كنة جديدة لهذا البيت، شكل اخر من حسنة لا يعرف سوى التنظيف وطبخ الطعام وفتح الافخاذ في الليل، لكن لابأس فكل شيء يهون مقابل ان اعرف ما الذي جرى هنا وجعل الاخرين يسمون هذا المكان بهذه التسمية الغريبة

تناولنا افطارنا بهدوء، كان طعم قيمر العرب الذي يسبح داخل الحليب رهيبا خاصة مع الخبز الحار الذي خبزته حسنة منذ طلوع الفجر، قال سعود لأبيه اننا سنتمشى في القرية فهز الاب رأسه موافقا بعد ان التفت الي واطمئن الى انني سأكون مجرد

امرأة اخرى تنتمي بشكل ما الى هذا المكان وكأن ثوب حسنة هو من جعلني انتمي للمكان، تاريخ سعود كله في هذا المكان لم يكن كافيا وهذا الثوب القصير هو من يمنحني وثيقة انتمائي لتل الخصيان، للوصول الى بيت حجية سريوه لابد ان نلتف على التل الذي يبرز لك فجأة بمجرد ان تنتهي الاشجار العالية التي تحجب عنك كل ما يقع خلفها، اشجار صغيرة كانت تنام بهدوء بين احضان الاشجار الكبيرة بينما ثمارها الغير ناضجة تتدلى بغنج لتلامس الارض احيانا، هناك الكثير من المطبات والحفر والسواقي الصغيرة التي نعبرها داخل هذا البستان قبل ان نتخلص من الاشجار ليقف امامنا التل بكل هيبته، لاحظت ان هناك كهفا او فتحة كبيرة في منتصف التل تقريبا وعندما سألت سعود عنه اخبرني انه كهف يمتد حتى الجهة الاخرى من هذا التل ولا يعرف احدا من حفره، قال لي احيانا تأتي الشرطة وتبحث داخله عن الهاربين من الجيش الذين بدأوا يختبؤون داخله قبل ان تكتشف قوات الامن ذلك، كنت اتمنى ان اصل الى هذا الكهف لكن رغبتي في رؤية حجية سريوه تغلبت حينها على اي رغبة اخرى، بدأنا نلتف على التل قبل ان ندخل بستان صغير يؤدي مباشرة الى البيت، كان كل شيء مرتبا بطريقة جميلة فشتلات الورود تحيط بالبيت من كل جهاته تاركة فسحة وحيدة للباب الخارجي، تقدم سعود وطرق الباب بقوة وكما هو معتاد في هذا المكان حيث ان هناك مسافة دائما بين البيت والسياج الخارجي، لم يخرج احد حينها لذلك تقدمت وضغطت على الزر الصغير للجرس، ابتسم سعود بوجهي لأنني انتبهت على وجود هذا الزر لأنه يبدو ان الناس هنا لا تستخدم عادة الاجراس وتكتفي بطرق الباب بقوة للتنبيه لحضور احد ما، خرج جمال بدشداشته البنية، وقف قليلا يحاول ان يستوعب الامر فالذي يبدو انه لم يكن يتوقع

زيارة سعود في يوم ما لكنه يقف الان بكل شحمه ولحمه امامه وهذا منحه مسحة من الارتباك مع دهشة بدت واضحة على محياه

- سعود؟...
- كيف حالك جمال
- اهلا ..اهلا سعود...تفضل
- اقدم لك زوجتي منال
- اهلا ..تفضلوا

لم يكن الباب الخارجي يبتعد كثيرا عن باب البيت الداخلي مثل معظم بيوت القرية الاخرى وهذا له دلالة على ان جمال لا يمتهن الزراعة مثل معظم اهل القرية، قبل ان نصل الى الباب الداخلي جاء صوت حجية سريوه من داخل البيت

- يمه جمال ..من هناك
- سعود يمه..

وقفت حجية سريوه واستقبلتنا في باب البيت، ركض سعود وقبل يدها لكنها التفتت واخبرته انها زعلانة منه فهل يعقل ان تمتنع عن رؤية امك سريوه طوال هذا الوقت، سعود بدى محرجا وهو يبرر غيابه عن زيارتها طوال هذه الفترة ولكي يتخلص من الموقف قدمني لها فسارعت لتقبيل يدها لكنها لم تسمح لي بل وضعت رأسها على رأسي وقالت بصوت هادئ

- الف مبروك يمه....اهلا...اهلا

حجية سريوه وعلى العكس مما تصورتها، امرأة لم تصل الى الستينات من العمر ذو وجه دائري جميل تحمل وشم احمر اسفل شفتها السفلى وذو شخصية واثقة بطريقة واضحة حتى يبدو انها

تسيطر عليك منذ النظرة الاولى وهذا اشعرني ان مهمتي معها لن تكون يسيرة وان علي ان اختار بعناية المدخل الصحيح للوصول الى غايتي..

جلسنا عندها دخلت علينا زوجة جمال، فتاة صغيرة يغلب عليها الضعف لكن وجهها يحمل جمالا غريبا وكأنها لا تنتمي بشكل ما الى هذه القرية فبشرتها البيضاء وجسدها الرشيق يوحيان بفتاة تعيش في أوربا، كانت هادئة وبصورة ادق باردة حتى في سلامها علينا قبل ان تحمل صينية الشاي مع طبق ملئ بخبز العروق الاصفر، جمال سأل سعود كثيرا عن بغداد، عن كل شيء هناك سوى نجاة، كنت اشعر انه يريد ان يسأل عنها ولو بدافع الفضول لكنه تجنب الامر، ربما في وقت اخر عندما يختلي به لكن الان نظرات حجية سريوه هي الاكثر اثارة والاكثر قوة، التفتت حجية سريوه الى مؤيد وسألته

- هذي زوجتك ليست من هنا
- نعم هي من بغداد
- لا ..اقصد ليست من هذا البلد

صمت الجميع، كانوا يحاولون ان يفهموا مقصدها ولكي لا يستمرون في حيرتهم اجبتها

- معكِ حق فقد قضيت معظم حياتي في هولندا

هزت رأسها وهذا جعلني اسألها

- ولكن كيف عرفتِ
- موهبة من الله ...تجعلني اعرف الاخرين
- مثل موهبة الحكواتي...اجبتها
- من هذا الحكواتي

- الحكواتي هو الذي يقص القصص على الاخرين، بعض هذه القصص كان قد سمعها من قبل والبعض هو من يقوم بتأليفها بخياله

ضحكت والتفتت الى زوجي وقالت له

- هذي زوجتك فضحتك...انت لم تأت اليوم لرؤية امك سريوه ..هي من قادتك الى هنا...

التفتت الي وسألتني

أي قصة تريدين ان تسمعي

- قصة تل الخصيان ...اجبتها
- ولكن لماذا؟؟
- اريد ان يكون لي دائما ما اقصه للأخرين...بعض هذه القصص ابدع كثيرا مما يصنعه خيالنا
- حسنا ولكن بشرط واحد
- موافقة
- على اي شيء
- على كل شيء...اجبتها
- هذه ليست قصة، وليست من صنع خيالي، هي حقيقة، جدتي اخبرتني بذلك وانا صغيرة لكنني عندما اخبرتها للأخرين لم يصدقونني فهل ستصدقينني انتِ
- جربيني...وسأصدقكِ...اعرف جيدا كيف افرق بين الخيال والواقع
- حتى اذا كان هذا الواقع اغرب من الخيال
- نعم ...حتى اذا كان كذلك
- حسنا ...اذا اسمعي جيدا ...لن اردك خائبة على كل حال..

حجية سريوه امرأة غريبة حقا ولها قدرة كبيرة على معرفة ما تفكر به، لا اعرف كيف وما هي هذه الموهبة التي تمكنها من ذلك لكنها فعلت ذلك وجعلت زوجي في موقف لا يحسد عليه يحاول ان يتجنب النظر اليها لأن أي مبرر لم يعد مناسبا او واقعيا لذلك حاول الاختلاء بجمال بينما حجية سريوه كانت تكتشفني، تكتشف هذه الفتاة التي جاءت من كون اخر وتحاول الدخول الى اعمق نقطة من تاريخ هذه القرية واكثرها حساسية، الان فهمت لماذا يتجنبون لقائها او سماعها معظم اهل القرية ليس لأنهم لا يثقون بروايتها كما اخبرني عمي وانما لأنها تفضحهم، تعرف ما يفكرون به وتواجههم وهذا يسبب لهم احراجا كبيرا بالشكل الذي حصل مع زوجي، لكنها ترى بياضي الان، تراه بشكل جلي وهذا هو من سهل مهمتي وجعلها ترتشف رشفة كبيرة من الشاي قبل ان تلتفت الي وتقول..

(٦)

هذه القرية كانوا يسمونها (المحصوبة)، يقولون ان مرض الحصبة قتل عدد كبير من اطفالها في زمن بعيد وهذا جعل الناس في القرى المجاورة يتجنبون الوصول اليها او حتى مقابلة واحد من اهلها ومن هنا جاء هذا الاسم وبقى مرتبطا بها حتى ذلك اليوم بعد ان غادرتها الحصبة الى غير رجعة...

كانت جدتي في الثانية عشر من العمر او ربما اكبر قليلا عندما حدث ذلك، قالت لي لحد هذه اللحظة لم نفهم لماذا حدث ذلك، وهل حقا حدث، الامر اشبه بذاكرة مؤلمة تحاول ان تدفنها بعيدا قبل ان تتوهم انها لم تحدث وانها مجرد هلوسات لا تعرف مصدرها لكنك في لحظة ما تتذكر كل شيء عندها تبتسم فقط ويزول الالم وتتحول هذه الذاكرة الى قصة حياة حدثت في زمن ما، حتى انك لا تجد ضيرا ما لأخبارها للأخرين، انا كنت في هذا الزمن الذي جعل جدتي لا تجد اي مشكلة في اخباري القصة كاملة ومن دون زوائد او رتوش لأنها دفنتها كثيرا والان تستخرجها وتنفض التراب عنها وتعيدها الى دواليب الذاكرة، كانت تنفعل وكأنها تستحضر كل الوجع والالم في القصة وتضعها بين يدي وكما يحدث الان وان استخرجها مرة اخرى لأضعها بين يديك رغم انني اعرف انك ستنقلينها الى مكان اخر، الى بغداد وربما الى اخر العالم ولكن لابأس فاذا صدقتيها انتِ كما تدعين فانا اعرف انه لن يصدقكِ احد، وهذا يجعلني اطمئن انني امنحك خيالا رغم انني اقول الحقيقة وكما اخبرتني بها جدتي..

كانت ليلة ممطرة، والمطر في القرى هو الخير بعينه، ليس هذا فقط بل هو الراحة التي تمنحها السماء للفلاحين وهي تساعدهم

في ارواء محاصيلهم او محاصيل الاقطاعيين الذي لا يمنحون الفلاحين سوى خبز الكفاف، لا اعتراض ولا ثورة ممكنة هنا لان (المحفوظ) ممكن ان يعاقب او ينفذ حكم الاعدام بأي فلاح ومن دون ان يخشى شيئا، المحفوظ الذي يرافقه المسلحين ببنادقهم المجهزة لا طلاق النار على الدوام على كل من يحاول المساس بهذا النظام الطبقي الفظيع...

شيخ حسن الوادي هو واحد من اكبر هؤلاء الاقطاعيين واكثرهم قوة ونفوذا ولكي يمنحه الله كل شيء منحه عشيرة من الذكور وبنت واحدة، كانت جميلة وهادئة وقليلا ما كانت تخرج خارج البيت، حتى ان اهل القرية يذكرون اسمها فقط من دون ان يشاهدونها في يوم ما، هذا منح للقصة غموضا اخرا فهذه البنت التي ستكون محور القصة كانت معروفة كاسم عند الاخرين ولم يكن لها وجود فعلي في ذاكرة القرية، لم يرها احد وكانوا يعتقدون على الدوام انها تعيش في مكان اخر وليس في البيت الكبير المضيء على الدوام داخل ليل القرية المظلم، المهم ان ما حدث بعد ذلك مع هذه الفتاة يؤكد وجودها، قبرها الذي اصبح مزارا للفلاحين يؤكد وجودها مع العلم ان الكثير من شاكلة هذه المزارات وهمية ولا يتعدى الامر الاعتقاد داخل العقول الموهومة وبعض الطابوق يتم بناءه كشاهد على وهم ما، لكن من يجرؤ على نبش من تحت هذا الشاهد والتأكد انه لا شيء هناك غير التراب اما في حالة هذه البنت فالأمر مختلف لأنه يفسر كل الذي حدث بعد موتها الذي حصل بطريقة تقترب بشكل كبير من الوهم رغم انها الحقيقة التي يعرفها الجميع خاصة المتواجدين في بيت الشيخ حسن...

كانت ليلة ماطرة، لا اعرف ان كان هذا ضروريا لكن هذا ما يؤكده الجميع ان تلك الليلة كانت ماطرة عندما نهض الشيخ حسن قبل بزوغ الفجر للصلاة رغم انني لا اعتقد انه نهض لهذا السبب فالشيخ الوادي كان معروفا بمجونه وبلياليه الحمراء التي يحضر فيها بنات الريف ويبقى صوت الغناء حتى وقت متأخر لكن الفلاحين كانوا يصدقون انه يصلي حتى انهم لا يجدون تناقضا في ذلك، هو من حقه ان يفعل ما يريد فالرب هو الذي وهبه هذه النعمة وهو يتمتع بها قبل ان يصلي للرب ويشكره على منحه اياها، الامر ممكن هكذا وإلا فما فائدة كل هذه الاموال من دون ان تكون له القدرة على التمتع بها كما انه لو لم يكن يصلي ويشكر الرب سيكون جاحدا لنعمته، هكذا كانوا يفهمون الامر، وهنا تكون الصلاة مقبولة بعد حفلة مجون تمتد حتى وقت متأخر لكننا لنفترض انه لم تكن ثمة حفلة في تلك الليلة وان الشيخ وأولاده رقدوا في وقت مبكر قبل ان ينهض الشيخ للصلاة من دون ان يحاول ايقاظ الاخرين، في ذلك الوقت سمع اصواتا غريبة في غرفة ابنته، الاصوات الغريبة هنا لا تعني اي نوع من الاصوات والحقيقة لا يمكنني ان اتخيل شكل هذه الاصوات لأن المشهد الذي رآه وهو يقتحم غرفتها كان جامدا ولا يُصدر اي نوع من الاصوات، اعتقد انهم فكروا بهذه الاصوات ليبرروا اقتحام الاب لغرفة ابنته فلا يبدو ان هناك اي سبب يدعوه لذلك سوى سماعه مثل هذه الاصوات التي اعتقد انها لم تكن موجودة وان دافعا خفيا كان وراء اقتحام الاب لغرفة ابنته، فكرت كثيرا في هذا الامر فما الذي يدعو اب ما لفتح باب غرفة ابنته في مثل هذه الساعة الا اذا شعر بشيء غير عادي داخل هذه الغرفة وهذا هو المنطق الوحيد ان شيئا ما دفع الاب لمثل هذا الشعور ليس بالضرورة ان يكون مفهوما او ان الاب يستطيع تفسيره وربما

هول ما رآه جعله ينسى تماما مثل هذا الشعور، ابنته الوحيدة كانت تستلقي عارية على ظهرها بينما ينام فوقها شاب جميل لم يسبق ان رآه من قبل، الشاب عاري تماما وكان يغطي عريه عري ابنته بالكامل، كانت تتغطى به ولكن منظر مؤخرته العارية كان مثيرا حتى اكثر اثارة من عري ابنته، الشيء الغريب انهم لم يكونوا يتحركون، كانوا جامدين تماما ولم يستطع الاب ان يتأكد ان هذا الشاب قد اوغل مروده الجميل في مكحلة ابنته حتى ان الامر لا يبدو مهما ولم يكن يستوعب الامر، كان متأكدا من شيء واحد ان رجل يمارس الرذيلة مع ابنته حتى اذا لم يكن يتحرك ولم يصدر اي صوت، ابنته كانت نائمة فقط، هكذا تبدو حتى انها لم تتأثر بجسد هذا الشاب الجميل الذي يستلقي فوقها، لم تحاول ابعاده او احتضانه، كانت وكأنها لا تبالي فقط، او كأنها لا تشعر به لذلك كانت نائمة فقط وهي تبعد رأسها عن رأس الشاب، دقائق او سنوات شعر بها الاب وهو يشهد هذا الموقف الذي اخرسه بالكامل قبل ان يعود الى صالة البيت ويسحب السيف الذهبي المعلق على احدى حيطانها من غمده ويعود مسرعا الى غرفة ابنته وبسرعة كبيرة يطعن الشاب في ظهره فيعبر السيف جسده ويصل الى جسد ابنته ويخترق جسدها ايضا ويخترف اسفنج الفراش قبل ان يصده خشب السرير التي تستلقي عليه عندها تفتح ابنته عينيها، تنظر مباشرة في عيني ابيها وبصعوبة تسأله

- لماذا...ابي...لماذا

مثل ما هو واضح فان حجية سريوه لم تكتف بسرد القصة وانما كانت تحاول ان تفسر او تحلل ما حدث وهذا ازعجني نوعا ما لأنني كنت اريدها ان تسرد القصة فقط اما قضية التفسير والتحليل فأنها مهمتي بعد ذلك لكنها لا تترك شيئا سوى الجزء

الاخير، اعني هنا منظر ابنة الشيخ وهذا الشاب الذي ينام فوقها من دون حركة، هذا الجزء قامت بسرده فقط وكأنها لا تريد ان تفسر شيئا او تحاول ان تستلذ بهذا الغموض الذي تمنحه للقصة، بالنسبة لي كان غموضا مريحا جعلني ارتشف ما تبقى من قدح الشاي واشير لها برأسي دلالة على انني استوعب كل ما تقول، عندها عدلت من جلستها واستمرت في سرد القصة...

خيط رفيع من الدم بدأ يتسلل بهدوء من بين شفتي ابنته اضافة الى دمها الذي غطى بياض شراشف الفراش الذي تنام عليه، كان السؤال الاخر قبل ان تسلم روحها للموت

- لماذا....ابي...لماذا

وهذا جعل الشيخ الوادي ينتبه الى ابنته التي ماتت بسيفه الذهبي ويطلق صرخة عالية جعلت كل من في البيت يقفز من فراشه ويركض نحو غرفة البنت الميتة

بويه.....بويه

وقف ابناءه والصدمة كانت واضحة على محياهم وهم يرون اختهم عارية تماما ويغطيها جسد شاب جميل وعاري هو ايضا بينما الدماء تملأ المكان، لم يتقدم احد نحوهما سوى امها التي اخترقت الجمع وارتمت فوقهما وهي تصرخ بصوت عالي

يمه ..بنتي...يمه...

قبل ان تذهب الى زوجها وتمسكه من ثوبه وتصرخ بوجهه

لماذا...قتلت ابنتك بيدك....لماذا...ما الذي فعلت هذه المظلومة

وهذا جعله يلطمها بقوة على وجهها فتسقط على الارض لينتشلها ابنها الاصغر ويدفعها خارج الغرفة

الأبن الاكبر سأل والده

- من هذا الشاب...ابن من
- لا اعرف...ولم اره من قبل...هل هناك من يعرفه منكم
- لا...لا نعرفه...هذا ليس من القرية...اجاب الجميع

ولأن المشهد كان مأساويا بالفعل ركض احد اولاده وهو يحمل معه شرشف ليغطي به الجثتين، حاول سحب السيف من جسدهما لكنه لم يستطع رغم انهما تحركا مع قوة سحب السيف ولكن ككتلة واحدة وهذا جعله يطلب المساعدة من اخوته، حاولوا كلهم سحب السيف اولا بشكل فردي ثم بشكل جماعي ولكنه كان يرفض الخروج، وكأن اجسادهم قد تكلست فجأة واصبحت قطعة واحدة يربطها السيف، لم يفهم احد الامر ولكنهم بعد فترة تأكدوا انه ليس بمقدورهم سحب السيف وفصل الجسدين عن بعضهما ولكي يستوعبوا الامر غطى احدهم الجثتين والسيف بالشرشف الابيض فبدى كعضو ذكري منتصب من تحت بنطال، كان هرما ابيضا يرقد فوق السرير ويمنح المشهد كله غرائبية هائلة...

جلسوا كلهم صامتين في الصالة الكبيرة وكان الصوت الوحيد الذي يغطي المكان هو صوت الام الذي يجئ على شكل تساؤلات

- لماذا...شيخ وادي لماذا ...قتلت ابنتك ..لماذا

وهذا جعل الاب يصرخ بشكل مفاجئ

- اصمتي....دعينا نعرف فقط ماذا نفعل بهذه المصيبة

ابنه الاصغر ذهب الى امه وطلب منها ان تسكت فالوضع لا يتحمل والجميع على اعصابه فتمسكه الأم من ياقة دشداشته وتسأله بقوة

- فهمني فقط...لماذا قتلها ...ما الذي فعلته
- امي ...ما بكِ
- ما بي...ام فقدت ابنتها للتو ومن دون سبب ماذا سيكون بها
- من دون سبب
- نعم...ماذا فعلت هذه المسكينة
- امي ...اصمتي الان ....دعينا فقط نعرف ماذا نفعل بهذه المصيبة...ارجوكِ... اذا لم نتصرف بحكمة فسيصيبنا العار الى الابد...لا اريد من ابي ان يضربك مرة اخرى...فاصمتي ...اصمتي ارجوكِ

في هذا الاثناء كان الجميع قد اكملوا صلاة الفجر في الجامع وكان شيخ نهاد يرتل بعض الادعية المستحبات بعد الصلاة وهذا جعل الاب يطلب من ابنه استدعاء الشيخ بعد ان يتأكد انه وحده فمثل هذا الخبر لو وصل الى الفلاحين سيضع عارا على هذا البيت لن يزول للابد، بعد حوالي نصف ساعة كان شيخ الجامع يقف امام الجثتين الملتصقتين بالسيف الذهبي، بدأ يرتل بعض الآيات القرآنية والادعية وهو يحاول ان يسحب السيف ولكن من دون جدوى، حاول اكثر من مرة ولكن بلا فائدة، اخيرا طلب منهم ان يدفنوهم مع السيف، ادفنوهم قبل ان يخرج الفلاحين لحقولهم عندها سيكون الامر صعبا كما انه من غير المستحب ان تبقى الجثتين حتى الليل القادمة، رفع ابناء الشيخ وادي الجثتين مع السيف وتسللوا بهدوء الى مقبرة القرية وبسرعة كبيرة حفروا حفرة واسعة ودفنوا الجثتين من دون تغسيل، حتى انهم لم يكونوا يعرفون الطريقة الصحيحة لدفن الموتى ولا العمق المناسب لدفن الجثة لذلك طمروهم بسرعة وكأنهم يدفنون جيفة كلب ميت للتخلص من رائحتها المقرفة، بعدما انتهوا سمعوا صوتا من داخل المقبرة، جاء الصوت واضحا وغريبا ونقيا وكأنه يصدر

من مذياع مخبوء خلف قبر ما داخل هذه المقبرة التي تقع على تلة قليلة الارتفاع تبرز من فوقها القبور كأصابع تشير الى السماء - انت يامن تراني من حيث اريد وتسمعني من حيث تريد، يامن تصنع من ارواح العذراوات طيور وغيمات وفراشات، امنح هذه المظلومة طيف ملكوتك الذي لو لامس الجسد الميت لتحرك وقام ومشي بين سحب جلالتك الواسعة، انزع عنها شياطينها الراقدين عراة فوق جسدها البض وخلصها من ظلمتها الكاتمة على صدر نورها الفائض وامنحها رحمتك التي لا يحدها حدود، فمن لها سواك ومن ينفض عنها آثام غربتها عنهم سوى قربك منها، لقد عزلت روحها عن شياطينهم ولكنهم تمرغوا في العمى حتى تخيلوا الطهارة عارا وحتى تخيلوا آثامهم جسدا يرقد فوق النور الوحيد داخل هذه الظلمة الحالكة، فامنحهم الحقيقة واجعلهم يرون بأم عيونهم الجيفة التي يسبحون داخلها ليل نهار....

عندما عثروا عليه كانت الصدمة قد أخذت منهم كل مأخذ، رجل في الخمسينات من العمر يرتدي بنطال جينز وقبوط صوفي اسود ويغطي رأسه بقبعة كبيرة تغطي رأسه الصغير بلحيته الخفيفة وشفتيه الحمراوين وانفه المدبب تحت عينين غائرتين ينظران الى السماء..

حيرتهم بلغت حدودها القصوى وهم يقفون امامه رغم انه لم يكن يبالي بوجودهم لكنه التفت اليهم وتأملهم بهدوء شديد، عندها سأله الاخ الاكبر

- من انت
- انت
- ماذا تعني
- وانت ماذا تريد...اذهبوا واتركوني معها

- مع من؟
- هذه المسكينة التي دفنتموها للتو
- ومن اين تعرفها ...وما شأنك انت بها
- لا شأن لي بها...لي شأن معكم
- معنا...ماذا تعني
- اعني انكم كنتم تلبسون عاركم قبل هذه الليلة...هذا عاركم من كان ينام معها عاريا
- أي عار تقصد
- اسألوا اباكم....هو يعرف كيف يمنح هؤلاء الفلاحين عارا لا يمحوه الزمن
- ابي ؟
- اسأل اباك....لماذا يمتنع الكثير من الفلاحين من تزويج بناتهم...اسأله
- ماذا تقول
- اقول ....اسأله فقط

بعضهم اقترح ان يقتلوه حتى لا يفضحهم والبعض الأخر اقترحوا ان يقيدوه ويأخذوه معهم وابوهم هو من يقرر ما يفعل به لكن الاخ الاكبر صرخ بهم

- اتركوه
- ولكن....اجابوه بصوت واحد
- قلت لكم اتركوه...ودعونا نعود للبيت

الأبن الاكبر كان يعرف ولو انه غير متأكد من ذلك ان اباه كان مولعا بفض بكارة العذراوات ولديه جماعة يسرقون الفتيات الصغيرات ليجبروهن على النوم معه رغم انه كان يغطي وجهه بلثام حتى لا يعرفنه، الكثير من الفلاحين كانوا يعرفون ذلك لكن

لا أحد يستطيع ان يتهمه والصغيرات يخبروهم ان رجلا ملثما هو من فض بكارتهن، ولهذا طلب من اخوته ان يتركوا هذا الرجل الذي ظهر فجأة حتى لا يفضحه امام الجميع كما انه لم يحبذ قتل هذا الرجل لان احساسا كبيرا تملكه بان لعنة ما ستصيبه فيما لو تم تصفية هذا الغريب الذي لا يعرفه احد، فكر ان لعنة واحدة تكفي في هذه الليلة كما انهم لحد هذه اللحظة لم يعرفوا هوية الشاب الذي قتله ابيهم حتى انهم لم يعثروا على ملابسه في مكان في الغرفة هذا يعني انه دخل البيت عاريا او انه خبأ ملابسه في مكان ما وهذا بحد ذاته ليس منطقيا ولكن لا منطق الان في هذه الليلة الغريبة التي توشك على الانتهاء ويوشك الفلاحون ان يخرجوا الى مزارعهم وحقولهم وهذا جعل الاخ الاكبر يصرخ بأخوته

- هيا دعونا نعود بسرعة الى البيت

(٧)

لم تكن لدي النية بمقاطعة حجية سريوه، كنت اريد ان اسمع القصة اولا وبعد ذلك اقوم بتدوينها وتحليلها بعد دراسة المعطيات التاريخية في هذا المكان من العالم وفي ذلك الوقت لكن رجل المقبرة الذي ظهر فجأة ومن دون أي داعي شكل خللا كبيرا في الترابط التاريخي لهذه القصة، رجل خمسيني يرتدي بنطال جينز ومعطف اسود وقبعة، طبعا هذا غير ممكن لأننا وبحسبة بسيطة نجد ان زمن حدوث هذه القصة هو في نهاية القرن التاسع عشر وذلك بجمع عمر حجية سريوه مع عمر جدتها نجد ان هذه القصة حدثت قبل حوالي مئة سنة من هذا اليوم ومن المعروف ان بناطيل الجينز مثلا لم تنتشر في العالم فضلا عن العراق الا بعد الحرب العالمية الثانية وهذا يشكل خلل منطقي كبير في القصة كما انه لم يكن ضروريا وصف هذا الرجل بهذه الطريقة حتى ظهوره لم يكن ضروريا فكان يمكنها ان تخبرنا ببساطة بجريمة الشيخ الوادي وهو يتلذذ بفض بكارات العذراوات ومن دون الحاجة الى رجل الجينز هذا، هذا جعلني التفت يمينا ويسارا لأنني لم اشأ ان اقاطع حجية سريوه ولم تكن لدي الرغبة بمجادلتها او اخبارها بهذا الخلل الكبير لكنها انتبهت تماما لما يعتريني وهذا جعلها تقطع سردها للقصة وتقول لي

- اعرف
- ماذا تعرفين
- اعرف انك بدأت لا تصدقين ما أقول الآن
- لا طبعا...ولكن...
- ولكنك لا تصدقين وجود رجل المقبرة هذا

- لأنه
- لأنه ليس رجلا....
- ماذا تعنين
- اعني ان اهل القرية يعرفون هذا الرجل جيدا ....اسألي زوجك
- كيف ذلك...اسأله عن من؟
- لا احد يعرف له اسما ولا احد يعرف اين يختفي هو يظهر للجميع فجأة ليقول ما يجب ان يقال وفي كل مرة بشكل جديد غير معروف في زمنه
- تعنين ان ليس حقيقيا
- وما هي المسافة بين الحقيقة والوهم....اي وهم سيصبح حقيقة مؤكدة اذا اصاب الجميع...المعرفة هي من تحول هذا الرجل الى حقيقة مؤكدة لا يستطيع احد نكرانها....ومثلما قلت لك اسألي اي شخص في هذه القرية وسيخبرك انه رآه او ان واحد من اعضاء عائلته قابله في مكان ما
- هل تعنين ان هذا الرجل هو حارس الفضيلة في هذه القرية
- ليس هناك حراس للفضيلة لأنها شخصية جدا وتنبع من داخل الانسان نفسه، ولكن قد تتجاوز الامور هنا الحد المعقول من دون ان يستطيع أحد البوح بذلك فيأتي هذا الرجل ليقول ما لا يتمكن الاخرين من قوله
- ولماذا لم يخبر اهل القرية بما يفعله هذا الاقطاعي ببناتهم العذراوات
- لانهم يعرفون، كان ينتظرهم ان يثوروا، يفعلون شيئا لكنهم كانوا مدجنين على المذلة وبطريقة غريبة، لذلك اراد ان يضع الشيخ الوادي وابناءه امام خطيئتهم، هل علي ان اخبرك انه هو نفسه ذلك الشاب العاري الذي ينام فوق ابنتهم

- تعنين
- نعم، اعني ان الرب لا يمكن ان يترك الانسان المظلوم بلا معونة ولكننا لانعرف الطريقة التي يقوم بها بذلك
- الرب
- نعم، الرب...الا تؤمنين به
- هل يمكنك اكمال القصة الان....ارجوكِ
- حسنا، رجعوا الى ابيهم واخبروه بما قال لهم هذا الرجل فبقى ابوهم صامتا طوال النهار لكن الشيء الذي كان يكسر هدوء البيت هو تصرفات امهم التي بدأت تتكلم مع نفسها قبل ان تصرخ وتلتف حول نفسها وكأن شخصا اخرا يضربها او يدغدغها وهي تهرب منه في ارجاء البيت كله قبل ان تهدأ قليلا ثم تعود للصراخ والركض، حاول اولادها تهدئتها لكن بلا فائدة حتى ان ما تفعله ليس له علاقة بموت ابنتها الوحيدة، نوع من الجنون الذي احتل هذه الام جعلها تمزق ملابسها وتبدأ بفرك نهديها المتهدلين بقوة قبل ان يركض ابنها الاصغر ويغطيها بشرشف لكنها بدت قوية بشكل غير معتاد فدفعت ابنها بقوة جعلته يرتطم بالجدار قبل ان تمزق ملابسها بالكامل وتركض نحو الشيخ الوادي وتمزق ملابسه، حاول دفعها او ايقافها لكنها دفعته بقوة على الارض واخرجت عضوه الذكري ودفعته بقوة بين فخذيها وهذا جعل اولادها يقفلون الباب خلفهم رغم صيحات ابيهم فمن غير المعقول يبقون واقفين وهم يشاهدون امهم وابيهم عراة تماما ويمارسون الجنس رغم ان الامر كله بدى غير مفهوما حتى الشيخ الوادي صمت اخير وجعلها تكمل ما بدأت وهي تتحرك فوقه بقوة ولذة لم يشاهدها من قبل، كانت تصرخ وتتأوه وهي تسرّع من وتيرة حركتها فوق زوجها ورغم انها استطاعت ان تجعل زوجها يقذف داخلها لكنها لم تتوقف وهذا

جعله يحاول دفعها بعيدا عنه لكنها امسكت بيديه من كلا الجانبين بقوة وزادت من حركتها بشكل جنوني قبل ان تصرخ بصوت عالي وتسقط بجانبه، كان مرهقا وهذا جعله يبقى ممدا وينظر باستغراب الى زوجته الممددة بجانبه كالميتة، في ذلك الوقت عم الصراخ في الخارج، ركض ابناء الشيخ الى الخارج فهالهم المنظر وهم يرون نساء القرية يركضن عاريات في كل اتجاه واذا عثرت احداهن على رجل تدفعه بقوة على الارض وتمزق ملابسه وتجبره على ممارسة الجنس معها، قوة هائلة تلبست كل نساء القرية جعلت كبح جماحهن امر غير ممكن، وهذا جعل الرجال يهربون في كل اتجاه رغم ان المتزوجين فعلوا ذلك من دون مشكلة لكن البنات العذراوات اجبرن شباب القرية على فض بكارتهن وبمشهد لا يمكن ان يحدث في اي وقت وفي اي زمان، كان من المستحيل ان تحصل ايٍّ منهن على الهدوء الا بعد ان تحصل على لذتها كاملة، حاول بعض الشباب قتل اخواتهن ولكنهم عندما شاهدوا اللعنة قد اصابت الجميع عدلوا عن ذلك فلا احد يشعر بالعار هنا مادام العار نفسه قد اصاب الجميع، العار مسألة فردية اما اذا فعله الجميع فالكل يتقبل ذلك، الاخ يبقى هادئا وهو يرى اخته تمارس الجنس مع احد رجال القرية ما دام هذا الرجل نفسه يشاهد اخته تمارس الجنس مع رجل اخر وهكذا، هي اللعنة الذي تختل معها المفاهيم والذي تحول هؤلاء الناس المنقادين دائما الى التقاليد والاعراف يتنازلون عن كل هذه المبادئ ومن دون ان يفهموا ذلك، الحقيقة الاخرى انه بعد هذه الفوضى تأكد الجميع انه لاعذراوات الان في هذه القرية وان ما حصل اكبر كثيرا من ان يستوعبوه او يتعاملوا معه لذلك بقى الجميع صامتا وعم الهدوء القرية كلها، القرية العارية والممددة

على العشب بينما خيوط الدم قد لوثت افخاذ البنات اللواتي ما زلن ضائعات في دروب اللذة وهن يجربنها للمرة الاولى.

بعد دقائق وقفت النساء مذعورات من عريهن، حاولت بعضهن ان تستر نفسها باي شيء موجود على الارض قبل ان تهرب باتجاه بيتها ولكن البعض قرفصن واجسادهن ترتجف بقوة وتبحث عن اي ساتر تغطي فيه نفسها وهذا جعل الشباب يخلعون دشاديشهم ويغطون نسائهم ويقودونهن الى البيت، لم يفهم احد ماذا حدث فنساء القرية كنَّ مغيبات عن الوعي تماما حتى انهن لا يتذكرن الذي حصل وكيف حصل وهذا جعل كل رجال القرية يخرجون ويجلسون في مقهى حجي سوادي وهي المقهى الوحيدة التي تقع في اطراف القرية، اتفق الجميع على انها لعنة اصابت نسائهم وطلبوا من الشباب ان لا يتسببوا بأي أذى لهن لان الامر خارج ارادتهن وبعد أخذ ورد قرروا الذهاب الى الجامع واستشارة الشيخ نديم فلابد ان تكون لعنة ما قد حلت على اهل القرية والشيخ وحده من يستطيع تخليصهم منها ولهذا توجهوا الى الجامع فوجودا الشيخ يغطي رأسه بكلتا يديه فهو استقبل للتو زوجته وأبنتيه العذراوات والعار يغسل جسديهما بالكامل، في الحقيقة لم يتخيل واحد من اهل القرية ان زوجة وبنات الشيخ ستشملهم اللعنة ولهذا عدّل من جلسته ومسح دموعه وحاول ان يتماسك ما دام هو الوحيد الذي يعتقد الاخرون ان العار لم يمسه فاعتقاد الاخرين هنا يكفي ليكون كل شيء على ما يرام وليصدق هو ان اللعنة لم تصبه، هو وحده الاقرب الى الله وهذا القرب سيحول دون ذلك فالله يصطفي اولياؤه ويدفع عنها كل مصائب الدنيا حتى اذا كانت المصيبة بهذا الحجم وهذا جعله يقف بكل ثقة ويطلب منهم اقامة الليل حتى الصباح بالصلاة والادعية كما طلب منهم ان يذبحوا ذبيحة عند عتبات بيوتهم تمنع اللعنة من دخول

البيوت، القليل منهم من ذبح خروفا والاخرون اكتفوا بذبح دجاجة والبعض الاخر لم يجد ما يذبحه فبقى يأكل بنفسه بعدها تجمعوا كلهم في الجامع وبدأوا بالصلاة وقراءة القران والتراتيل حتى ضجت القرية بهم لكنهم تفاجئوا بعد ساعات من اقامتهم في الجامع من النساء يهجمن عليهم مرة اخرى وهذه المرة بشكل اكثر شراسة وقوة ويجبرونهم على ممارسة الجنس داخل الجامع حتى الشيخ تسلطت عليه امرأة سمينة جعلته لا يتنفس الا بصعوبة ولحمها الابيض المترهل يغطي جسده الاسمر بالكامل، قوة هائلة تملكت هؤلاء النسوة جعلت امر ردهن اشبه بمحاولة ازاحة جبل من مكانه، الصورة واحدة والطريقة واحدة، الرجال بثياب ممزقة يتمددون على الارض والنساء عاريات فوقهم من دون ان يسمحن لهم بأي حركة، حاول بعضهم منع ذكره من الانتصاب ليتخلص من الموقف ولكن من تجلس فوقه تبدأ تدعكه بشهوة وقوة تجبره على الانتصاب قبل ان تدفعه داخلها وتبدأ ترهز عليه بطريقة جنونية جعلت الجامع يضج بالتأوهات والصراخ واللذة قبل ان يعم الهدوء مرة اخرى، ويرجعن الى بيوتهن بعد ان يتركنَ الرجال ممدين على ارضية الجامع والحيرة اصبحت طوفان هائل يفيض عنهم ويمنع ايً منهم من الالتفات للأخر، عندها تأكدوا ان الشيخ لا يستطيع ان يفعل شيئا وان اللعنة اعظم بكثير من ان يتمكن هذا الشيخ من ابعادها، لذلك خرجوا من الجامع بهدوء وعادوا الى بيوتهم من دون ان ينبسوا ببنت شفة....

اولاد الشيخ الوادي كانوا يجلسون صامتين امام أبيهم، يحاولون ان يربطوا بين هذه اللعنة التي اصابت القرية وبين ما حدث لهم قبل ذلك، لم تكن الامور مفهومة لديهم بشكل واضح ولكن هذا لم يمنع الابن الاكبر ان يقترح ان خلاص هذه القرية لابد ان يكون

عند رجل المقبرة، هذا الرجل الذي يعرف اكثر مما ينبغي لابد انه يعرف سبب هذه اللعنة فالحياة لا يمكن ان تستمر بهذه الطريقة والفلاحون لن يستطيعوا الاستمرار بزراعة الارض وهم يجابهون هجوم النساء بين ساعة واخرى لذلك اقترح ان يذهب مع اخوته للبحث عن رجل المقبرة رغم ان الليل قد بدأ ينشر ظلمته في كل الارجاء ولكن انتظار الغد يبدو غير منطقيا فلا شيء يتحمل هذا الجريمة، لابد من عمل شيء وهم الوحيدون يعرفون الطريق الوحيد الذي يوصلهم للخلاص لذلك تركوا اباهم وخرجوا يبحثون عن رجل المقبرة....

بحثوا في كل مكان ابتداءً من المقبرة حتى اخر زاوية من زوايا القرية، سألوا الفلاحين وشيخ الجامع لكن لم يره احد، فهذا الرجل لم يقابل احدا من قبل، كان ظهوره الاول لكنه بعد ذلك كان يظهر كثيرا وفي ازمان غير محدودة وفي كل مرة بلباس غريب ينتمي الى زمن اخر، الجميع سأل اولاد الشيخ الوادي عن هذا الرجل لكنهم تهربوا من الاجابة ومع تراتيل شيخ الجامع الذي يسبق آذان الفجر عادوا الى بيتهم بعد ان تأكدوا انهم لن يعثروا علية، وقبل ان يتوجهوا عائدين الى البيت ركض خلفهم واحد من الفلاحين وعندما وصل اليهم قال لهم وهو يلهث

- تعالوا معي ....
- ما الذي يحدث
- تعالوا معي فقط

كانوا يتصورون ان هذا الرجل عثر على شيخ المقبرة او على الاقل يعرف شيئا عن الرجل لكن صدمتهم كانت شديدة وهم يدخلون الى كوخ ذلك الفلاح ليجدوا امهم وهو تغطي جسدها

بشرشف وسخ والصدمة رسمت ملامحها على محياها، عندها صرخوا كلهم بصوت واحد

- امي

قال لهم الفلاح انه وجدها عارية قبل ان تهجم عليه وتمزق ملابسه ولم يستطع ان يتركها فجاء بها للكوخ وبدأ يسأل عنها الاخرين، لم يعرفها سوى شاب صغير كان ينقل الحليب الى بيت الشيخ الوادي ورآها هناك، خلع احد ابنائها ثوبه وغطاها به ودلفوا عائدين الى البيت....

لم يستوعب احد من الفلاحين ولا اولاد الشيخ الوادي هذا الجنون، ان يعثروا على امهم عارية وقد انتهت للتو من ممارسة الجنس من رجل يقف امامهم بهدوء ولا يخاف منهم بل حتى لا يبالي بردة فعلهم وهم الذين كانوا يعاقبون الفلاحين بالجلد ولأسباب تافه، اما الان فكل ما يستطيعون فعله هو ان ينكسوا رؤوسهم ويعودوا الى البيت والخيبة ترافقهم مع كل خطوة، حتى هذا الرجل الذي يبدو كخلاص وحيد تركهم مع هذه الحيرة والقلق الذي تحول الى طيور بدأت تخرج من اعشاشها وتطير في كل اتجاه بعد ان انهى الفلاحون صلاتهم وعادوا الى بيوتهم من دون ان تكون لديهم اي رغبة للخروج للعمل.

عندما فتح اولاد الشيخ الوادي الباب ودخلوا الى البيت وهم يلفون امهم بشكل يُظهر اجزاء من جسدها وقفوا مدهوشين وهم يرون شيخ المقبرة يجلس بهدوء قبالة ابيهم الذي يغطي وجهه بكلتي يديه، ركض احدهم محاولا ضرب شيخ المقبرة لكن الاب صرخ به،

- اتركه....

وهذا جعل الابن الاكبر يتقدم نحوه ويسأله بهدوء

- لماذا تفعل بالناس ذلك...ما الذي فعله لك هؤلاء المساكين

وقف شيخ المقبرة خلف ابيهم ووضع يديه على كتفيه ثم قال لهم

- اسألوا اباكم....
- وما شأن أبينا بالأمر
- تسعة فتيات صغيرات فض بكارتهن ابوكم من دون ان يفكر للحظة واحدة عن مصيرهن ومصير اهلهن، لم يفكر للحظة كيف سيتزوجن، ماذا سيقول ابائهن فيما لو تقدم الشباب لخطبتهن، لم يكن هناك ثمة حل سوى ان اجعل جميع الفتيات يفقدن عذريتهن
- والان...هل سينتهي هذا الامر
- لا ...إلا اذا طهرتم القرية بالعذراء الوحيد الباقية
- العذراء الوحيدة؟
- نعم...اختكم هي العذراء الوحيدة في هذه القرية، اخرجوها وغسلوها واقيموا عليها الصلاة وادخلوا بها كل بيت من بيوت القرية وسينتهي كل شيء
- وابونا....
- ابوكم....اتمنى ان يفهم فقط...

خرج شيخ المقبرة وتركهم في حيرة اكبر لكن اباهم رفع رأسه وقال لهم افعلوا ما قال لكم بالضبط....هو الحل الوحيد

- وبماذا سنبرر قتل هذه المسكينة
- لا يهم...وليس علينا ان نبرر شيئا ...المهم الان ان تنتهي هذه اللعنة

(٨)

عندما فتحوا القبر كانت الصدمة كبيرة فأختهم تنام مثل الملائكة بدشداشتها الموردة والسيف يخترق جسدها حتى يخرج من ظهرها، سحبوا السيف بسهولة ورفعوا اختهم بينما ذهب اخيهم الاصغر ليطلب من الفلاحين ان يتجمعوا في الجامع، جسدها مازال طريا ورائحتها مازالت زكية حتى كأنهم يحملون فتاة نائمة او مغيبة عن الوعي فقط، جرحها الذي لم يلتئم ويبقى فاغرا فمه الى السماء هو الدلالة الوحيدة على موتها، دفعوا التراب بعيدا عن وجهها فاتضحت ملامحها، كانت ماتزال تسأل ابيها (لماذا يا أبي) وعلامات الدهشة واضحة على ملامح وجهها، كانت بحاجة شديدة لتفهم حتى في اللحظات الاخيرة لحياتها، هكذا يبقى السؤال معلق في ليل القرية المظلم يبحث عن اجابة من ابيها الذي اصابته رعدة شديدة وهذا السؤال يلتف على جسده مثل الافعى ويخنقه حتى لا يكاد يتنفس، تجمع اهل القرية عند الجامع بعد ان طلب منهم ابن الشيخ الوادي ذلك يتقدمهم الشيخ نهاد في انتظار امل ما يُخرج هذه اللعنة التي اخذت منهم كل مأخذ وجعلتهم سكارى وما هم بسكارى ولكن ما يفعله الانسان برغبته المختلة كان شديدا وكارثيا، اخيرا وصلت جنازة بنت الشيخ الوادي يحملها اخوتها ويتقدمهم ابوها وكي لا يفسح المجال للتأويلات صرخ الشيخ الوادي بالناس، لقد قتلت ابنتي، كنت اتصور انها مست شرف بيت الوادي الذي لن نسمح بأن يمسه احد حتى لو كانت ابنتي التي خرجت من صلبي لكنني كنت مخطئأ فالبنت ما

زالت عذراء وكل ما رأيناه كان مجرد وهم، هي العذراء الوحيدة في هذه القرية ولو دخلت عذريتها الى بيوتكم ستزول هذه اللعنة

- وكيف تعرف ذلك ...صرخ الشيخ نديم
- الرؤيا هي من اخبرتني بذلك...ولا اظنها تكذب ...على كل حال لن نخسر شيئا

وافق الجميع رغم انهم لم يكونوا متأكدين لا من عذرية الفتاة ولا من جدوى دخولها الى بيوتهم لكن الغريق يتمسك بقشة وكلام الوادي كان قشة كبيرة ربما ستدفعهم الى بر الامان لهذا ساروا خلف الجنازة بصمت، حشود كبيرة وصمت رهيب ولاشى سوى صوت وقع اقدامهم على الارض التي تحول الى موسيقى سماوية جعلت العصافير والحمائم تتجمد على اغصان الاشجار وهي تراقب المشهد من الاعلى، عندها بدأوا يدخلوا بيوت الفلاحين الواحد تلو الاخر، كانت الصدمة كبيرة بالنسبة للشيخ الوادي وابناءه فهم للمرة الاولى يدخلون هذه البيوت ويشاهدون البؤس الذي عليه هؤلاء الفلاحين حتى انهم لم يتصوروا كيف يمكنهم الاستمرار بالحياة وهم يفتقدون ابسط مستلزماتها

دخول الشيخ الوادي الى بيوت الفلاحين الفقراء جعله يشعر بشكل حقيقي بخطيئته، فهو جزء اساسي من صناعة هذا البؤس مع الاقطاعيين الاخرين في هذا المكان من العالم حتى انه لم يفهم لماذا يفعل ذلك فالخير كثير بالفعل وما تنتجه هذه الارض وفير ويستطيع ان يغطي كل حاجة هؤلاء المساكين على الاقل الضرورية منها لكنه هو ايضا وجد الامور تسير على هذا النحو فهؤلاء الفلاحون يجب ان يحصلوا على الجزء اليسير من هذا الخير، الجزء الذي يجعلهم يستمرون بالحياة والعمل فقط من دون ان يفكروا في تطوير انفسهم والحصول على بعض الرفاهية،

الرفاهية لهم فقط اما هؤلاء الفلاحين فهم ادوات حاضرة على الدوام لصنع هذه الرفاهية وهذا من جعل الشيخ الوادي يفكر في سرقة العذراوات وفض بكارتهم من دون اي شعور بالذنب، فهؤلاء الفلاحون مع ابنائهم وبناتهم هم ملك صرف لهم والتفكير بهذه الطريقة ليس خروجا عن المألوف ولايمثل جريمة كبرى كما صورها شيخ المقبرة رغم ذاك فرؤية ما فعلت يداك يبقى شيئا مؤلما، المتعة هنا دقائق معدودة يجب ان لا يتبعها شيء لكن هذا الملعون يعيد تصوير كل شيء وبالشكل الذي يجعل الشيخ الوادي يشعر باختناق حقيقي يدفعه الى ترك الناس والرجوع الى البيت تاركا اولاده يقومون بالمطلوب....

كلام شيخ المقبرة كان حقيقيا، فالأمور هدأت واللعنة زالت من هذه القرية بعد ان زارت العذراء الوحيدة بيوت القرية كلها قبل ان تقوم زوجة شيخ الجامع وبمساعدة عدد من نساء القرية بتغسيلها وتكفينها بشكل اصولي قبل دفنها في قبر ملاصق للجامع حمل الفلاحين على زيارة هذا القبر يوميا وقراءة سورة الفاتحة عنده بعد ان خلصهم من اللعنة الكبرى التي اصابتهم وجعلتهم في دوامة الحيرة والقلق

ثلاثة ايام لم تتوقف السماء للحظة من نفض دموعها وبالشكل جعل الجميع يختبئون داخل بيوتهم، السماء هذه المرة تطهر المكان وتمنح الناس كسلا لذيذا ودفئا غريبا منحهم بعض الخصوصية واعاد ترميم ما انكسر بين افراد عوائل القرية نتيجة هذا الجنون الكبير الذي مروا به، بكت الزوجات وهن يرتمين في احضان أزواجهم ويطلبون المغفرة ومسد الشباب على رؤوس اخواتهم في اشارة على ان ما حدث كان خارج حدود ارادتهن وانهن لم يدنسن شرفهم على اي حال، لكن ايضا هناك عدم رغبة

من لقاء الاخرين تمكن من الجميع وجعلهم يبقون في بيوتهم ولا يجربوا الخروج ولقاء الاخرين، كان الجميع يخجل من الجميع وكأنهم يريدون ان ينسوا ما حصل ويتركون للزمن مداواة هذا الثلم الكبير في شرف القرية بالكامل، هنا شرف القرية هو الذي تعرض للإهانة ومهما حاولوا إخفاء ما حدث عن للقرى المجاورة فان ما حصل سيصل عاجلا ام آجلا عندها سيكون من الصعب تبريره او جعل الاخرين يصدقون انها لعنة فقط كان مصدرها بيت الشيخ الوادي وكان المُنجّي منها نفس البيت..

في اليوم الرابع بدأت الشمس عملها بنشاط غير معهود وهذا جعل الطيور والعصافير تخرج من اعشاشها وتملأ الدنيا بالصراخ وكأنها كانت تدعو الفلاحين للخروج فليس من الممكن ان يختبئوا عن بعضهم للابد، هذا جعلهم يخرجون ويتوجهون الى المقهى وكأنهم اتفقوا على التجمع هناك، جلسوا صامتين امام اقداح الشاي يحركون الشاي الذي امامهم بالملاعق النحاسية دون ان يرفع اي منهم رأسه ويرى الاخرين لكن خزعل صاحب المقهى وقف وكسر هذا الصمت المشوب بصوت الملاعق وهي تدور داخل اقداح الشاي، فكر قليلا وكأنه يريد ان يتأكد ان ما يقوله سيكون مناسبا ثم صرخ بهم

- اسمعوني ارجوكم ...ما حصل قد حصل وليس لأحد يد فيه، هذه كانت ارادة الله واختباره لنا وعلينا الان ان ننهي الامر ويذهب كل الى عمله

رفع الفلاحون رؤوسهم وكأنهم يسألونه ماذا سيفعلون ببناتهم اللواتي فقدن عذريتهم، ماذا سيكون مستقبلهم ولكي لا يمنحهم فرصة للمزيد من التساؤلات قال لهم

- اسمعوني ..هناك حل واحد لكل ذلك، ان نزوج شباب القرية لبناتها في يوم واحد ونعمل عرس جماعي لكل شباب وبنات القرية
- والذي يرفض ذلك ...صرخ احد الفلاحين
- عليه اذا ان يعثر لأبنته على زوج من خارج القرية

صمت الجميع لبرهة لكنهم سرعان ما وافقوا على هذا الحل الذي بدى مخرجا رائعا فبمجرد ان يزوجوا بناتهم سينتهي كل شيء ولم يعد لهذا الشعور بالعار اي منفذ الى داخلهم، في هذا الاثناء دخل الشيخ نديم الى المقهى واخبروه باقتراح خزعل فوافق على الفور واقترح امرا اخر هو ان يتزوج الشباب من البنات اللواتي اجبرنهم على فض بكارتهن في ذلك اليوم، بالتأكيد البنات لا يتذكرن ذلك لكن الشباب يعرفون جيدا ويتذكرون هذه الدقائق وشكل الفتاة التي كانت تجلس عليهم وتمنحهم اللذة، وافق الجميع واتفقوا ان يتجمعوا مع بناتهم امام الجامع ويمر الشباب بعد ان يحلفوا بكتاب الله انهم سيختارون نفس الفتاة التي فضوا بكارتها في تلك الليلة...

الشباب بدأوا يتقدمون، يحلفون بالقرآن امام الشيخ نديم ثم يمرون على البنات يتأملوهن الواحدة تلو الاخرى حتى اذا وجدوا الفتاة المطلوبة يقف عندها فيرجعون كلهم عند الشيخ ليعقد قرانهم وبوجود ولي امورهم والشهود وبشكل اصولي، هكذا استمر الامر حتى المساء فاتفقوا على اكمال ما بدأوه في اليوم التالي، منذ الصباح تجمعوا مرة اخرى ولكن هذه المرة بعدد اقل واستكملوا عمليات التزويج غير ان تسعة شباب لم يختاروا أي من الفتيات وظلوا مصرين على ان اللواتي فضوا بكارتهن غير موجودات مع هذا الجمع من البنات بينما كان بعض الشباب قد

فض اكثر من بكارة وكان عليه حينئذ ان يتزوج اثنتين في ذلك اليوم وبالرغم ان كل بنات القرية وجدنَ من يتزوجهن لكن هؤلاء الشباب التسعة بقوا وحدهم من دون نساء رغم انهم حلفوا اغلظ الايمان انهم فضوا بكارة تسع فتيات في تلك الليلة ولكن لسن من الواقفات هنا، احدهم صرخ

- بصراحة البنات اللواتي هجمن علينا حينها كن يرتدين ملابس جميلة وبشعور مسرحة ولايشبهنَ بنات القرية هنا

فأدرك الجميع انهم فضوا بكارات بنات الاقطاعيين ولكن من الذي ذهب بهم الى هناك فبيوت الاقطاعيين تقع على مسافة من القرية وهي دائما محصنة بجدار طيني عالي وابواب حديد يصعب عبورها كما ان اهل القرية لم يعتادوا الذهاب بالقرب من بيوتهم، لم يخبر الشباب اهل القرية الحقيقة وهي انهم ومنذ فترة ليست بالطويلة كانوا يراقبون هذه البيوت حتى اذا هدأوا وناموا اهلها عبروا الباب الحديدي ودخلوا الى غرفة المؤونة وسرقوا ما يستطيعون حمله من طعام قبل ان ينقلوه الى كوخ قديم مهجور يقع على اطراف القرية ويتقاسمونها بينهم بعد ذلك، في ذلك اليوم وقبل ان يعبروا البوابة الحديدية تفاجئوا بان هناك من يفتحها من الداخل قبل ان يقفوا مذهولين وهم يشاهدون بنات الاقطاعيين عاريات بالكامل يهجمن عليهم ويحصل الذي حصل، الاقطاعيون كانوا يتصورون ان ابنائهم هم من فعلوا ذلك ولم يتصوروا للحظة ان اولاد الفلاحين هم من قاموا بهذه الكارثة لذلك تجمعوا وذهبوا الى بيت الشيخ الوادي وطلبوا منه ان يوافق على تزويج ابناءه لبناتهم فلابد ان يكونوا هم من فعلوا ذلك مع اولادهم الاخرين، لكن اولاد الشيخ الوادي رفضوا بقوة وحلفوا اغلظ الايمان انهم لم يخرجوا من البيت الا في ساعة متأخرة بحثا عن

شيخ المقبرة ذاك وانهم لم يقابلوا حينها لا بناتهم ولا بنات الفلاحين، وعندما اخبرهم الشيخ الوادي انه ربما يكونوا اولاد الفلاحين هم من فعلوها اجابوا ان ذلك مستحيل فهن لم يذهبن الى القرية ووجدوهن في المزرعة القريبة المقابلة لبيوتهم بعيدا عن القرية كما ان الفلاحين لا يصلون الى هذا المكان في العادة ورغم كل محاولاتهم على اقناع اولاد الوادي من القبول بالتزويج من بناتهم لكنهم رفضوا وبشدة وهذا جعلهم يخرجون من بيته وهم في غاية الغضب فهم لا يعرفون ماذا سيفعلون ببناتهم التسعة بعد ان عثروا للأخريات من بناتهم على من يتزوجهن ومن اولادهم ايضا لكن ماذا يفعلون معهن والكل يتخلى عنهن ويعلن براءته من دم بكارتهن المهدور فوق عشب القرية لكن الحقيقة يعرفها الجميع ولا يريدون تصديقها فهؤلاء الاقطاعيون تأكدوا بعد خروجهم من بيت الشيخ الوادي ان اولاد الفلاحين هم من فضوا بكارات بناتهم في تلك الليلة والفلاحون انفسهم يعرفون ذلك لكن التصريح بذلك يعني امرين لا ثالث لهما اما ان يقبل الاقطاعيون بتزويج بناتهم لأولاد الفلاحين او يقتلوهم غسلا للعار ولتجرئ هؤلاء الشباب عليهم حتى اذا كان ما حصل لعنة اصابت الجميع وبناتهم هن من اجبرن هؤلاء الشباب على القيام بهذا العمل رغم ان هذا لم يحصل في الواقع سوى في الجزء الاول وهو هجوم البنات على هؤلاء الشباب المختبئين بين الاشجار قبالة بيوت الاقطاعيين، في البداية تملكهم الخوف والحيرة ولكن بمجرد تلامس الاجساد العارية قاموا هؤلاء الشباب بالعملية كلها عكس ما حصل لشباب القرية الاخرين، الامر هنا يتعلق بالرغبة وليس باللعنة فالبنات يتذكرن تماما ما حصل ويحفظن وجوه الشباب الذين ناموا معهن في تلك الليلة، كان لقاء حب بالرغم من انه لم يتم التنسيق له مسبقا لكن هذا ما

حصل فكل شيء حصل بالطريقة الاعتيادية وهؤلاء الفتيات تمددن عاريات على العشب وتركن الشباب يقومون باللازم مما تحول بعد ذلك الى عشق حقيقي تملكهن بالكامل حتى بعد زوال هذه اللعنة من القرية وهذا ما دفع الشباب الى رفض الارتباط باي فتاة من فتيات القرية لان ارواحهم تعلقت بهذه الاجساد التي تقع خلف الاسوار الطينية العالية والبوابات الحديدية، لكن هذا الحب بدى بعيدا عن متناول الشباب لذلك ابتعدوا عن بيوت الاقطاعيين لكي يتجنبوا كشف اسرارهم في سرقة بيت المؤونة وانهم هم من فظوا بكارات بنات الاقطاعيين في تلك الليلة ، كانوا يتصورون ان الاقطاعيين لم يكتشفوا ذلك لكن شيخ نهاد وبعد يومين من اقامة العرس الجماعي في تلك الليلة التي لن ينساها الفلاحين ذهب الى الاقطاعيين بعد ان طلب منهم ان يجتمعوا في بيت الشيخ الوادي واخبرهم كل شيء، اخبرهم بأسماء الشباب التسعة واسماء ابائهم واماكن بيوتهم لكنه لم يستطع ان يفسر تواجدهم في هذا المكان في تلك الليلة، ربما تكون الصدفة هي من قادتهم الى هذا المكان، الفلاحون نسوا كل شيء خاصة بعد ان فتح لهم الشيخ الوادي احدى بيوت المؤونة ومنحهم ما يكفيهم لسنتين قادمتين لكنهم قرروا ان يكونوا على غير عادتهم فأقاموا عرسا كبيرا طبخوا فيه عشرات الكيلوغرامات من الرز مع المرق والخبز الحار وهذا منح الفلاحين شبعا غير معتاد وربما يكون للمرة الاولى في حياتهم، اشعلوا النيران وبقوا يغنون ويرقصون حتى وقت متأخر من الليل قبل ان يزورهم الشيخ الوادي وهو يقود معه عشرة خرفان ليطبخوها في العرس لكن الوقت كان متأخرا لذلك اتفقوا على ان يذبحوا الخرفان في اليوم التالي ويتم توزيع لحمها بالتساوي على كل بيوت القرية، في اليوم التالي خرج الجميع الى حقولهم بنشاط كبير تسامرهم خيوط

الشمس التي اخذت تنعكس على صفيحة الماء الذي ما يزال يبلل اوراق الاشجار ويمنحها لمعانا رائعا، نسوا كل شيء، نام الشباب مع البنات وهزوا اسرتهم من شدة الشبق وترنحت القرية كلها في لذة غريبة لم يشعر بها احد من قبل حتى الشيخ الوادي شعر براحة غريبة رغم قبر ابنته الذي كان جرحا يأد وجعا كلما التفت اليه، بيوت الاقطاعيين الاربعة هي من غطت بالحيرة والقلق لكن الشيخ نديم بعمامته البيضاء وجبته الزرقاء ازال هذه الحيرة عندما اخبرهم عن اسماء الشباب التسعة الذين كانوا يمارسون مع بناتهم عشقا طارئا شكل وجعا واشتياقا هائلا لهؤلاء الاولاد والبنات معا، تصرف شيخ نديم كان مبررا فحصته السنوية من المؤونة يستلمها من هؤلاء الاقطاعيين وبحجم اكبر مما يستلمه الفلاحون رغم انه لا يمد يدا في الارض ولكنه يحرض الفلاحين دائما على اطاعة ولي الامر مبررا ذلك بانها شريعة الله ورسوله ومن يخالفها فانه يخالف الدين وسيكبه الله في نار جهنم وبئس المصير، الفلاحون يصدقون دائما ما يقوله الشيخ نديم فهم لا يعرفون غيره ولا يأخذون الدين الا منه وبشكل مباشر لكن هؤلاء الشباب التسعة كانوا يشككون دائما بما يقول رغم انهم لا يصرحون بذلك الا فيما بينهم، هذا جعلهم ينزوون في اماكن بعيدة نسبيا عن القرية ويتناقشون فيما يقوله الشيخ نديم قبل ان يتفقوا على ان ما يعيشونه ظلم كبير لا يمكن ان يقبل به الله وان الشيخ نديم يخدع الفلاحين البسطاء لينال عطايا الاقطاعيين وهم لا يقصرون معه على الدوام، وهذا دفعهم على ان يأخذوا حصتهم بأيديهم وبشكل لا يثير الشكوك لان الكميات في بيوت المؤونة كبيرة ولن ينتبه احد لو نقص منها بعض الكيلوغرامات في كل مرة لكنهم لم يتصورا للحظة ان بيوت هؤلاء الظالمين ستمنحهم

اجسادا طرية تمنحهم ليلة من اللذة والشبق لم يحلموا بمثلها من قبل

(٩)

بالرغم من غرابة ما حدث لهذه القرية لكنني كنت اصدق ما تقول حجية سريوه وهذا خلاف ما تربيت عليه انا البنت التي عاشت معظم حياتها في هولندا وليست معتادة على تصديق مثل هذه القصص، كنت اعتقد انها خيالات بشر فقط، هم من حولوا حكايات عادية الى مطولات سردية مملوءة بالغرابة والدهشة فكيف مثلا افسر شخصية رجل الجينز هذا والذي يعرفه الجميع رغم انه مجرد معنى خلقه خيال حجية سريوه لتفسر ما يحدث بعد ذلك، لكنني اصدق ليس لان الاخرين يعرفون هذا الرجل او لأنه قابلهم في اماكن وازمان مختلفة بل لأنني لا اريد ان اضع نفسي في اختبار الايمان التي عرضته علي فانا حقا لم افكر قبل ذلك ان كنت اؤمن بالرب او لا، لم يسألني احد مثل هذا السؤال كما ان ابي وامي كانوا خارج هذا السؤال على الدوام ولا اعرف ان كانوا مؤمنين بالرب او لا، عشت حياتي كلها خارج هذا السؤال وهذا كان يمنحني انسجاما رائعا كوَن لي شخصية قادرة على المواجهة ولكن ليس بهذه الحالة التي تحولني الى مؤمنة او كافرة فالأمر يتعلق بإحساسي بالأشياء لا بتفكيري فيها، نعم اشعر انني اؤمن بالرب بالرغم من انني لا يمكنني اثبات ذلك عقليا واجد ان اي محاولة لتفسير ذلك مجرد سفسطة ساذجة لن تؤدي الى شيء ولهذا هربت من سؤال حجية سريوه رغم ذلك فإنني اصدقها وهذا شيء غريب على شخصيتي المتشككة والمتسائلة، اصدقها لأنها لا تمنحني فسحة للتفكير والتشكيك والتساؤل فهي تلتقط وبقوة اي محاولة لتتوقف عن سرد القصة وتواجهني بذلك وهذا يحرجني بشكل كبير كما ان رغبتي بسماع القصة الى

الاخير غطت على اي رغبة اخرى لهذا الغيت عقلي ومنحت ايماني فسحة كبيرة لينام وسط هذا العالم الغريب التي تمنحني إياه حجية سريوه وهذا جعلني ابتسم بوجهها واهز رأسي بينما رفعت هي رأسها كمحاولة لاستذكار باقي القصة قبل ان تلتفت الي وتقول....

قرر الاقطاعيون الاربعة الرحيل عن القرية بعد تسليم الحقول لمتعهدين سيقومون بكل ما يلزم من جمع المحاصيل وبيعها وارسال الاموال أليهم بعد بيع هذه المحاصيل ، قرروا الرجوع الى بغداد فكلهم يمتلكون بيوتا هناك وكانوا يقضون اوقاتا كثيرة في هذه المدينة المتخمة بالغناء والمواويل والنوادي، فلابد انهم سيجدون هناك من يقبل بالزواج من بناتهم حتى وان كن بلا بكارات، الفلوس هذه المرة تأتي بالعريس الذي سيغض النظر عن البكارة المفضوضة مادام جيبه مملوء بالعملات المعدنية والورقية، لكن البنات كن يخططن لشيء اخر اما الشباب فبدأوا يعاودون الاجتماع قرب بيوت هؤلاء الاقطاعيين ومراقبة المكان ولكن ليس لسرقة المؤونة هذه المرة بل لرؤية حبيباتهم ولو بلمحة قصيرة تهدئ من قلوبهم الذي احرقها الاشتياق، بعد يومين اكتشفن البنات وجود الشباب خلف الاشجار في البستان المقابل وقررنَ الخروج بعد ان ارسلنَ اشارات لهم بان يكونوا موجودين في نفس المكان وبعد منتصف الليل في اليوم التالي، الامر حصل من دون ادنى تفكير بالعواقب من قبلهم، لم يفكروا للحظة بردة فعل الاقطاعيين حتى البنات تحركن وكأنهن مغيبات عن الوعي، كانت رغبة هائلة تدفع الطرفين للمجازفة وكسر كل الحدود التي وضعها التاريخ وقسّم هذا المجتمع من خلاله الى سادة وعبيد، فلاحون لا يمتلكون شيئا ويقومون بكل شيء واقطاعيون لا يفعلون شيئا ويمتلكون كل شيء، كل شيء هنا تعني حتى

الفلاحين بكل كيانهم الجسدي والروحي، هم من يمنحونهم الحياة والموت وهم من يمنحونهم السعادة والتعاسة، القنوط والامل فهم لا يتحركون الا بموافقة هؤلاء الاباطرة الخمسة الذين يعيشون في بيوت واسعة على اطراف الحقول ويمتلكون حرس بمسدسات وبنادق مستعدة على الدوام لقتل هؤلاء الفلاحين، كل هذا تجاوزته رغبة اولاد الفلاحين التسعة ليقودوا البنات من ايديهن ويهربوا خارج القرية بعد ان حملوا معهم القليل من المؤونة التي تكفيهم ليوم او ليومين، في اليوم التالي ضجت القرية بعد ان عرف الاقطاعيون بهروب بناتهم مع هؤلاء الشباب واول ما قاموا به هو اعتقال ابائهم من بيوتهم الطينية وتعذيبهم حتى بعد ان حلفوا اغلظ الايمان انهم لا يعرفون المكان الذي ذهب به ابنائهم، فرقة من الخيالة بدأت مطاردتهم وفي كل مكان في البساتين بل وحتى في القرى المجاورة في هذه الفترة بدأ الناس تتجمع في مقهى سوادي وتناقش هذه المصيبة فالشيء الذي لم يكن في الحسبان ان ابناء القرية كلهم قد تصاهروا وهذه المصاهرة تجبرهم على اتخاذ موقف فيما يفعله الاقطاعيون بآباء هؤلاء الشباب التسعة وللمرة الاولى يتفقون على ان يبعثوا وفد يفاوض الاقطاعيين على اطلاق سراح هؤلاء الفلاحين لكن الخبر نزل عليهم كالصاعقة فقد قرر الاقطاعيون اعدام هؤلاء الفلاحين في الساحة العامة وسط القرية بعد يومين، طبعا كانت هذه فكرة الشيخ نهاد بعد ان اشاع هذا الخبر في كل القرى المجاورة فهو يعرف ان هؤلاء الابناء سيعودون بالتأكيد اذا سمعوا بالخبر، القرية خلال هذين اليومين تحولت الى مجموعة قلوب محترقة فهذه هي المرة الاولى الذين يشعرون بها بمثل هذا القهر، لا احد يريد ان يفسر ذلك ولكن الكل يتحرك بهذا الاحساس الجديد الذي بدأ يوّلد افكارا غريبة وغير مطروقة سابقا في اجتماع الفلاحين

في مقهى سوادي، كان كل شيء رماديا في ذلك اليوم، الشمس، المزروعات المختلفة، حتى الماء وهو يسير بملل داخل السواقي الضيقة، كل شيء خانقا ومزعجا ويدفع الانسان للهروب من المشهد بعد وقف هؤلاء الفلاحون التسعة على شكل صف واحد امام صف اخر من الرجال الحاملين للبنادق، من الخلف وضعوا خرقا سوداء على عيون الفلاحين فعمت الظلمة وساد هدوء غريب غطى المكان بانتظار صوت الرصاص، سنوات مرت على الفلاحين وهم ينتظرون هذا الصوت، كانت بشاعة الانتظار اكبر من بشاعة الموت نفسه ولكن المسلحين ظلوا ينتظرون امر الاقطاعيين والاقطاعيين ينتظرون الامر من شيخ نهاد وشيخ نهاد ينتظر ان يرى الشباب التسعة وهم يقودون بنات هؤلاء الاقطاعيين ليمنع هذا الموت، فلابد ان الخبر قد وصل الى الشباب ولكن ماذا لو لم يصلهم الخبر عندها سيكون عليه ان يعطي الامر بإطلاق الرصاص فهذا الموقف لا يمكن الخلاص منه الا بعودة هؤلاء المراهقين الذين سيتسببون بمقتل ذويهم، تجمع اهالي القرية بينما القلق والغيظ قد أكل صدورهم وحولهم الى حمامات مذبوحة تلتف على نفسها ومثلما يحاول ان يتقدم قطيع من الثيران باتجاه قطيع من الاسود لإنقاذ احد الثيران الذي تمكنت منه هذه الاسود واطبق احدهم انيابه على رقبته مانعا الهواء من المرور الى الرئتين، هكذا بدأ الفلاحون يتقدمون بقلق وخوف ليقفوا بين الفلاحين المقيدين والمسلحين، في البداية تجرأ احد الفلاحين الشيوخ الذي لم يعد ينتظر كثيرا من هذه الحياة ولكن ما لبث ان تجرأ الاخرين وغطوا الفلاحين التسعة وهذا اشعل غضب الاقطاعيين الذين كانوا يراقبون المشهد من بعيد مما دعا احدهم الى الصراخ بأعلى صوته

- اطلقوا النار...اقتلوا الجميع

عندها ركض شيخ نهاد تجاه المسلحين ووقف امامهم وصرخ بهم

- لا تطلقوا النار ...دعوني اكلمهم اول مرة...(واشار الى الاقطاعيين)

شيخ نهاد يعرف ان مثل هذا الموقف لا يمكن ان يمر من دون دماء فهؤلاء المراهقين يبدو انهم لن يعودوا وتجرأ الفلاحين بهذه الطريقة جعل الموقف اكثر تعقيدا فتنازل الاقطاعيين هنا سيفتح بابا لا يمكن اغلاقه وسيجعل الفلاحين يتجرؤون دائما وربما بشكل اقوى كما فتح النار عليهم سيؤدي الى مقتل البعض ولا يمكن حينها توقع ردة فعل البعض الاخر لذلك ركض نحو الاقطاعيين وطلب منهم ان يتريثوا حتى يكلم الفلاحين، اخبرهم ان الوضع خطر كما انهم يحتاجون الكثير من المسلحين لمنع انفلات الامور، قال لهم من الافضل ان تكونوا انتم في مكان اخر عندما يحدث ذلك تجنبا لأي ردة فعل غير محسوبة وهذا جعل الاقطاعيين يطلبون من المسلحين ان يخفضوا بنادقهم بينما استمر صمت الفلاحين وهم يشكلون حاجزا بشريا يمنع المسلحين من رؤية الفلاحين التسعة الذين لم يفهموا ما الذي يجري وهم بعيون موصدة بقماش اسود، عندها تقدم الشيخ نهاد ووقف على رابية مرتفعة قليلا على الارض وصرخ بأعلى صوته

- اسمعوا...يقول الله سبحانه وتعالى (وأطيعوا الله ورسوله وأولي الامر منكم) وهؤلاء هم اولياء امورنا ومن يقف بوجههم فانه يتمرد على الله من تحت سبع سنوات، ماذا تريدون وقد فعل هؤلاء الشباب الجريمة التي لا تغفرها الارض ولا السماء ، الا تتذكروا قول الله سبحانه وتعالى (ولكم في القصاص حياة يا أولي الالباب)، اين ذهبت عقولكم، هل تريدون ان تموتوا وانتم كفرة، كفرتم بكتاب الله وسنة نبيه، ويحكم ماذا تفعلون بأنفسكم وانتم

تقفون بكل صلافة بوجه الله الرحمن الرحيم عندما تعاندون اولياء الامر، هو من فوق سبع سماوات منحهم الطاعة واوجبها عليكم وبشر من لم يمتثل لأوامرهم بجحيم عرضه السموات والارض، فارحموا انفسكم حتى يرحمكم الله

عندها أنزل الفلاحون رؤوسهم خجلا وبدأوا ينسحبون الواحد تلو الاخر الا ان اصبح المسلحون مجددا بمواجهة الفلاحين التسعة عندها صوبوا بنادقهم باتجاههم بانتظار الامر بإطلاق النار ولكي لا يمنح الشيخ المزيد من الوقت للفلاحين للتفكير مرة اخرى اشار للإقطاعيين بإعطاء الاذن للمسلحين بإطلاق النار لكن في تلك اللحظة جاء صوت من وراء الاشجار

- توقفوا

التفت الجميع باتجاه الصوت فبدأ الشباب يتقدمون وهم يقودون بنات الاقطاعيين، تقدموا ببطء ووقفوا امام ابائهم وشكلوا حاجزا مرة اخرى بين المسلحين ببنادقهم المصوبة والفلاحين بعيونهم المعصوبة، لا إراديا المسلحون خفضوا اسلحتهم مرة اخرى وهذه المرة من دون ان يتلقوا امرا من احد بينما ابتسم شيخ نهاد وشعر ان مخرجا لهذه الكارثة سيكون مقبولا للفلاحين والاقطاعيين بينما التفت الشباب الى ابائهم وبهدوء وجرأة فكوا وثاقهم وازالوا العصب السوداء من عيونهم وقبلوا ايديهم ووقفوا مكانهم رافعين صدورهم لتتلقى الرصاص عندها وقفن البنات كل واحدة امام زوجها لتحميه من هذا الموت المحتمل لكن الاقطاعيين امروا اتباعهم فركضوا وانتشلوا البنات وابعدوهن عن الساحة، كان الموقف رهيبا فالآباء وقفوا بجانب ابنائهم وبدى الفلاحون مبهورين بشجاعة هؤلاء الشباب ليتقدم وسط الساحة الشيخ الكبير

الذي كان او من تقدم ووقف امام الفلاحين حينذاك وصرخ بأعلى صوته موجها كلامه الى الشيخ نهاد والاقطاعيين

- الله هو الرحمن الرحيم....وهؤلاء مرضى لم تتركهم اللعنة لحد الان كما ان الله يقول ليس على المريض حرج فنطالب بالعفو عنهم واذا كانوا غلطوا مع البنات فالأفضل تزويجهم منهن لا قتلهم، لن نسمح لكم بقتل هؤلاء الشباب فنحن نعرف ان الرحمة صفة الله وبالتالي يجب ان تكون صفة من ولاه امور العباد، ارحموهم يرحمكم ويرحمنا الله

بدأ الفلاحين يقتربون مرة اخرى من الشباب عندها ركض الشيخ نهاد نحو الاقطاعيين وطلب منهم تأجيل الحكم على الشباب الى الغد فوافقوا عندها رجع واخبر الناس وطمأنهم ان الامور ستجري مثلما يريدون، قام المسلحون باعتقال الشباب التسعة بينما بدأ الجمع بالانفضاض بانتظار ما ستؤول اليه الامور

(١٠)

في المساء تجمع رجال القرية في مقهى سوادي سبقهم للحضور اباء الشباب التسعة والشيخ نهاد وبمجرد اكتمال العدد تقدم الرجل الكبير في العمر وقال لهم

- اسمعوني جيدا، لا نريد ان ندخل في حرب مع ملاكي الاراضي، يبقون هم سادتنا وأولياء امورنا ونحن نسمع لهم ونطيع ولكن ليس هذه المرة فهؤلاء اولادنا ولا ذنب لهم سوى انهم كانوا في المكان الخطأ يوم حلت اللعنة ولهذا سنقبل بأي شيء سوى قتل هؤلاء الشباب لان في هذا ظلم كبير، نحن عشنا حياتنا كلها تحت هذا الظلم وحان الوقت لنقف في وجههم ونقول لهم اننا لن نسمح لهم بقتل هؤلاء الشباب

عندها وقف الشيخ نهاد ودفع الرجل المسن ووقف مكانه وقال

- عندما خلق الله البشر جعلهم طبقات فخلق السيد والعبد والغني والفقير لأنه لو خلق البشر كلهم طبقة واحدة لما عمرت الارض ولما عثر الانسان على كل هذا الخير كما انه جعل لكل طبقة منزلة خاصة في الجنة فمنزلتكم هناك اعلى من منزلتهم لأنكم انتم من تعمرون الارض، الله عادل ولأنه يحبكم اختار لكم الدار الاخرة واختار لهم الدار الدنيا والدار الاخرة اعظم وابقى، جعلهم اسيادكم ليمتحنكم ويمتحن صبركم فالله يحب الصابرين، الذي تعتبرونه ظلما كما قال هذا الرجل (واشار الى الرجل المسن) هو ارادة الله وامتحانه

فمن صبر كانت له جنة عرضها السموات والارض ومن تكبر واعتدى فسيكبه الله في نار جهنم وبئس المصير، لا تجعلوا

الشيطان لعنه الله يلعب بعقولكم وتزوغون عن طريق الحق، اتقوا الله يرحمكم ويجعل لكم مخرجا من حيث لا تحتسبون

عندها تقدم الشيخ المسن وقال للشيخ نهاد

- شيخنا...عشنا حياتنا كلها نسمع ونطيع وما زلنا نسمع ونطيع ولكننا نعتقد ان هؤلاء الشباب الذين لم يروا الدنيا بعد لا يستحقون الموت، نحن لا نعترض على ما قدر الله نعترض على ما سيفعله الانسان، نحن نقبل بأي عقوبة سوى قتل هؤلاء المساكين فالله لا يقبل بالظلم وهؤلاء مرضى يحتاجون الى العلاج لا الى القتل
- حسنا ..سأذهب اليهم وادعو الله ان يساعدني في اقناعهم بالعفو عنهم بشرط ان تسيطروا على اولادكم وتمنعونهم من ارتكاب مثل هذا الآثام الكبيرة مرة اخرى

خرج شيخ نهاد وتوجه مباشرة الى بيوت الاقطاعيين وهو يفكر بطريقة يقنعهم فيها بالعفو عن هؤلاء الشباب، هو يعرف ان الامر في غاية الصعوبة وان الاقطاعيين اتخذوا قرارهم وليس من السهولة تغيير مثل هذا القرار الا اذا وجودوا طريقة للانتقام من هؤلاء ابشع من الموت نفسه كما انهم يريدون ان يتأكدوا ان بناتهم لن يهربن مرة اخرى، عندها وقف الشيخ نهاد وعاد الى الجامع ليفكر بطريقة تقنع هؤلاء الاقطاعيين، طريقة ابشع من الموت وتضمن ابعاد هؤلاء الشباب عن بناتهم بشكل نهائي، وصل الى الجامع وجلس، كان يعرف ان روحا جديدة تشكلت في القرية سببتها هذه المصاهرة بين الناس وبوقت واحد فالكل اصبح يمت بصلة قرابة للكل، هذه المصاهرة خلصتهم من فرديتهم ومنحتهم روحا جماعية ستكون مدمرة اذا لم يتم اخمادها وربما تؤدي الى ترك الاقطاعيين الارض والذهاب الى بغداد عندها سيفقد الهبات والعطايا المستمرة وستصبح حياته مشابه لحياة

الفلاحين لهذا كان عليه ان يتصرف، ان يفكر بطريقة على الاقل تؤجل هذه المواجهة الى وقت اخر ولكن ما هو الشيء الذي يقنع هؤلاء غير موت الشباب الذين قاموا بما لا يمكن تصوره، ولكنه حدث هناك شيء ما اراده ان يحدث فحدث والان يجب كبح هذا الجنون، كل ما جال بخاطره حينها كان سيؤدي اما الى رفض الاقطاعيين او غضب الفلاحين لذلك كان عليه ان يعود الى قصص الاولين، الى التاريخ فربما سيجد فيه ما هو مفيد ويخلصه من هذه المسألة العصية، بدأ يفكر بأشكال العبودية التي كانت منتشرة في تاريخ المسلمين فهؤلاء الفلاحين يعيشون عبودية من نوع ما رغم انها تختلف عن الشكل القديم للعبودية، شيخ نهاد كان قد اكمل دراسته الدينية في الولاية ليحصل على ترخيص منها لإقامة شعائر الصلاة والخطبة في هذه القرية، في البداية كان يطمح الى الذهاب الى بغداد لكنه وجد نفسه بشكل حقيقي هنا فالجميع يحترمه ويسمع كلامه كما انه يعيش وضعا اجتماعيا واقتصاديا جيدا على الدوام ما دام يعمل كصمام امان للإقطاعيين تجاه اي تفكير محتمل بالثورة والتمرد من قبل الفلاحين لكن الامر هذه المرة مختلف والثورة على الابواب اذا لم يجد مخرجا حقيقيا للأمر لهذا بدأ يعصر كل فكره وهو يرفع رأسه ويتأمل سقف الجامع قبل ان يقف بسرعة ويصرخ بأعلى صوته

- نعم...اخير عثرت على ما يقنع الجميع ...

رفع عباءته وخرج من الجامع متوجها الى بيت الشيخ حسن الوادي لأنه كان يحتاج من يسانده لا قناع الاخرين بالفكرة، طلب من الشيخ الوادي ان يرسل احد ابناءه للإقطاعيين الاربعة

ويطلب منهم الحضور الى بيته وكان له ما اراد بعد حوالي نصف ساعة حيث جلس الجميع بانتظار ما سيقوله لهم الشيخ...

لملم عباءته وعدل عمته ووقف بهدوء وكأنه يتهيأ لإحدى خطب الجمعة

- اسمعوني...الامر هذه المرة مختلف وعليكم ان تفكروا الف مرة قبل ان تثيروا سخط هؤلاء الفلاحين الذين فتحت اعينهم هذه اللعنة ومنحتهم بصيرة لم تكن موجودة، الامور قد تفلت في أي لحظة واعتقد انكم ستكونون انتم الخاسرون بالنهاية فهؤلاء الهمج لن يسكتوا عن قتل اولادهم وقد يفعلون أي شيء لذلك اتمنى عليكم ان تحسبوا الامور جيدا وتزنوها بميزان حساس جد

هنا وقف واحد من الاقطاعيين الاربعة وصرخ بالشيخ نهاد

- السكوت عنهم سيمنحهم جرأة اكبر وبالتأكيد لن نستطيع السيطرة عليهم بعد ذلك...كل شيء إلا السكوت عن هؤلاء الهمج
- طبعا ...لن نسكت ولكننا لن نقتلهم بالطريقة الاعتيادية سنجعلهم امواتا رغم انهم يتنفسون ويتحركون ...ما سيلاقونه ابشع من الموت نفسه عندها سيفهم الجميع عواقب الخروج عن رأي ولي الامر
- كيف...(صرخ الجميع)
- المهم اولا ان نبعدهم عن البنات والى الابد
- ولكن..(قالها بخجل وتردد واحد اخر منهم)
- ولكن ماذا...سأله الشيخ
- المشكلة الان بالبنات ....لا اعتقد انهن سيكفن عن محاولة

الهروب مرة اخرى

- إلا إذا...قال الشيخ
- اذا ماذا...(صرخ الجميع)
- اذا لم يعثرنَ على الشباب ووجدنَ شيئا اخر

- شيئا اخر ..ماذا تعني....(سأل الشيخ حسن)
- بصراحة فكرت كثيرا بالأمر وهداني الله اخيرا الى الحل...هل تعرفون كيف كان اجدادنا يأتمنون على نسائهم وجواريهم من الرجال الذين يعملون في القصر وخاصة في مهاجع النساء
- كيف...(صرخ الجميع)
- كانوا يستخدمون الخصيان
- ماذا...صرخ الشيخ حسن
- نعم ...كانوا يخصونهم في اعمار صغيرة وعندما يكبرون يستعملونهم للعمل في قصورهم من دون الخوف على نسائهم منهم...وهذا ما سنفعله
- ماذا نفعل ..صرخ احد الاقطاعيين
- نخصي هؤلاء الشباب ثم نعفو عنهم ونتركهم يعودون الى بيوتهم
- وكيف نخصيهم
- كما نخصي الكلاب...نشد خصيانهم ونمنع وصول الدم اليها حتى تسوّد وتموت وتسقط...حينها حتى اذا هربن البنات فلن يجدن شيئا ...وسيفهم الفلاحون ان خطيئة مثل هذه تحتاج الى عقوبة اقسى من الموت نفسه...وهذا سيردعهم للابد

وقف الشيخ الوادي واقترب من الشيخ نهاد وهمس له

- هل الله هو من هداك الى هذه الفكرة
- نعم
- صدقني حتى الشيطان لا يستطيع ان يفكر بهذه الطريقة ...المشكلة انه حل حقيقي وينهي الامر
- هذه مهمتي شيخ حسن...انتم لا تدفعون لي من دون مقابل

- بصراحة...هذه المرة الاولى التي اشعر بها انك تستحق كل ما ندفعه لك...اجابه الشيخ الوادي وهو يبتسم

بعد دقيقة صمت ادار فيها الاقطاعيون الاربعة الفكرة داخل رؤوسهم وافقوا وبصوت واحد...فكرة تعذيب هؤلاء الشباب وسلب رجولتهم كانت مقنعة تماما وتشفي غليلهم بشكل كبير لكنهم التفتوا الى الشيخ نهاد وسألوه

- علينا ايضا انت نفكر بردة فعل اهلهم اذا علموا اننا سنقوم بإخصائهم

لن يعلموا بالأمر في الوقت الحالي....في الغد سأخبر الجميع انني استطعت ان اقنعكم بالعفو عنهم ولكنكم تخافون من الهرب مع بناتهم مرة اخرى لذلك ستقومون بسجن هؤلاء الشباب في الكهف الذي يمر من داخل التل المجاور للقرية لحين انتهاء موسم الحصاد، بعد جني المحصول وبيعه ستغادرون القرية الى بغداد ويتم اطلاق سراح اولادهم وبهذه الطريقة تضمنون انتم وهم عدم هروبهم مرة اخرى ...وهذا سيقنع الفلاحين بالتأكيد بل سيجعلهم يعملون بشكل حقيقي لاستكمال عملية الحصاد، في هذا الوقت سنحتجز الشباب داخل الكهف ونشد خصيانهم إلا ان ينتهي موسم الحصاد سيكون كل شيء قد انتهى...ستذهبون انتم الى بغداد

وسيطلق سراحهم عندها حتى اذا فكروا بالانتقام منكم فلن يجدوا احدا وسينسون الامر ما دام اولادهم يتحركون امامهم حتى اذا كانوا قد فقدوا اهم مقومات الاستمرار بهذه الحياة

- أيا أبن الشيطان....صرخ الشيخ الوادي
- شيخ حسن....احيانا نحتاج الشيطان لنملأ بطوننا

- نصف محصول هذه السنة سيكون بين يديك...وقف احد الاقطاعيين وقال ذلك بشكل استعراضي واضح
- يستحق شيخنا ...ونحن ايضا لن نقصر معك ....صرخ الجميع

ابتسم الشيخ نهاد ومضغ لعابه وهو يقول لهم

- ادام الله عليكم هذه النعمة

في تلك الليلة نام الشيخ نهاد بهدوء واطمئنان فالخوف والقلق الذي كان يعتريه من مواجهة محتملة بين الاقطاعيين والفلاحين ستكون نتائجها وبالا عليه وسيفقد معها احترام الفلاحين وعطايا الاقطاعيين اصبحت الان غير ممكنة، الجميع سيكون راضيا بهذا الحل، الحل الذي يشفي غليل الاقطاعيين ويجعل الفلاحين يستعيدون ابنائهم بالتالي يبقى أي شيء اخر مقبولا غير الموت حتى اذا كان موت بمعنى اخر ..

في الصباح توجه الى مقهى سوادي وطلب من الحاضرين في المقهى ان يبلغوا الاخرين بالتجمع في جامع القرية بعد ساعة من الان وبالفعل تراكض الجميع للجامع بينما وقف الشيخ نهاد على المنبر يتأمل الجميع قبل ان يخبرهم بقرار الاقطاعيين بالعفو عن ابنائهم رغم انهم سيحتجزونهم امام الجميع في الكهف لحين انتهاء موسم الحصاد حينها عم الفرح وشكر الفلاحين الشيح نهاد بينما ركض اباء هؤلاء الشباب وقبلوا يد الشيخ نهاد ودعوا له وللإقطاعيين بالخير والصلاح وطول العمر، بعد ساعة كانوا يقودون الشباب وهم مكبلين بحبال غليظة الى الكهف بعد ان مروا بشكل مقصود داخل القرية التي تبعتهم إلا أن وصولوا الى الكهف حينها دخل الشباب مع عدد من حراس الاقطاعيين بمسدساتهم وبنادقهم قبل اغلاق فتحة الكهف ومن كلا الجانبين

بالصخور مع ترك فتحة صغيرة لتمرير الطعام وبعض المستلزمات الاخرى، حضروا كل المستلزمات لا جراء اللازم كما انهم اختاروا مكانا في منتصف الكهف كي لا يسمع من في الخارج اصوات صراخهم عندما يشتد بهم الالم قبل ان تموت خلايا خصياتهم ويصمت الوجع قبل ان تتيبس وتموت الى الابد...

- ما الذي حدث فعلا داخل هذا الكهف؟

حتى مع ما يمكن ان تقوله حجية سريوه حول ما حدث هناك أظن ان الامر كان اكثر بشاعة، أكثر وجعا، اكثر وحشية وهؤلاء الشباب التسعة تعرضوا حينها لأكثر عمليات الارهاب قسوة ليس لانهم قاموا بإخصائهم بهذه الطريقة فقط وانما لأن الدافع لهذا الإخصاء كان هو الانتقام والنظرة الدونية من قبل الاقطاعيين تجاه كل الفلاحين واعتقادهم انهم من ضمن ممتلكاتهم الاخرى ويحق لهم ان يفعلوا بهم ما يشاؤون هو الذي سيجعل هذه العملية تحمل كل ملامح القسوة وربما كان هذا معروفا بالنسبة للطريقة التي يفكر فيها الاقطاعيون ولكن الشيء الاكثر غرابة هو موقف شيخ نهاد الذي كان مطلق الفكرة الاول، صحيح هو كان يحافظ على هذا النظام الذي يمنحه مكانة ووجاهة ومكتسبات لا يريد التنازل عنها وبدأ يشعر بتهديد حقيقي لضياعها ولكنه ايضا كان للموضوع وجهة نظر دينية وتاريخية لأنه يعتقد ان قضية الإخصاء كانت جزء لا يتجزأ من التاريخ الاسلامي حتى مع علمه ان الرسول الكريم كان قد نهى عن ذلك ولكن كل قصور الخلفاء ابتداءً بالأمويين وانتهاءً بالعثمانيين كانت تعج بالمخصيين وهذا اعطى مقبولية اجتماعية لهذا الجنس الثالث على اعتبار انهم كانوا جزء من المشهد التاريخي رغم انهم لم يؤثروا الا في

مفاصل صغيرة في هذا التاريخ مثل دولة المماليك التي قامت بمصر وحكمها ذلك الاسود المخصي كما وصفه المتنبي، ولأن شيخ نهاد كان يعرف جزء كبير من هذا التاريخ كان يعتبر ان مقام هؤلاء الفلاحين يشبه كثيرا مقام الخدم في قصور الامراء والاثرياء والعلماء الذين ما زالوا يدعون لهم بالجنة ولهذا لم يشعر بأي ذنب تجاه فكرة إخصاء هؤلاء الشباب ما داموا تعاملوا مع هؤلاء المخصيين وتقبلوهم في بيوتهم وفي مدنهم ولم يشعروا بالإثم تجاه قضيتهم او بالتعاطف معهم والشيخ نهاد يحاول دائما ان يحذو حذو السلف الصالح وما دام هذا السلف لم ينتفض من اجل هؤلاء واعتبروا وجودهم مبررا وضروريا دائما فما هو الضير في إخصاء هؤلاء الشباب وهم مجرد خدم مملوكين للإقطاعيين واذا كانوا يستطيعون سلب حياتهم فسلب فحولتهم سيكون اقل وطأة بل سيكون مكرمة كبيرة يستحقون لأجلها الأجر والثواب والثناء لهذا وقف يراقب دخول الشباب الى الكهف حتى اذا اغلقوا فتحاته من الجانبين رفع يديه للسماء وخاطب الله قائلا

- إلهي وفقنا دائما لما تحب وترضى

انتبهت حجية سريوه لي وانا اسرح في مكان اخر غير هذه الغرفة الصغيرة التي تحتوينا بعد ان سحب سعود جمال وخرجوا الى حديقة البيت، رأيتهم من خلال نافذة الغرفة وهم غارقون بنقاش حاد، كان زوجي يبدو هادئا بينما ظهرت ملامح الحيرة والالم على وجه جمال، اكيد حضرت نجاة في هذا الحوار المؤجل منذ سنوات ولكن لابأس فالعالم يبدو اكثر حياة وبشاعة وعلى التاريخ ان يتطهر الان سواء التاريخ الشخصي لجمال او تاريخ هذه القرية بكل غرابته وتجلياته ولهذا التفت الي حجية سريوه وقالت لي

- لابد انكِ تسألين نفسك الان عن ما حدث داخل الكهف ومن الذي سرد الحكاية هناك، الشباب التسعة او الحرس الذين قاموا بإخصائهم ومراقبتهم طوال فترة بقائهم بالداخل لكن الحقيقة ان حكاية ما حدث داخل الكهف جاءت هذه المرة من خارج القرية وبعد زمن من الحادثة اما كيف وماذا حدث فاسمعيني جيدا

- الشباب التسعة لم يفهموا ما الذي يحدث لكنهم تخيلوا للحظة انه سيتم اعدامهم ودفنهم داخل هذا الكهف لكن هذا الهاجس تلاشى بعد ان فك الحراس الحبال التي تربط أيديهم وارجلهم وقدموا لهم الطعام والماء، كانت هذه توصيات الشيخ نهاد فمن المستحب دينيا تقديم العلف للخروف قبل ذبحه، كان الجو باردا وكئيبا داخل الكهف لكن الطعام كان طيبا فهم لم يأكلوا شيئا منذ يومين لهذا افترسوا ما احتوته الصحون بسرعة كبيرة ليشعروا بعدها بخدر شفيف ويتمددوا على الارض الصخرية الباردة من دون ان يعرفوا او يتوقعوا ما سيحدث، كان رجال القرية يتجمعون خارج الكهف عندما وقف الشيخ نهاد على مدخله وطلب منهم ان يذهبوا للعمل في الحقول وان يبذلوا اقصى جهودهم لاستكمال موسم الحصاد وهذا سيسمح لهؤلاء الشباب بالعودة الى بيوتهم وممارسة حياتهم بشكل طبيعي، بعد ساعة من مغادرة الفلاحين مدخل الكهف دخل الشيخ نهاد الى داخل الكهف بعد ان ازاح الحراس بعض الاحجار الكبيرة ووقفوا بمسدساتهم امام الفتحة تحسبا لأي محاولة من اهالي الشباب لدخول الكهف لكن الجميع كان مشغولا بالحصاد وتعالت الاصوات هناك كما يحصل في كل موسم حيث يبدأ الفلاحون وبمشاركة من النساء والاطفال باجتياح الحقول وهم يطلقون الاغاني التي تحثهم على العمل بشكل اكبر، تعالت اصواتهم حتى غطت الفضاء، هذه الاغاني تبدأ بشكل هادئ ولكنها ما تلبث ان تتعالي مع ارتفاع

وتيرة العمل وارتفاع نسب القطاف، هناك حقول الحنطة وهناك ايضا شجيرات العنب والبرتقال والتفاح حيث يشحذ الرجال مناجلهم لحصاد سنابل الحنطة اما النساء والاطفال فيعملون على قطف الفواكة والخضروات المنتشرة على مساحات زراعية تحيط بالقرية والتل، في هذا الاثناء طلب الشيخ نهاد من الحرس ان يقيدوا الشباب مرة اخرى وبطريقة اكثر احكاما بعد تعريتهم من ملابسهم بشكل كامل قبل ان يمددهم واحد تلو الاخر على الارض حينها قام احد الحراس بجر الخصيتين بقوة وقام حارس اخر بربطهما في منطقة الالتقاء مع العضو الذكري بخيط قوي وبقوة جعلت جلد الخصيتين يلتقي في نقطة واحدة وتنضغط كل الشرايين والاوردة التي تزود الخصيتين بالدم فتمنع وصول الدم الى البيضتان وحتى كيس الصفن الذي يغطيهما، لم يكن الالم كبيرا، كان وجع سحب الخصيتين اكبر من الم شدهما لكن الوجع كله كان ينتظر في مكان اخر، صرخ الشباب متسائلين عما يفعلون بهم من دون اجابة فالحرس كان يعملون ما يطلبه منهم شيخ نهاد وبحرص شديد، بعد ان اكمل الحرس عملية ربط الخصيتين للشباب التسعة جروا احد هؤلاء الشباب ومددوه بشكل جانبي ثم جرو خصيتيه واراحوهما على حجارة ملساء كبيرة قبل ان يتقدم احد الحراس وهو يرفع حجارة اخرى تمسك بها بصعوبة ويقف فوق رأس ذلك الشاب ثم يجلس على ركبتيه وبقوة كبيرة يُنزل الحجارة التي في يده على خصيتي الشاب فيرضهما رضا قويا، كل ذلك يحدث بتعليمات مباشرة من قبل الشيخ نهاد، عندها يطلق الشاب صرخة هائلة تسللت من داخل الكهف وخرجت من فتحته قبل ان تضيع داخل اصوات الفلاحين واغانيهم التي تعالت بعد ان وصل العمل الى ذروته وبعد ان بدأت تلال من سنابل الحنطة وعناقيد الاعناب والفواكة الاخرى

تتشكل وترتفع ويرتفع معها الغناء والصراخ والنشوة والالم ايضا، هي صرخة واحدة بعدها شل الالم كيان ذلك الشاب الى الدرجة الذي جعلة ينفخ الهواء بسرعة وكأنه يحاول اطفاء نار تشتعل داخله، ألم غريب يصدر على شكل موجات وجع هائلة تتسلل بقوة الى الرأس وتجعل الشاب يتلوى مثل سمكة تحاول الوصول الى الماء رغم القيود التي تشكل حركته بالكامل قبل ان يتحول الى أنين ما يلبث ان يتصاعد ويتحول الى صراخ مرة اخرى بعد ان يتشكل الوجع هذه المرة بهيئة نبضات متوالية تصدر من بين الفخذين وتنشر هيولاتها على كل الجسد، يتعالى الصراخ وهذا يحمل احد الحراس على ضرب الشاب بمؤخرة مسدسه على رأسه من الخلف فيسقط الشاب مغشيا عليه ويسود الصمت قبل ان يسحبوا شابا اخرا بجسده المرتجف بعد ان شاهد كل ما جرى لصديقه، حاول ان يتملص ولكن بلا جدوى ولا أمل بعدها بدقائق يطلق صرخة هائلة يحاول بعدها ان يهرب من الالم ولكن الى اين والوجع يتحول الى لون غامق يغطي كل الملامح، الى لغة تمنح كل الاشياء كينونتها، الى ضوء يتملك كل الاماكن في وقت واحد، الالم هو الالم لا شيء يمكنه ان يصفه ولا لغة يمكن ان تقترب من كينونته، والم رض الخصيتين له شكل اخر، لون اخر، وطعم اخر، ألم لا يشبه سوى نفسه يتحول احيانا على شكل سيول جارفة تنطلق من المكان المرضوض الى كل خلية من خلايا الجسد ويتشكل احيانا على بهيئة نبضات تصل الى كل مكان في وقت واحد، ألم يشمل كل شيء يحول الحياة الى هروب في اللاجدوى، في اللامكان وفي اللازمان، لا شيء يمكن تذكره او التفكير به سواه، هو الواحد الاحد الذي يحتل كل شيء ويمتلك كل شيء ويتحول الى اي شيء من دون ان تجده في أي مكان، يتحرك مع الزمان في الوقت الذي تريد ان تكون انت خارجه

دائما ، خارج الزمان والمكان بل والحياة كلها لتتخلص منه لكن بلا جدوى، فكل هروب منه لا يكون الا اليه وكل لجوء الى سواه لا يكون الا له وكل محاوله لاستيعابه لا تكون الا للتغرب فيه، الالم هو الالم فقط الذي لا يمكننا وصفه او الوصول الى كنهه مع كل محاولاتنا البائسة لوصفه او الاقتراب منه والم الخصيتين المرضوضتين بين حجارتين ملساويتين لا يحمل سوى معنى واحد ولغة واحدة هو الجحيم كما اراد الله ان نفهمه او نتذكره، الانسان الان قادر على صناعة هذا الجحيم وبأبشع صوره الممكنة ...

تسع صرخات انطلقت من داخل هذا الكهف وتسللت الى السماوات السبعة من دون ان ينتبه احد من هؤلاء الفلاحين التي تغطت ثيابهم بتراب السنابل وحمرة عناقيد العنب ورائحة الحمضيات وحموضة التفاح، المسافة بين وجع الرض ووجع القطاف، فصل الفحولة عن كينونة الرجل وفصل الثمرة من امها الشجرة، التهام الحيوات الاخرى لتشكيل حياتك انت، تناثر الوجع مع الثمار اليانعة وبدأت الشمس تنزوي فيعود الفلاحين الى بيوتهم ويخرج شيخ نهاد من الكهف الذي تحول الى انين يتسلق ظلمته وينتقل مع سنى مشاعل النار التي ترتجف بقوة مع ارتجاف اجساد الشباب التسعة وهم يحاولون ان يستوعبوا موت فحولتهم الابدي، ولكن حتى موت الفحولة لم يعد مهما فكل ما يهمهم الان هو ان يستكين هذا الوجع، على الاقل يخف قليلا ليتمكنوا من التفكير في هذه المحنة، بكوا كالأطفال وارتجفوا كالممسوسين وتمرغوا بالأرض كالأسماك التي خرجت لتوها من الماء دون ان ينتبه اليهم احد او يثيروا شفقة الحراس قبل ان يغمى عليهم من شدة الالم ويضيعوا في التعب الذي تجاوز حدود الإعياء، لا نستطيع ان نقول انهم كانوا نائمين فالحقيقة انهم كانوا

يدركون وجعهم حتى مع فقدانهم وعيهم وهذا يجعلهم يستيقظون فيبتلعهم الوجع مرة اخرى، كانت ليلة بحجم عمر كامل ولكنها انتهت بالنهاية فاستيقظوا وكأنهم خرجوا الى حياة اخرى، تحول الوجع الى تعب هائل وبدأ القلق يتسلل الى عقولهم فيشلها، قلق من نوع خاص جدا اصابهم وهم يحاولون ان يستوعبوا نوع الحياة القادمة فهم متأكدون انهم سيخرجون قريبا من هذا الكهف ولكن غيرهم من سيخرج، هم سيتركون ماضيهم وشخصياتهم كلها داخل رطوبة هذا الكهف وسيخرجون بجلد اخرى ونبرة صوت اخرى وشعور اخر بالحياة بعد ان تحولوا الى كائنات اخرى، جنس ثالث فلا يمكننا ان نسميهم رجالا بعد الان وهم بالتأكيد لا ينتمون الى معاشر النساء، كل هذا اختلط بصمت المغارة وجعلهم ينزوون كل في جانب ويحاولون استيعاب هذا الواقع الجديد اضافة الى تحمل الالم الذي بدأ يعاودهم بين فترة واخرى حتى انهم بدأوا يتجنبون الحركة خوفا من ان تمس افخاذهم خصيانهم التي تورمت بشكل كبير وهي تطلب الدم بكل غريزتها وبعد ان تعجز وتتأكد ان لا مجيب لطلبها تبدأ تصدر نبضات ألمها كنوع من الاستغاثة من دون ان تدرك ان اصحابها الان مقيدو الايدي ولا سبيل لفك الحبل المربوط في عنق الخصية والذي يمنع الدم من الوصول اليها...

لا احد يعرف بالتحديد كم يوما بقوا داخل الكهف ولكن الشيء الاكيد ان الالم بدأ يقل بعد ان استسلمت خصيانهم للموت وبدأت تسوّد قبل ان تسقط كما انه لا أحد يستطيع ان يؤكد ان كل الخصى الميتة سقطت في يوم واحد ولكنها بالتأكيد خلال ايام قليلة كان كل شيء قد انتهى، في هذا الأثناء كان موسم الحصاد قد انتهى ايضا وكان الاقطاعيون قد بدأوا ببيع المحاصيل وتوزيع قسم منها على الفلاحين، اما شيخ نهاد فكانت له حصة الاسد

فبيت مؤونته امتلأ بالكامل ونقل قسم منه الى غرف بيته الاخرى، كان الكل ينتظر الساعة التي يتم فيها اطلاق سراح الشباب اما البنات فكن يعشنَ هذه الفترة في سجن حقيقي حتى مع السماح لهنَ بالتجوال داخل البساتين مع منعهن من الوصول الى المغارة، كن يتحركن بشكل غريب، لا يتكلمن كثيرا ويتلفتن على الدوام فكل شجرة ممكن ان تتحول الى الحبيب الغائب في دهاليز الظلمة، كن يعرفن ان اي محاولة للاتصال بهم غير ممكنة الا بعد ان يخرجوا من الكهف لذلك كن ينظرن الى الكهف من بعيد ويحلمن باليوم الذي يرون فيه معشوقيهم وهم يخرجون من باب المغارة لكن المفاجئة كانت هائلة عندما اخبروهم انهم سيرحلون الى بغداد بعد ان انتهى موسم الحصاد وتم بيع المحصول وامتلأت جيوبهم بالمال، لا احد يمكن ان يصف كيف غادرن القرية ولا احد يمكن ان يستوعب نظراتهن وهن يتأملن فتحة الكهف قبل ان تبتعد شيئا فشيئا وتتلاشى، احساس هائل بالفقد تسلل الى ارواحهن حتى مع علمهن ان رحيلهن هو السبيل الوحيد لخروج الشباب من المغارة وبالفعل، بعد مغادرتهم بساعات دخل الشيخ نهاد الى داخل المغارة وجمع خصيان الشباب الميتة ليدفنها في مكان ما في الحقل القريب وامر الحرس ان يفتحوا الباب ويطلقوا سراحهم

(١١)

من فتحات صغيرة ملاصقة لقبور خصيات الشباب خرجت تسع سحالي صغيرة يشبهن ما يطلق عليها هنا في العراق (الحية ام سليمان) وهي سحالي صغيرة سريعة الحركة يكثر تواجدها في الحدائق والبساتين كما ان شكلها الخارجي ليس مقرفا مقارنة بأبي بريص فهي شديدة الشبه بالأفعى الصغيرة جدا غير انها تحتوي على اربع اطراف بمخالب صغيرة تمكنها من التسلق، تعيش عادة في جحور صغيرة في التربة، كما انها لا تظهر بلاهة ابو بريص حيث تتحرك دائما بسرعة ورشاقة ولاتحبذ تسلق الجدران او العيش داخل البيوت وتفضل دائما الحدائق والاحراش وهذا يجعلها مقبولة دائما عند الناس، انطلقت هذه السحالي التسعة عبر الاحراش والحشائش وما تبقى من بذور الحنطة ليتسلقن رابية تتيح لهن رؤية الطريق المؤدي الى خارج القرية، ثواني وتمر اربع عربات كل عربة تحتوي على صفين من الاحصنة وقمرة خلفية يجلس في كل واحدة منها واحد من الاقطاعيين مع عوائلهم، وحدهن البنات احتلن المكان قرب النافذة الصغيرة وخيوط من الدموع قد وجدت لهن مجاري على خدودهن، السحليات رفعن رؤوسهن الصغيرة وشاهدن وجوه البنات من خلال نوافذ العربات فانطلقن نحو هذه العربات وبدأن يتحركن بسرعة بين الاطارات الخشبية وهن يطلقن صفير واطئ تسلل بهدوء الى مسامع البنات ومنحهن شعور بالراحة من دون ان يعرفن مصدر هذا الشعور، خلال الرحلة الى بغداد توقفت العربات اكثر من مرة، احيانا لتناول الطعام واحيانا اخرى لقضاء حاجة في الخلاء الواسع، بقت هذه السحالي ترافق العربات إلا أن

وصلت الى بغداد، حينها اختفت داخل بيوت الاقطاعيين بينما صفيرهن كان يبدو واضحا كلما حلمن البنات بتلك اللحظة التي نامن بهدوء ولذة وهن عاريات تحت الشباب بينما برودة العشب تحت ظهورهن كان يوازن اشتعال الرغبة في كل خلية من خلايا اجسادهن، ذاكرة غريبة فشعور اللذة يعاد بكل قوته في كل مرة وهذا يجعل البنات يتحركن مثل الممسوسات ولايهدأ من روعهن سوى صفير السحالي الذي لا يعرفن من اين يصدر ولا لماذا يمنحهن هذا الشعور بالراحة والسكينة رغم ان حلم اللقاء مرة اخرى كان حاضرا وقويا واكيدا وكان صفير السحالي يعززه ويدفعه دائما للتحقق، لكن الشباب كانوا في وضع مأساوي فبالرغم من ازالة الاحجار عن ابواب الكهف ومغادرة الحراس لكنهم بقوا هناك وكأنهم ينتظرون شيئا ما، لم تكن لهم المقدرة على الخروج ومواجهة العالم لذلك تناول كل واحد منهم قطعة الحجارة التي استخدمها الحراس في رض خصيانهم وبدأوا يرسمون شيئا ما على جدران المغارة قبل ان يخبر الشيخ نهاد اهاليهم بان مدة سجنهم قد انتهت ويستطيعون الان تسلم ابنائهم وهذا جعلهم يهرعون نحو الكهف ويسحبون ابنائهم بقوة الى الخارج، اشياء كثيرة اختلفت في هؤلاء الشباب واول هذه الاشياء اصواتهم التي بدت اكثر صفاء ونعومة مع انهم بدوا صامتين في اغلب الوقت ولم يكونوا يردوا على الاسئلة الكثيرة الموجه اليهم من قبل الاهل اولا واهالي القرية بعد ذلك الا بإجابات مقتضبة لكن الامر بدى مبرر بالنسبة للأهل فسجنهم داخل هذه المغارة المظلمة كان لابد ان يترك اثرا على شخصياتهم وطريقة تعاملهم مع الاخرين، كانوا خائفين ولم يخبروا اهاليهم بما حدث لهم داخل الكهف، لم يكونوا قد اتفقوا على هذا الامر ولكن شعورا راودهم انه لا جدوى من اخبار الاخرين لان ذلك سيجعلهم ينظرون اليهم

بطريقة مختلفة، اذا الافضل ان ينسوا كل ما حدث لكنهم لا يستطيعون ان ينسوا حبيباتهم بكل تأكيد وهذا جعلهم يلتقون لوحدهم طوال النهار ويخططوا لطريقة توصلهم اليهن رغم ان الامر بدى مستحيلا فهم لا يعرفون عناوينهن ولا يعرفون الطريق الى بغداد ولا يملكون ما يحملهم الى هناك سوى اقدامهم، لكنهم في نفس الوقت بدأوا يشعرون ان اجسادهم تتغير، أحساسهم بالأشياء يتغير، فبدوا عاطفيين اكثر من اللازم، حتى ان دموعهم كانت تنزل بسهولة غريبة وبمجرد ان يتذكروا حبيباتهم لكن في نفس الوقت كانت ردود افعالهم غاضبة بشكل كبير من الاخرين ولأتفه الاسباب، كانوا يغضبون بسرعة وسرعان ما يعتذرون ممن اغضبوهم وهذا جعلهم يتجنبون الناس بشكل كبير رغم ان الواقع كان يضعهم على الدوام في مواجهات مجانية، كانت القرية هادئة والشيخ نهاد متأكد من انهم لن يفضحوا انفسهم ولهذا كان يبتسم ابتسامة خفيفة كلما رآهم رغم انهم كانوا يشيطون غضبا كلما صار امامهم لكنهم كانوا يبتعدون عنه كي لا يثيروا الشكوك

الساعات هذه المرة تمر ببطء هائل، الخوف والحيرة تملكهم بالكامل والاسئلة بدأت تحاصرهم من كل اتجاه فما الجدوى من محاولة اقتراب اخرى مع من يحبون بعد ان فقدوا فحولتهم، هل يمكن للبنات ان يقبلن بهذا الوضع، يرتبطن برجال يفقدون المعنى الواقعي للرجولة حتى اذا كانوا يملكون كل المعاني المجازية لهذه الكلمة ولكن ما معنى حياتهم من دون حبيباتهم، الموت حينها سيكون ارحم كما ان الحب لا يعني الجنس فقط هناك شعور هائل، تملك كامل تصبح معه للأشياء معاني اخرى تماما فلمسة واحدة تكفي لإطفاء كل هذه النيران التي تلتهب بالداخل ربما قبلة واحدة تكفي لتصنع حياة ممكنة، نعم الاتصال الجنسي مهم وربما اكثر اهمية من اي شيء اخر ولكنه ليس كل شيء فهناك الكثير

من التفاصيل الاخرى التي يمكن ان تعوض هذا الالتصاق الجميل، التوغل الهائل والنكوص في متاهات الاخر، الشيء الاكيد ان شعورا هائلا بالاحتياج يجتاح الشباب التسعة الان، يحتاجون حبيباتهم ليس ليعروهن وينامون فوقهن فقط كما حدث في اللقاء الاول وانما ليتلمسوا وجودهم من خلالهن، ليشعروا بهذا الوجود الذي سيتحول الى عدم محض من دونهن ولهذا خرجوا من القرية بعد حوالي اسبوعين من خروجهم من المغارة...

عندها صمتت حجية سريوه وكأنها احست بالتعب وهذا جعلني التفت من خلال النافذة الى سعود وجمال الذي بدى عصبيا وهو يحدثه بأمر ما، لابد انهم تذكروا نجاة، فهناك الكثير مما لم يقله جمال وحان الوقت ليقوله لا لشيء ولكن ليتخلص نهائيا من هذه الذاكرة الاليمة وهذا جعل سعود يصغي اليه بكل جوارحه بينما تنفلت دمعة من عينيه يسارع بإخفائها بكم قميصه قبل ان يسترسل بالكلام..

- تشربين شاي...قالت لي حجية سريوه
- اشرب

عندها صبت لنا قدحين من الشاي وسحبت رشفة طويلة منه وهي تحاول ان تستذكر القصة او ربما تحاول ان تغلق الفجوات الكثيرة في القصة والتي ربما فكرت فيها كثيرا قبل ذلك ليبدو كل شيء فيها منطقيا وممكنا لكنها بدأت هذه المرة بكلمة كان يبدو انها بعيدة عن قاموسها...(لا أعرف)...

لا أحد يعرف اين ذهبوا منذ ان غادروا القرية في تلك الليلة ورغم ان اهلهم بحثوا عنهم في القرى المجاورة لكن لم يكونوا مروا بأحد او رآهم اي شخص لهذا قرر اهلهم ان ينتظروهم فقط

رغم انهم يعرفون انهم قد توجهوا الى بغداد لكن الذهاب الى هناك بدى مستحيلا والعثور عليهم بدى اكثر استحالة لكن الشيء الذي لم يكن يتصوره الجميع ومن ضمنهم الشيخ نهاد انه بعد حوالي شهر من غيابهم جاء الاقطاعيون مع حراسهم وسحبوا الفلاحين من بيوتهم وطلبوا منهم ان يخبروهم عن مكان ابنائهم بعد ان نجحوا بطريقة او باخري بالوصول الى بغداد والاستدلال على بيوتهم هناك والهروب مرة اخرى برفقة البنات لكن الشيخ نهاد اكد للإقطاعيين ان الاولاد غادروا القرية منذ شهر ولا احد يعرف الى اين ذهبوا وانهم بحثوا عنهم في كل مكان ولكن دون جدوى وبهذا تأكدوا انهم ما زالوا في مكان ما في بغداد لهذا عادوا الى هناك وكلفوا معارفهم في الشرطة للبحث عنهم لكن الاخبار بدأت تتوالى على القرية بعد فترة قصيرة ان هناك من رآهم مع زوجاتهم في قرى بعيدة وهذا يجعل ذويهم يذهبون الى تلك القرى للسؤال عنهم من دون ان يعثروا عليهم، كانوا في كل مكان فدائما يكون هناك من قابلهم في مكان في القرى المجاورة وتحدث معهم او آواهم لليلة او ليلتين ولكن العثور عليهم بدى مستحيلا فهم لم يكونوا بأي مكان رغم انهم دائما في مكان ما لا يبعد كثيرا عن القرية كما ان قصتهم وما حدث لهم داخل الكهف بدأت تنتشر بين الناس وكأنهم قرروا ان يخبروا الجميع بما حدث ربما لأنه ادركوا ان كتمان الامر لم يعد مجديا بعد ان تخلصوا عن العالم وقطنوا في مكان ما لا يمكن العثور عليهم فيه رغم انهم دائمو الحضور في احاديث الناس وبشكل جعل اهلهم يشعرون بصدمة كبيرة وقهر كبير بعد ان عرفوا ما حدث لهم داخل الكهف، الناس بدأت تطلق تسمية تل الخصيان على القرية وشيئا فشيئا انمحى الاسم القديم للقرية ليكون الاسم الجديد هو

الاكثر حضورا والذي لا يمكن محوه من ذاكرة الجميع، هذه هي قصة تل الخصيان...

- هذا كل شيء ...سألتها
- لا فهناك حادثتان حدثت بعد ذلك رغم انه لا احد يؤكد حدوثهما ولكن الجميع يعتقد بطريقة او بأخرى انها حدثت بالفعل، الحادثة الاولى كانت بعد سنة من ضياع الاولاد والبنات وبعد ان كف اهلهم من البحث عنهم بعدما عجزوا على العثور عليهم، كانت ليلة صيفية حارة اجبرت اهل القرية بترك اكواخهم والنوم على اسرة خشبية خارج بيوتهم عندما سمعوا صراخ ينطلق من جهة الجامع، قفز الجميع وركضوا نحو الجامع ليشاهدوا الشيخ نهاد معلق على واحد من اعمدته بحبال غليظة، عاري تماما وقد تم قطع عضوه الذكري وخصيتيه ليترك مكانهما فتحة كبيرة ملأت ارضية الجامع بالدم ورغم انه كان يلفظ انفاسه الاخيرة لكن اهل القرية استطاعوا ايقاف تدفق الدم قبل ان ينقلوه الى المشفى الصغير في مركز الولاية ليخرج بعد اسبوعين هيكلا عظميا وقد تغيرت ملامحه بشكل كبير لكنه لم يبق طويلا في القرية فبعد ان استعاد عافيته باع كل املاكه في القرية وذهب الى بغداد بعدها رفض اهل القرية تعيين شيخ للجامع بديلاً عنه واكتفوا بتكليف واحد من شباب القرية صاحب صوت جميل لإقامة الاذان فقط وللأن اغلب اهل القرية يفضلون الصلاة في بيوتهم حتى مع محاولات اخو زوجك شيخ ابراهيم بدعوة الناس بحضور الصلاة في الجامع لكن الجميع هنا لا يحبذ ذلك ويفضل البقاء في البيت حتى في ايام الجمع.

الحادثة الثانية هي رجوعهم الى تل الخصيان في ايامهم الاخيرة، الكثيرون اكدوا ذلك انهم عادوا ليسكنوا في بيوت اهلهم قبل موتهم بأشهر، اخبار كثيرة تحدثت عن دفنهم في مكان ما في

هذه القرية لكن لا احد يعرف هذا المكان الان، لكنهم بالتأكيد استطاعوا ان يعيشوا حياة كاملة مع محبوباتهم، حياة استمرت للنهاية، صحيح ان نسلهم انقطع عند هذا الحد ولكن الجميع يؤكد انهم عاشوا حياتهم، الشيء الوحيد الذي ذكر عنهم قبل موتهم هو عندما سألهم الناس عن السبب الذي دعاهم لقطع العضو الذكري للشيخ نهاد، قالوا لهم بابتسامة خفيفة عندما يسكن الشيطان الجامع فان قطع خصيتيه لن يكفي ويجب ازالة فحولته بالكامل فالناس لن ينخدعوا بعد ذلك بشيخ معمم لا يملك شيئا بين فخذيه

صمتت حجية سريوه واخذت رشفة كبيرة من الشاي البارد بعد ان تركته لفترة طويلة وهي تخبرني بما حدث او ما كان يجب ان يحدث فانا اعرف ان التاريخ لا يمكن ان يكون دقيقا جدا وان كل التفاصيل الصغيرة ممكن ان تكون خيالات بشر فقط، هذا مؤكد والمؤكد ايضا ان العقل الجمعي لا يمكن ان ينسى الحوادث الكبيرة كما حدث داخل هذا الكهف ورغم ان الشيطان يكمن في التفاصيل لكنه لا يستطيع تلويث الحوادث الكبرى لذلك قلت لها انني اصدقك عندما قالت لي

- هذه هي قصة تل الخصيان بالكامل...هل يمكنك تصديق ذلك ابتسمت بوجهها لكنني لم أجبها وانما استدعيت زوجي سعود من خلال النافذة بعد ان تحولت تأكدت ان نزيف ذكرياتهم قد وشل بالكامل وان الدموع تحولت الى ابتسامات وطمأنينة، دخلوا علينا بوجوه بشوشة لكن هذه البشاشة لم تدم طويلا لأنني طلبت من جمال مصباح يدوي، وهذا جعلهم ينظرون بوجوه بعضهم مستغربين، قلت لجمال

- ياريت اذا مصباحين ومن النوع الكبير
- وماذا ستفعلين بهما...سألني سعود

- سأدخل الى الكهف
- ماذا...صرخا سعود وجمال بصوت واحد
- نعم سأذهب وسأكون سعيدة اذا رافقتموني الى هناك
- الم تصدقي ...سألتني حجية سريوه
- بلا...ولكن ليطمئن قلبي

تناولت احد المصابيح وانطلقت نحو الباب فتبعني سعود وجمال قبل ان يصيح عليَّ سعود

- كنت اتصوركِ تمزحين
- لا ...طبعا...هناك شيء ما يجب ان اراه
- ما هو...سألني
- اولا ...دعنا نعثر عليه...وبعد ذلك سأخبرك بكل شيء
- لكن الكهف مملوء بالثعابين والعقارب...قال جمال
- ألم تخبروني انه كان مأوى للفارين من الجيش...وان الشرطة دخلت اليه اكثر من مرة ...هذا يعني انه لا شيء هناك سوى التاريخ
- التاريخ مرة اخرى...قالها سعود وهو يبتسم
- نعم...اذا لم نعثر على تاريخنا الحقيقي فلن نشعر بالراحة...علينا ان نعترف به...نخبر الاخرين به مهما كان ملعونا عندها فقط سنشعر بالطمأنينة...أليس كذلك استاذ جمال
- نعم...حسنا سندخل كلنا الى الكهف...ونرى ذلك التاريخ....

قالها جمال واندفع ورائي بينما التفت سعود الى حجية سريوه التي ابتسمت بوجهه قبل ان يهز يده اليمنى ويتبعنا...

الصعود الى فتحة الكهف ليس بالأمر اليسير حتى مع الطريق الذي صنعه الفلاحون بين الصخور وهو طريق متعرج وضيق على شكل اخدود صغير يشق طريقه الى وسط التلة رغم ذلك

فعليك ان تتشبث بالصخور لدفع جسدك الى الاعلى ولكي لا تنزلق للأسفل لكن الشيء المثير هو انك كلما ارتفعت كانت مناظر الاشجار المحيطة التي تكتظ بأعشاش الطيور وتتحرك اغصانها وهي تنفض عدد كبير من انواع كثيرة من هذه الطيور، بدى لي الامر لوهلة وكأنني اطوف مع الملائكة فانا كنت اتصور دائما ان هذه الطيور تجلي من تجليات الملائكة، وهذا يجعلني اتوقف عن التسلق لأتأمل المنظر قبل ان يدفعني سعود الى الاعلى، لكن الروعة كلها كانت في الاعلى فالمنظر من هناك يبدو مدهشا بشكل غريب وكأنني اقف فوق الاشجار حتى انني توهمت انني استطيع ان امشي عليها لأصل الى النهر الذي بدى قريبا ومهيبا بشكل رائع، لكن رغبتي في دخول هذا الكهف طغت على اي رغبة اخرى وهذا جعلني التفت وادخل الى داخلها، على بعد حوالي مائتي متر من مدخلها النصف دائري تلتف المغارة الى الجهة اليمنى ليضيع ضوء الشمس عن هذا الحد وتبدأ الظلمة التي تزداد كلما ابتعدنا عن المدخل، كنا نسير بهدوء وأضوية مصابيحنا على الارض بعد ان اخبرني جمال ان لا أسلط الضوء على سقف المغارة حتى لا اثير الخفافيش المعلقة بالمقلوب على سقفها كما ان خوفنا من وجود العقارب او الافاعي كان اكبر من خوفنا من الخفافيش الذي يكفي ان نتجاهلها فقط، بدأت اقترب من جدران الكهف واحاول ان ارى أي شيء يمكن ان رسمه شخص هناك، كانت هناك بعض الاسماء وقلوب الحب الذي يبدو ان الفارين من الجيش قد رسموها اثناء اختبائهم في هذا الكهف قبل ان ينكشف امرهم ويهربوا الى ملجأ اكثر أمانا وابعد عن ايادي رجال الامن والمخابرات، شيء من الخوف انتابني عندما امسكني سعود بقوة من يدي وهو يصرخ

- افعى

كانت افعى صغيرة هربت برشاقة لتختبئ بداخل جحر صغير، لم اتوقف كثيرا فأفعى صغيرة مثل هذه لن تمنعني من الاستمرار، ربما حتى فتحة الكهف من الجانب الاخر القريب من بيت اهل زوجي، فجأة لمحت رسومات غريبة على الجانب الايمن من الكهف، كانت تبدو قديمة كما ان التراب الذي غطاها كان يحاول تضييع ملامحها، مسحت الحائط بيدي فبانت بعض ملامح هذه الرسومات رغم انها ما زالت غامضة وغير واضحة بشكل كبير وهذا جعلني اخرج قلمي الجاف وامرره على الخطوط التي شكلتها بينما وقفا سعود وجمال وهم يراقبون ما افعله بترقب، كنت امرر القلم بتركيز كبير رغم انني كنت اضغط بقوة لكي تتضح ملامحها بشكل كبير، عندما اكملت ذهبت ووقفت في وسطهما وسلطنا الضوء على هذه الرسومات

(١٢)

هل صدقت حجية سريوه كما اخبرتها بذلك، نعم صدقتها ولكن بطريقة حسية فقط فعقلي بقى رافضا حصول مثل هكذا قصة، لا شيء يمكن ان يؤكد سوى هذه المرأة المهووسة بالقصص وهذه النقطة بالذات هي من جعلتني اشك كثيرا بما تجعلها منطقية اكثر من حرصها على حقيقة وقوع الحدث، التاريخ هنا ليس مهما مع العلم انني اعرف دائما ان هذه هي الطريقة المتبعة طوال الوقت فكل كتاب التاريخ كانوا يحرصون على ترميم القصص وسد الثغرات وليس استقصاء الحقيقة كما هي بالتالي لا اهمية لما حدث المهم ان يصدق المتلقي ما يذكره المؤرخ وما يريد ايصاله رغم ان الحقيقة ايضا تكمن في مكان ما داخل هذا الوهم فهم لا يبتكرون ولا يبنون هم يرممون ويغلقون الفجوات التي محتها الذاكرة والتي تحدث شرخا في قصة الحدث التاريخي ولأن الصراعات الفكرية والدينية والمذهبية كانت رائجة على الدوام وكل هذه الصراعات تعتمد على قاعدة النص التاريخي لذلك اصبح هذا الترميم ليس اعتباطيا وانما قصديا لدعم فكرة كانت حاضرة مسبقا، شياطين او ملائكة هذا ما يحتويه التاريخ وشياطين مذهب هم انفسهم ملائكة مذهب اخر لكن في الحقيقة ان البشر بطبيعتهم لا يمكن ان يكونوا كما وصفهم التاريخ، هذا ايضا موجود في قصة حجية سريوه، الاقطاعيون الشياطين على الدوام والفلاحون الملائكة ولكي تمنح القصة قبولا ما تسمح بخروج ملاك واحد من بيت الشيطان كما حصل مع ابنة الشيخ حسن الوادي، لكن كل هذا الترميم لم يعد مهما بعد ان دخلت

القصة الى داخل هذا الكهف لأنها هنا منحت التاريخ للطبيعة والطبيعة لا يمكن ان تسرد اشياء خاطئة وما صنعته الايادي البشرية على جسدها سيبقى طوال عمر الزمن ويصنع تاريخا حقيقيا لا يمكن انكاره، هكذا كنا ونحن نسلط الضوء على الرسومات المحفورة على الجدار الايمن لهذا الكهف، هو تاريخ حقيقي يقف بكل جلابيبه الصادقة ويعيدنا الى حقيقة حصلت في زمن وتركت لنا شهادة حدوثها، كان كل شيء واضحا ومؤكدا بطريقة رائعة فالشباب رسموا بنفس الحجارة التي رضت خصيانهم تسع اعضاء ذكرية منتصبة لكن من دون خصى مع ظهور تشوه لقطع لحم تشير للأسفل ويتساقط منها قطرات دماء تصل حتى ارضية الكهف، انتصاب الاعضاء الذكرية كان غريبا فرؤوس هذه الاعضاء كانت مرتفعة وكأنها تتحدى الجميع حتى انها تبدو كيدٍ تستجدي السماء شيئا ما، الشيء المؤكد ان هؤلاء الشباب كانوا يتمتعون بإصرار كبير ويحملون بين جوارحهم عشق هائل وهذا الذين ارادوا من الجميع ان يفهموه حتى مع إخصائهم بهذه الطريقة البشعة التي حرمتهم من صنع حياة جديدة لكنها لم تمنعهم من ان يعيشوا حياتهم كما يجب بأعضاء منتصبة تستطيع ان تلامس اللذة وتصنع من خلالها عالما ممكنا ورائعا حتى مع كل البشاعة التي مرت بهم، عاشوا احرارا وتركوا لنا بصمة حريتهم داخل هذه الكهف كتاريخ مؤكد للبشاعة والتحدي وصناعة الحياة...

كانت لحظة هائلة، لحظة مقدسة جعلتني انسى كل شيء واستعيد القصة منذ بدايتها حتى اصل للحظة التي اقف على عتبتها الان فأفز من حلمي بعد ان يصرخ بي زوجي وهو يبتسم

- ما هذا...ماذا يعني

- هذه هي قصة تل الخصيان، التاريخ المؤكد لهذه القرية التي تنام منذ بدء الخليقة في حضن هذا النهر

بدأت اعد القضبان المنتصبة وكأنني أتلمسها الواحد تلو الاخر واحد، أثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، ثمانية، تسعة

ومع كل رقم التفت الى زوجي وكأنني القنه شيئا ما، كنت بحاجة الى شهود حقيقيين فما حصل هنا للشباب التسعة كان صورة لما حصل للكثيرين عبر التاريخ الاختلاف الوحيد هو في صورة رفض العبودية التي جاءت هذه المرة على شكل عضو ذكري منتصب مرفوع الرأس وكأنه يستهزئ بالعالم ويعرض قدرته على الفعل بطريقة مذهلة، عندها التفت اليّ سعود وسألني

- والان..
- لا شيء...دعونا نخرج من هذا الكهف

عدنا الى بيت حجية سريوه عندها ابتسمت بوجهها قبل تسألني

- هل اطمئن قلبك الان
- نعم ...

اقتربت منها وقبلتها من وجنتها وقلت لها بصوت واطئ

- شكرا ...لقد أدخلتيني الى عالم مذهل والجميل انه كان حقيقيا، بعدها التفت الى زوجي وقلت له....اخبر اهل القرية ان يصدقوا هذه المرأة فأنها تقول الحقيقة فقط

بعدها سلم سعود على جمال وعدنا الى البيت بعد ان رافقنا جمال الى الباب الخارجية ...

بقينا يومين اخرين في تل الخصيان، في هذين اليومين تجولت كثيرا داخل البساتين وجلست طويلا على جرف النهر لكن رأسي

كان يتجول هناك قبل اكثر من مئة سنة ويراجع الاحداث منذ اليوم الذي رأى فيه الشيخ حسن الوادي ابنته وهي تنام عارية تحت وهم عاري ايضا حتى اللحظة التي دخلنا فيها الى داخل الكهف ورأينا شهادة هؤلاء الابطال التسعة الذين تحدوا الطبيعة وعاشوا حياتهم كما يجب، في ذلك الوقت كان الحصار الاقتصادي قد أخصى العراقيين وحولهم الى مصاريع تلتف طوال النهار حول نفسها للبحث عن لقمة تسد رمقهم، كانت الحياة تفلت منهم وتذهب الى مكان اخر واللحظات الحلوة قليلة بينما الصراعات بينهم تشهد مستوياتها الاعلى بعد ان مسهم الجوع والعوز وحولهم الى حيوانات مطارِدة ومطارَدة طوال النهار فقط ليصلوا الى حدود الاكتفاء الذي يبدو بعيدا على الدوام، هكذا كنت اشعر وانا اتأمل مزارع الخيار وقمريات الاعناب قبل ان تصل السيارة الى الشارع الرئيسي الذي يعود بنا الى بغداد.

الفصل الثاني

حلم جماعي

(١)

أربع سيارات دفع رباعي تقترب من البوابة الرئيسية للمنطقة الخضراء، تقف السيارات عند الحاجز الامني فينزل كل افراد الحماية، عدا الرجل الذي يرتدي الجبة ويعتمر عمة بيضاء وينتعل المداس في اقدامه والذي يخرج رأسه من النافذة الخلفية للسيارة فيتلقى التحية من الجندي الذي يقود احد كلاب ال(K9) ويدور مع الكلب حول السيارة قبل ان يرى وجه الشيخ فيقول له

- مرحبا شيخنا
- اهلا ابني...الله يبارك فيكم

يعود رجال الحماية بعد ان تم تفتيشهم بشكل كامل وتنطلق السيارات الاربعة الى داخل المنطقة، الشارع المرصوف بالشجيرات الصغيرة على جانبيه يلتف وينتهي عند قصر ابيض كبير له قبة تشبه القبب التي تعتلي مراقد الصالحين ويقف على بابه رجال ببدلات سوداء يركضون نحو سيارات الدفع الرباعي فيفتح احدهم الباب للشيخ وهو يقول له

- اهلا شيخ...الاستاذ بانتظارك

ينزل الشيخ من السيارة بهدوء كبير ويلم عباءته ويعدل عمته ويتبع الشاب الذي يسلمه الى شاب اخر عند مدخل البيت، هذا الشاب يرتدي بدلة سوداء رغم ان عضلاته المفتولة واضحة تماما من تحت أكمام البدلة السوداء، الممر طويل يقودهما الى

غرفة كبيرة في نهايته ذو باب (سلايد) من النوع الذي يحتاج كلتا يديك لتفتحه باتجاهين متعاكسين، حالما ينفتح الباب يظهر الاستاذ

خلف منضدة كبيرة مصنوعة من خشب الصاج والتي تحمل على ظهرها اشياء كثيرة ومتنوعة، اوراق، اجهزة هاتف، اقلام، واشياء اخرى هناك ايضا كرسيان امام المنضدة وجهاز تلفاز كبير في الزاوية المقابلة لها

حالما يدخل الشيخ الى الغرفة يقف الاستاذ ويلتف حول المنضدة فاتحا ذراعيه وهو يرحب

- شيخ ابراهيم...يا اهلا ومرحبا
- اهلا فيك استاذ ...كيف احوالك
- الحمد لله... لماذا كل هذه الغيبة
- والله استاذ انت تعرف المشاغل...ومشاكل المحافظة لاتنتهي
- صحيح....توصلني الاخبار...لكن قل لي الان ...ماذا تحتاج هناك
- استاذ العفو...لا اعتقد انك بعثت عليَّ لتعرف ماذا احتاج
- لا ...طبعا....لكنني اعرف انك تحتاج الكثير
- حاليا...شئ واحد فقط
- ما هو
- انت تعرف انا من قرية يسمونها تل الخصيان
- اعرف
- طلبت من المحافظ تغيير اسم القرية....هذا منذ اكثر من سنة وهو يماطل
- ربما يفيدهم هذا الاسم في وقت لاحق...(يضحك)
- نعم ....يفيد في تسقيطي فقط
- وماذا تريد ان نسمي قريتكم هذه
- لايهم...اي اسم اخر ...ربما نسميها باسم واحد من قيادات حزبنا التاريخية...او...باسم واحد من الاولياء الصالحين..

- لا...افضل ان تسمونها اي اسم اخر...لانريد ان نوحي ولو بشكل بعيد ان قيادتنا بدلاء عن الخصيان
- نعم...نسميها اي اسم اخر
- انا سأتصل برئيس كتلة المحافظ وانهي الامر
- اعرف انك لن تقصر...والان لماذا بعثت عليَّ

وقف الاستاذ والتف حول المنضدة ليجلس على كرسيه الدوار وأخذ قلما وبدأ يضرب به يده الاخرى

- اريدك ان تعرف شيئا
- ماذا
- الحرب الاهلية ...اعني الطائفية قادمة
- وماذا تسمي هذه الحرب الواقعة الان
- مجرد بروفا لما يحصل
- وما الذي سيحصل
- سيتم تفجير واحد من المراقد المقدسة
- أي مرقد
- لا اعرف لحد الان...لكنني اعرف ان دماء كثيرة ستسيل بعد ذلك، ستتكتل الطوائف داخل مناطقها وتبدأ الحرب
- ولكن ...لماذا
- شيخ ابراهيم...عندما يكون حدوث الكارثة مؤكدا وقدريا فالسؤال الاكثر جدوى هو ما الذي سنفعله .
- طيب...ما الذي سنفعله
- سنسخر الكارثة لمصلحتنا
- كيف؟
- مثل هذه الحرب تحتاج الى ابطال حتى وإن كانوا من ورق...وانت تعرف ان هذه العمامة (يشير الى عمته) افضل من

يصنع مثل هؤلاء الابطال...فالجميع يصدقها حتى من دون ان يفكر...وفي ازمة مثل هذه ستكون العقول قد اغلقت ابوابها ولم يتبق سوى شهوة الدم التي تجوب الشوارع

- وعلى ماذا ستحصل هذه العمامة بعد ان تقوم بكل ذلك
- الذي تريده...نائب في البرلمان...وزارة مع ميزانيتها المالية...وربما..
- نعم...محافظ...هذا هو المطلوب
- الشيخ يعرف جيدا من اين تُأكل الكتف
- دعنا نربي هذين الكتفين اولا (يشير الى كتفي الاستاذ) وبعد ذلك نأكل ما نريد
- بمناسبة الأكل ....دعنا نتناول الغداء معا
- اشكرك جدا ..ولكنني اريد رؤية اخي دكتور سعود...فانا لم أزره منذ اشهر...كما انني اريد ان افكر بما يحدث
- انت تعرف شيخ ابراهيم مكانك حاضر دائما
- اعرف استاذ...واراك قريبا

شعوران تنازعا شيخ ابراهيم وهو يجلس في المقعد الخلفي في سيارة الدفع الرباعي المتوجه الى بيت أخيه دكتور سعود وزوجته الروائية (منال) الذي بدأ يذيع صيتها داخل الاوساط الادبية بعد ان اطلقت روايتها الثانية (النوم مع سحلية ميتة) والتي اختلف النقاد في تقييمها فالبعض اعتبرها محاولة فاشلة في ولوج الواقعية السحرية خاصة وأماكن احداث الرواية يبدو غرائبيا ولاينتمي لهذا البلد رغم ذلك اعتبر نقاد اخرون انها واحدة من اجرأ الروايات التي مزجت تاريخ العذاب البشري بالواقع وسلطت الضوء الى قيمة الالم الصادر من ابشع عملية قام بها الانسان عبر العصور وهي (الإخصاء)، الرواية اطلقت صرخة عالية في ان عمليات إخصاء كثيرة تحدث كل يوم ليس

بالضرورة بنزع الخصيتين كما كان يحدث دائما وانما بنزع الانسانية من عقول الناس بواسطة الحروب التي اخصت الفكر الانساني عند الشعوب وحولتهم الى وحوش حقيقيين يأكل بعضهم البعض الاخر، الحصار الاقتصادي وبعده الاحتلال قاموا بكل هذه العمليات وتركوا الناس يتمنون لحظة حقيقة واحدة، لحظة جنس واحدة مع الحياة، مع الفرح بل حتى مع الله...

وقفت السيارة امام بيت صغير ذو بناء حديث وهو البيت الذي تمكن الدكتور سعود وزوجته من بناءه بعد عناء طويل رغم انه رفض كل المساعدات سواء من ابي زوجته الذي تمكن في نهاية التسعينات بالعودة الى هولندا او من امها التي تركت مستشفى الاطفال وفتحت عيادة استشارية في منطقة السعدون قبل ان تهجرها وتلتحق بزوجها قبيل دخول الامريكان الى بغداد بفترة قصيرة بعد ان تركوا ابنتهم الوحيدة بأحضان زوجها هنا في بغداد ورغم كل محاولاتهم بإقناع دكتور سعود بالذهاب الى هولندا لكنه رفض الفكرة وبطريقة جعلته يطلب من زوجته ان تتركه وتلتحق بأهلها اذا كانت ترغب بذلك لكنها ارتمت بأحضانه وقالت له انه لا شيء يمكن أن يبعدها عنه سوى الموت قبل ان تستدرك انه حتى الموت لايستطيع ذلك فهي متأكدة انها ستلتقي به في مكان في ذلك العالم العلوي، رغم حزنها ولكنها شعرت براحة كبيرة عندما عادوا الى هولندا فهي كانت ترى عذاباتهم وعدم انسجامهم مع هذا العالم الذين اقحموا انفسهم فيه ولم يكونوا على استعداد لتقبله او التعامل معه، شيخ ابراهيم لم يفهم في يوم ما كيف تفكر زوجة اخيه وكان منزعجا من شهرتها التي اخذت بالاتساع وظهورها المتكرر في البرامج الثقافية التلفازية، رغم ذلك لم يجد ضرورة من التحدث مع اخيه مادام بعيدا عن القرية ومادام اهل القرية لايعرفون شيئا عن هذه الروائية فلا احد يهتم

هناك ومن غير المتوقع ان يتابع اهل القرية البرامج الثقافية، لكن الفضول كان يدفعه على الدوام للتقرب منها ومناقشتها رغم ان الظروف لم تسمح بذلك مسبقا حتى في الزيارات القصيرة التي تقوم بها هي وزوجها الى قرية تل الخصيان ففي العادة كانت تخرج مع زوجها وتبقى لساعات طويلة في بيت حجية سريوه او للتجول في القرية بعد ان ترتدي عباءة الرأس السوداء التي تحولها الى احدى نساء القرية، لكن الان الوقت مناسب لاكتشاف هذا العالم فهو سيبقى عندهم ليومين وخلال هذين اليومين لابد ان يتكلم معها بعدة قضايا ويفهم بماذا يفكر رأس هذه المرأة، ربما لأنه حاول اكثر من مرة قراءة روايتها لكنه وجد نفسه غير قادر على الاستمرار في قراءة هذا النوع من الادب...

وقف بالباب قليلا وهو يحاول ان يلم ما تناثر منه من افكار بالرغم من ان الحرب الطائفية القادمة احتلت جزء كبير من تفكيره ولكنه حاول ان يؤجل التفكير فيها الى وقت لاحق، طرق الباب ففتح له ابن اخيه نوار وهو لم يتجاوز الخامسة عشر بعد، شاب تبدو عليه ملامح الادب وكان قد زار اكثر من مرة مع ابيه قرية تل الخصيان وهناك تعرف على عمه وهذا جعله يصرخ حينما رآه امامه

- عمو ابراهيم

عندها جاء صوت امه من الداخل متسائلا عن من في الباب فأجابها

- هذا عمو ابراهيم ماما

وهذا جعل سعود يترك الكتاب الذي بين يديه ويهرع لاستقبال اخيه، لم يكن شيخ ابراهيم يزور اخيه كثيرا حتى عندما يحضر

الى بغداد لمقابلة واحد من قيادات الحزب وتلقي الاوامر منه لكن رغبته في التحدث مع زوجة اخيه هو الذي حمله على القدوم هذه المرة وهذا حصل بعد ساعات من دخوله الى البيت عندما ذهب سعود الى السوق لجلب بعض المستلزمات وصعد نوار الى غرفته وهذا جعل الشيخ ابراهيم يلتفت الى منال ويسألها

- كيف تسير الامور هنا
- مثلما ترى شيخ ابراهيم...
- الامور سيئة
- نعم...ولكن ممكن اسألك سؤال
- اسأل
- ارجو فقط ان لاتفهميني بشكل خاطئ
- لا...طبعا...اسأل ما تشاء
- اريد ان اتأكد فقط من انك وأخي تؤمنون بالله
- وانت هل تؤمن به
- (يبتسم)...وهل هناك شك في ذلك
- اعني انت تؤمن بأي شيء
- بالله
- وما هو الله....هل يمكن ان تصفه لي...هل يمكنك ان تقول لي اين مكانه
- الله لاتحدهُ حدود ولا يوصف ...نحن نعرفه من خلقه وليس من ذاته
- في هذه الحالة فانت لا تعبده لذاته بل تعبد ما يتجلى منه
- لا طبعا ....نعبده لذاته ما دمت اعرف انه موجود
- ولكنك لا تعرف شيئا عن هذا الوجود...ولا يمكنك ان تتصور ذاته....لا يمكنك ان تفهم طبيعة وجوده فكيف تعبد شيئا لا تعرفه

- قلت لكِ ...انا اعبده لأنه موجود وليس لأنني عاجز عن المعرفة لأنه هو من اراد لي هذا العجز
- عجيب شيخنا...الله يطلب منك شيئا انت عاجز عن فعله
- اذا كنتِ تريدين ان تقولي انه غير موجود لأننا عاجزون عن معرفة ماهيته
- لا ...وانما اريد ان اقول اننا يمكن ان نعرفه فنعبده لهذه المعرفة
- وكيف ذلك
- الله موجود فينا...هذا هو مكانه الحقيقي....وكل ما علينا ان نتلمس انفسنا لنراه
- ومن يستطيع ان يؤكد ذلك...ربما يكون الوهم فقط هو ما نشعر به
- اذا كنا صادقين مع انفسنا سيكون هو ايضا صادقا معنا...
- غريب ....امرأة لا ترتدي الحجاب تزعم انها ترى الله
- شيخنا ....ربما اول عمل عليك ان تقوم به لرؤيته ان تخلع هذه العمة....فالمعممون كل همهم الاستفادة منه وليست رؤيته

دخول سعود قطع النقاش بينهما ووضع غصة كبيرة داخل الشيخ ابراهيم الذي كان يستعد للإجابة عليها وربما بحدة اكبر مما اجابت به لكنه في نفس الوقت كان يتجنب اي نوع من النقاش مع أخيه لأنه يعرف ان الفرق في المعرفة بينهما كبيرا وانه سيحرجه لامحالة لذلك حول الموضوع وبدأ يسألهم عن دراسة نوار واذا كانوا يحتاجون شيئا بعدها لم تسنح الفرصة لهما لاستكمال النقاش لان الشيخ ابراهيم قفل عائدا الى القرية في اليوم التالي

(٢)

في نهاية التسعينات وبينما كان شيخ ابراهيم يستعد لإلقاء خطبة الجمعة وقف امامه حسوني النايل، كانوا يدلعونه بهذا الاسم وهو صغير حيث ان اسمه الحقيقي هو حسين النايل ولكن اسم الدلع التصق به حتى بعد ان كبر وانضم للجيش وبدأ يعيش جحيم حرب ايران كله وقبل ان يستكمل معاملة تسريحه يتم استدعائه ويزج به ضمن الجيش الذي دخل للكويت، حسوني رجل ضعيف البنية ذو وجه طويل واسنان صفراء من كثرة التدخين، يتكلم وهو يهز يده اليمنى بقوة وكأنه يمثل الكلام الذي يقوله رغم ان له وجه بشوش على الدوام او هكذا يبدو حتى في الاوقات التي تتطلب منه وجها حزينا فهو لا يتحدث الا مع ابتسامة تبرز من خلالها اسنانه الصفراء وهذا جعل الشيخ ابراهيم يعرفه منذ النظرة الاولى، سلم حسوني على الشيخ ابراهيم وسأله عن الحجي وعن سعود وعن احوالهم في هذه القرية لكن الشيخ ابراهيم لم يجبه سوى بكلمة واحدة (بخير) قبل ان يبدأ يسألهم عن اهل القرية، كان البعض قد رحل عن هذه الدنيا بينما اوضاع البعض قد تحسنت وساءت اوضاع الاخرين، كان حسوني يخبره وابتسامة عريضة ارتسمت بين شفتيه قبل ان يصمت وكأنه تذكر شيئا، فجأة ارتسمت الجدية على ملامحه على غير العادة، ربما تكون المرة الاولى والاخيرة الذي يرى فيها شخص ما حسوني وهو بهذه الملامح، انتهت الابتسامة او تحولت الى حيرة جعلت شيخ ابراهيم يسأله

- ما بك...هل هناك ما يجب ان تقوله لي

- نعم....ارجو فقط انني لا اكون مخطئا بأخبارك بالأمر
- اخبرني ارجوك...بحق النايل اخبرني
- في الحقيقة....رأيت استاذ ناظم واختك سليمة (قالها بتردد وارتباك وبيد ثابتة هذه المرة)

تغيرت ملامح الشيخ ابراهيم وبدأت اسنانه تصطك وكأنه يعض شيئا ما، بدى جديا ومخيفا وهذا جعل حسوني يبتعد عنه لخطوة الى الخلف

- اين...ومتى
- في الكويت ...كان الجيش قد نصب سيطرة في احدى شوارع العبدلي وكانت نوبة حراستي عندما مرت سيارة من نوع (كابريس) امريكي وعندما نظرت الى داخلها رأيت الاستاذ ناظم وهو يرتدي دشداشة بيضاء وتجلس بقربه سليمة، كانت جميلة بثوب هاشمي مزخرف بنقوش عديدة وفي المقعد الخلفي يجلس ابنائهما، اصبح لها بنتان وولد، قال لي استاذ ناظم بعد ان تذكرني بصعوبة انهم يعيشون في الكويت منذ نهاية السبعينات، وانهم يعيشون حياة رائعة لولا اشتياق سليمة لرؤيتكم
- هل تعرف عنوانها في الكويت
- اعرف انهم يسكنون في العبدلي ولكنني لم اطلب منهم العنوان حينذاك...احسست انه لا يحق لي ذلك
- ولماذا تخبرني الان
- بصراحة سمعتهم يتحدثون عنك في جامع الولاية...عن جرأتك في قول الحق واحببت ان اؤجر بعملي هذا فربما تعود الماء لمجاريها ويلتقي الاخوة بعد كل هذا العمر
- نعم...من ناحية نلتقي ...سنلتقي بالتأكيد ...الان اذهب مع المصلين فقد حان وقت الصلاة

لم يستطع شيخ ابراهيم ان ينام تلك الليلة وفي الصباح الباكر مر على كل معارفه في القرية وسألهم ان كانوا يعرفون شخصا ما يعيش في الكويت ولكن بلا جدوى وبعدها ذهب الى الولاية وقابل بعض الشيوخ هناك وسألهم نفس السؤال لكن العلاقات بين الكويت والعراق حينها كانت مقطوعة تماما، والتواصل بين الشعبين كان مستحيلا حتى مع وجود صلات قرابة كثيرة بينهما لكن ما حدث بعد دخول الجيش العراقي احدث شرخا هائلا ليس من السهولة ان يندمل كما ان ما عاشه العراقيون من عقوبات اقتصادية استهدفت الطبقة الفقيرة بالدرجة الاساس الهبت مشاعر الحقد على كل من ساهم في هذه المأساة والتي حولت العراقيين الى ذئاب جائعة تلتهم نفسها كل يوم، رغم ذلك فان شيخ ابراهيم وجد ضالته عند معارف احد الشيوخ والذي عاش فترة طويلة في الاردن وله صديق اردني يعمل في النقل البري بين الاردن والكويت ويزور الكويت بشكل شهري تقريبا، اخذ الشيخ ابراهيم العنوان ووضع في كيس بلاستك كل المبلغ الذي استطاع ان يجمعه خلال السنوات ومعه مبلغ لابأس به طلبه من ابيه، شد الكيس على بطنه وغطاه بالملابس وغادر الى الاردن، لم يخبر احدا بالأمر وكل الذي قاله ان لديه عمل هناك ...

كانت اوضاع الفلاحين في سنوات الحصار الاقتصادي تختلف عن اوضاع باقي الناس نتيجة الدعم الحكومي وارتفاع اسعار الفواكة والخضروات وحاجة الناس المستمرة لما تنتجه الارض ولأن ما يخرج من بين ايادي الفلاحين يمثل وحده قوت الشعب بينما تضاءلت كمية المستورد الى الحد الذي ارتفعت معه اسعار الخضار والفواكة بشكل جنوني وربما لأول مرة تصبح اوضاع الفلاحين المادية اكثر من رائعة مقارنة بأوضاع الموظفين مثلا والذين وصلت معاناتهم حدود لا تطاق ولهذا لم يعانِ شيخ

ابراهيم من الحصول على المبلغ الذي يكفي رحلته هذه حتى وهو لا يعلم الا اين تقوده هذه الرحلة او الى كم ستسمر لكن شيئا واحدا كان يدور في رأسه وهو انه لن يعود من دون سليمة وفي اسوأ الحالات يعود مع جزء منها يكون شاهدا على قتلها، ربما اصبعا وفي الاغلب الاصبع الذي تضع فيه حلقة الزواج كما جرت العادة لكنه واجه مشكلة حقيقية عندما لم يجد الشخص الذي من المفروض ان يعرّفه على هذا الرجل الاردني الذي يعمل في النقل البري بين الاردن والكويت، علم من جيرانه ان ومنذ شهر حصل على لجوء الى كندا ورحل من الاردن وهذا جعله يسير في شوارع عمان من دون ان يعلم الى اين يتجه لكن حلمه في ان يرى سليمة ويقتلها بيديه كانت اكبر كثيرا من تجعله يتراجع ويعود الى العراق لذلك قرر ان يبقى هناك لعله يجد منفذا للدخول الى الكويت او ارسال من يمكن الاعتماد عليه للوصول الى سليمة وهذا جعله يؤجر غرفة صغيرة ويبدأ يرتاد مقهى صغير يتجمع فيه عدد من العراقيين، كل شيء في هذا المقهى كان عراقيا ابتداءً من الرواد وانتهاء بطعم الشاي ابو الهيل الذي يقدمه النادل الذي يضع سدريه بيضاء تغطي بطنه ووركه وتصل حتى ركبتيه، كان يجلس طوال النهار وهو يراقب الرواد والشارع وهذا اثار فضول محمد النوالي الذي اقترب منه وسأله بهدوء

- عراقي
- نعم
- هل تحب ان تنضم الينا
- طبعا
- تفضل

على المنضدة التي تلاصق الواجهة الخارجية للمقهى والتي تتيح للجالسين حولها مراقبة الشارع والمارة يجلس ثلاثة شباب لم

تتجاوز اعمارهم الثلاثين من العمر فعلى الجانب الايمن من المنضدة يجلس حمدان اللايذ وهو شاب اسمر ضعيف البنية ذو اسنان صفراء فمه لا يخلو من سيكارة وله قدرة على شد الانتباه عندما يتكلم اما في الجانب الايسر فجلس محمد كامل وهو شاب ابيض البشرة تعلو سحنته وشعره شقرة خفيفة يتكلم بشكل سريع وغالبا ما يبلع جزء من الكلمات اثناء حديثه وهذا يجعل حديثه غير مفهوم في اجزاء منه اما في الوسط فيجلس جواد النايل وهو شاب اسمر ضخم الجثة يتكلم بهدوء وروية، يمتلك ثقافة كبيرة، يكتب الشعر وله ديوان استطاع طباعته في نهاية الثمانينات كما انه الان مشغول بكتابة رواية حول احداث الكويت وما حصل في تلك الفترة رغم انه لم يستطع الحد من تأثير اللغة الشعرية على اسلوب الكتابة في روايته وهذا يجعل محمد النوالي ينتقد على الدوام اسلوبه في كتابة الرواية ويدعوه من التخلص من اللغة الشعرية اثناء الكتابة لكن جواد كان شاعرا فقط وهو لم يستطع ان يدرك ذلك رغم ان الجميع اخبروه بذلك، كان عنيدا وعناده هذا قاده الى كتابة مطولة لغوية كانت مزيج من الشعر والسرد والانثيالات التي افقدت روايته الحبكة المطلوبة وحولت ذكرياته الى تهويمات ومبالغات لغوية يصعب الاستمرار في قراءتها او استيعاب الاحداث والمواقف من خلالها حيث كان هو احد الجنود الذين دخلوا الكويت منذ اليوم الاول والذين ضاعوا في الصحراء ودخلوا البصرة بأقدام متورمة وبساطيل معلقة على رقابهم، الجنود الذين تذوقوا الطعم الحقيقي للذل والهزيمة، احضر محمد كرسين اخرين وعرّف الشباب الثلاثة على شيخ ابراهيم وهذا جعلهم يرحبون به قبل ان يسأله جواد النايل

- هجرة او عمل
- لا هذا ولا ذاك

- اذا انت هارب من الجحيم
- لا ...جئت ابحث عن شخص ما
- هنا في الاردن
- لا ...في الكويت
- في الكويت...(صرخ الجميع)
- جئت لأقابل رجل اردني يستطيع ان يُوصل رسالتي لمن هو هناك....لكنني لم اعثر عليه
- وهل ستعود الى العراق
- لا...سأبحث عن طريقة اخرى
- عندي طريقة....قال (محمد كامل)
- كيف
- الحزب...هو من سيوصلك الى هناك
- أي حزب
- سأعرّفك على واحد من اتباعه ...انضم الى هذا الحزب وهو سيقوم باللازم

لم يوافق الثلاثة الاخرون وبدوا منزعجين من مقترح محمد وهذا جعل الشيخ ابراهيم يسألهم

- وانتم هل تنضمون الى هذا الحزب
- ابتسم الجميع...بينما اجابه حمدان اللايذ
- لو كنا اعضاء في هذا الحزب لم يكن هذا هو حالنا
- هل هناك شيء سيء فيه
- بالنسبة اليك ..لا...انت خذ منهم ما تريد واتركهم بعد ذلك
- وانتم
- نحن نكره الاحزاب...لم نكن نهرب من العراق من وراء الحزب لننضم الى حزب اخر هنا في الاردن
- حسنا ...اذا عرفوني على الشخص المطلوب

- ولكن ...ليس من دون مقابل
- كم تريدون
- نريد غداء بمطعم جيد
- وبطلان ويسكي
- وخمسة بيرة

ابتسم وهو يجيبهم

- هل تعرفون ماذا كنت اعمل في العراق
- ماذا تعمل
- شيخ ...كنت شيخ معمم

عندها صمت الجميع قبل ان تعلو شفاههم ابتسامة خفيفة ويصرخ محمد النايل

- (خره بحظي)

عندها انفجر الجميع بالضحك عدا شيخ ابراهيم الذي بدى محرجا لكنه سرعان ما بدأ يضحك فتعلو اصواتهم حتى ينتبه اليهم كل من في المقهى...

لم يكن شيخ ابراهيم ليضيّع حلا ممكنا مثلا لهذا دعاهم الى الغداء في مطعم محترم ومنحهم المال لشراء ما طلبوه من مشروبات مع المزة والكرزات والفواكة قبل ان يطلب منه محمد النايل الذهاب معه لمقابلة الشخص المطلوب في احدى المقاهي التي كانت هي مكان تجمع يقضي فيه المنضوين تحت راية الحزب معظم اوقاتهم وغالبا ما تدور فيه نقاشات وجدالات حول اوضاع العراق السياسية والاقتصادية لكن ومنذ فترة قصيرة اصبح هناك توجه وبأوامر مباشرة من الاستاذ الذي يعيش مع عائلته في لندن على استقطاب المتدينين وشيوخ الدين بالرغم من الطابع العلماني للحزب، وهذا ما لم يستوعبه الكثير من الاعضاء ذو التوجه المدني او الذي يملكون خلفيات شيوعية وكانت هذه المقهى هي

الارض الخصبة لمثل هذه الحوارات فأغلب هؤلاء كانوا يدعون لدولة علمانية تقترب كثيرا من الدولة القومية ولكن ليس بالشكل البعثي وانما بشكل منفتح على العالم، الطابع العروبي لهذا الحزب هو الذي جعل الاردن تفتح ابوابها له وتمنح مساحة كبيرة من التحرك والفاعلية وهذا العامل نفسه جعل حكومة الديكتاتور تتجاهل تواجده وتركز على محاربة الاحزاب ذات التوجه الديني التي تعيش في ايران وسوريا لكن الاستاذ ادرك مبكرا ان تغيير الديكتاتور سيفتح الباب واسعا لدخول الاسلام السياسي خاصة وان معظم افراد الشعب العراقي هم من الحالمين بوجود تمثيل سياسي لطوائفهم لهذا طلب من اعضائه استقطاب رجال الدين ومن كل الطوائف ليجد له مكانا داخل هذه العاصفة الدينية السياسية التي ستهب على العراق خاصة والاخبار تتوارد ان الامريكان عاقدوا العزم على ازاحة الديكتاتور وخلال فترة قصيرة، هذا منح شيخ ابراهيم مكانة مميزة داخل الحزب خاصة وهو سيكون الباب الذي سيجعل الكثير من المعميين ينظمون الى الحزب بعد سقوط الديكتاتور، لم تمض فترة طويلة قبل ان يتعرف الشيخ ابراهيم على معظم الاعضاء وينال احترامهم خاصة وهو يتصرف بالطريقة المعتادة لرجال الدين من افتعال الهدوء ومنح البركة والدعاء للأخرين وهذا ازعج الكثير من الاعضاء لكن الاهتمام الكبير الذي منحه له الاستاذ خلال زيارته لمقر الحزب والذي جعل منه قياديا مقربا له ومنحه صلاحيات واسعة في استقطاب رجال الدين في الاردن وحتى في العراق جعلت الاخرين يمنحونه الاحترام اللازم رغم عدم محبتهم له حتى ان الحزب منحهُ مكتب صغير لايبعد كثيرا عن مكتب المقرر العام للحزب في الاردن الاستاذ عبد النور وهو رجل في نهاية الخمسينيات من العمر ذو كرش كبير رغم سحنته البيضاء

التي تعلوها شقرة خفيفة، كان ذكيا ومتمرسا في العمل الحزبي منذ ان كان شيوعيا وقبل ان يهرب من العراق ويلتقي بالأستاذ في لندن ويساعده في إنشاء الحزب قبل ان يطلب منه الاستاذ فتح مكتب في الاردن واستقطاب العراقيين هناك وفي غالبيتهم كانوا من المثقفين من اصحاب التوجه العلماني وبعضهم كانوا شيوعيون قدماء وجدوا لهم بديلا ممكنا في هذا الحزب خاصة وان الاستاذ كان مدعوما وبشكل مباشر من امريكا وكانت تمنحه كل الدعم الذي تجعل اعضاء الحزب يعيشون حياة جيدة وهم يستلمون منح مادية جيدة، الاحداث المتسارعة جعلت شيخ ابراهيم ينسى سليمة مؤقتا بالرغم من انه كان يعرف ان هناك مكتبا للحزب في الكويت وداخل هذا المكتب اذاعة تبث برامج مباشرة تندد بالنظام الديكتاتوري في العراق وتحرض الناس على الثورة ضده، رغم ذاك فكان ينتظر الوقت المناسب الذي يجعل علاقته بالأستاذ عبد النور تتوطد بحيث يمكنه الطلب منه الذهاب الى ذلك المقر ولكن الاستاذ عبد النور طلب منه العودة الى العراق والبدء باستقطاب شيوخ الدين سواء في المحافظة التي ينتمي اليها بل وحتى في بغداد وهذا جعل الشيخ ابراهيم يطلب منه الذهاب الى الكويت قبل رجوعه الى العراق، قال له ان له اختا تعيش في الكويت وان اخبارها انقطعت منذ الغزو وانه يريد العثور عليها من اجل ابيه الذي يتمنى رؤيتها مرة اخرى قبل ان يموت، لم يوافق الاستاذ عبد النور ذهابه الى الكويت وقال له انه هو سيحل المسألة فطلب منه الشيخ ابراهيم ان يبقى في الاردن حتى ذلك الوقت مبررا ذلك هو انه لن يستطيع رؤية ابيه مرة اخرى من دون خبر عن اخته، وافق استاذ عبد النور وطلب منه كل المعلومات التي يعرفها عن اخته وزوجها ومكان سكنهما في الكويت...

مر اسبوعان وشيخ ابراهيم يعيش على صفيح ساخن بانتظار خبر عن سليمة إلا ان استدعاء الاستاذ عبد النور واخبره ان الحكومة الكويتية طردت عائلة سليمة من الكويت من عام ١٩٩١ وانهم عادوا الى العراق، اخبرهم الجيران هناك انهم يعيشون في بغداد في منطقة بغداد الجديدة وانهم يراسلونهم بين فترة واخرى، سلم الاستاذ عبد النور العنوان الى الشيخ ابراهيم وطلب منه الاستعداد للعودة الى العراق

(٣)

كان من المفترض على شيخ ابراهيم ان يتناسى سليمة ويفكر بمستقبله الجديد مع حزب الاستاذ والذي استطاع ان يحصل على مكانة مهمة داخله خاصة وهم يكلفونه بالمهمة التي ستشكل فرقا كبيرا للحزب بعد سقوط الصنم لكن كل هذا لم يمنعه من التفكير بالانتقام من سليمة وزوجها استاذ ناظم، كان يدرك ان حياته توقفت هناك في تلك القرية البعيدة وفي ذلك اليوم الذي اكتشف ان اخته هربت مع حبيبها الى مكان مجهول، الان عنوانها بين يديه وبيتها يقف امامه مثل خراب هائل، بيت قديم البناء يحوي على غرفتين في الاسفل وغرفة في الاعلى استخدمتها سليمة كمطبخ يطل على مساحة صغيرة كانت تخطط ان تصنع منها حديقة جميلة تملؤها الورود والحشائش لكن كسل ومشاغل استاذ ناظم كان يؤجل هذا الحلم على الدوام رغم انها خططت لكل شيء وهي تقف تغسل الصحون فيصبح المكان مفتوحا امامهما بالكامل، ظل شيخ ابراهيم يراقب البيت لأيام، كان يريد ان يجد الوقت المناسب لاصطياد الاثنين بعيدا عن اولادهما لكن هذا الامر بدى مستحيلا وهؤلاء الاولاد لا يفارقون البيت كلهم وفي نفس الوقت وهذا جعل شيخ ابراهيم يتمهل قليلا، كان اكثر ما يشغله هو ماذا ستكون ردة فعل اهل واقارب استاذ ناظم كما انه يعرف تماما ان القانون لن يحاسبه في حالة قتل اخته سليمة لكن قتل استاذ ناظم شيء اخر وقد يدمر هذا حياته بالكامل خاصة وهو مقبل على حياة اخرى مع حزب الاستاذ.....

كانت الساعة الواحدة من ظهيرة تموز والتي تعدت فيها درجة الحرارة الخامسة والاربعين عندما وقفت سيارة الشيخ ابراهيم بالقرب من السياج الخارجي الواطئ البناء لبيت سليمة، على

مسافة من السيارة هناك بعض الاولاد يلعبون (الدعابل) وهم يحاولون استغلال ظل جدران البيوت الذي لا يمنحهم فسحة واسعة للعب رغم صراخهم لكن شيخ ابراهيم لم يهتم لوجودهم فهو يعرف لا شيء سيدينه لا القانون ولا الاعراف والتقاليد ولا حتى الدين لهذا بدى واثقا من نفسه بعد ان خلع جبته وعمته ولبس بدلا عنهما بنطال جينز وقميص نصف ردن ووقف بالقرب من باب السيارة ينتظر خروج سليمة التي لم تتأخر كثيرا فلقد انتهت لتوها من تناول الغداء الذي كان يحتوي على اسماك الزوري برفقة اللبن والخضروات، للحظة وقعت عيناه على سليمة، كانت قد كبرت كثيرا لكنها ما زالت تبدو جميلة ومفعمة بالحياة وتتحرك بقوة ونشاط، اتجهت نحو السلم الذي يقودها للطابق الثاني باتجاه المطبخ رغم ان يديها وفمها يحملان رائحة السمك، حالما التفتت لتصعد السلم قفز الشيخ ابراهيم الحائط الخارجي للبيت ووقف عند العتبة الاولى للسلم وصرخ بأعلى صوته

- سليمة

التفتت اليه، نظرت اليه بدهشة لكنها ابتسمت ابتسامة خفيفة وقالت

- اخي ابراهيم

عندها اخرج مسدس من مؤخرته واطلق رصاصتين نحوها وبسرعة كبيرة اصابت احدى الرصاصات بطنها والاخرى صدرها، فسقطت وتدفق الدم بقوة على السلم عندها صعد ووقف فوقها، نظر الى وجهها وفمها الذي كان يبحث عن الهواء من دون جدوى قبل ان يهدأ كل شيء فيها عندها أنتبه الى بنصرها التي تزينه حلقة زواج ذهبية، اخرج سكينة من جيبه وسحب يديها بقوة ثم جر بنصرها وقطعه من الجذر ليلفه بكيس صغير

ويضعه بجيبه قبل ان ينزل السلم ويعبر الجدار الخارجي ويصعد السيارة عندها انتبه الى الاولاد الصغار الذين تركوا اللعب ووقفوا ليشاهدوا الحادثة بالكامل، نظر اليهم بحدة فهربوا الى بيوتهم وقبل ان يدير محرك السيارة اخرج الاصبع وكأنه يريد ان يتأكد انه اكمل العملية على أتم وجه، كانت رائحة السمك ما تزال عالقة بالأصبع، بدت نفاذة وقوية بشكل واضح وهذا جعله يلفه بالكيس مرة اخرى ويدسه بجيبه ويدير محرك السيارة ويتوجه مباشرة الى تل الخصيان...

عندما وصل الى هناك كان ابوه قد انتهى للتو من إرواء المزروعات وازالة الحشائش المضرة، دشداشته البيضاء كانت مبلله وتلتصق بها من الخلف بعض الاوراق والحشائش، وقف شيخ ابراهيم وفي اللحظة التي نظر فيها ابوه الى عينيه ادرك ان هناك شيئا مهما يريد ان يخبره اياه، عندها سأله

- ابراهيم ...ماذا هناك

اخرج الشيخ الكيس الصغير وفتحه بهدوء قبل ان يخرج اصبع سليمة ويضعها بين يدي ابيه، جحضت عينا الاب وهو يرى اصبع مقطوعا ملطخا بالدم ورائحة السمك ما زالت تفوح منه بشكل واضح تتوسطه حلقة من الذهب عيار ٢٤ مازالت تعكس الضوء فتصدر منها لمعة خفيفة، رفع الاب رأسه وسأل شيخ ابراهيم

- ما هذا
- عارنا ابي
- عثرت على سليمة
- نعم
- وقتلتها
- نعم

عندها اقترب منه، نظر في عينيه قبل يلطمه بقوة على وجهه ويصرخ

- لماذا لم تخبرني...من طلب منك ان تقتلها

مسح الشيخ ابراهيم الدم واللعاب اللذان خرجا من فمه نتيجة اللطمة وقال له

- لم يكن هناك وقت...وكنت اخاف ان تضعف امامها

- اضعف...كنت اتمنى ان اراها فقط...كل يوم اتذكر وجهها...حركتها في البيت وكنت اسلي نفسي انها ما زالت تعيش في مكان ما وانني لابد ان ارها في يوم ما...هل انجبت اطفالا

- نعم...

- رأيتهم

- نعم

- آه...هل يمكن ان تكون انت ابني الذي خرج من صلبي، ألم ترأف لحال اطفالها

- ابي...هي لم ترأف لحالنا...جعلتنا نهجر بيتنا وقريتنا

- ولكننا وجدنا حلا...وعشنا...ونسينا العار

- لكنني لم أنسَ...الان فقط استطيع ان انسى

- بقى سؤال واحد...واغرب عن وجهي لأنني لا اريد ان اراك بعد الان

- ابي

- سؤال واحد...سأكون حريصا على ان تقف امامه في يوم ما

- ما هو

- ماذا ستقول لأبنائها عندما يسألونك....لماذا قتلت امنا يا خال

صمت شيخ ابراهيم وحاول ان يبعد عينيه عن عيني ابيه قبل ان يستدرك الاب

- الان ...اذهب...وإياك ان ارى وجهك القذر مرة اخرى

يلتفت شيخ ابراهيم قبل ان يصيح عليه الاب فيلتفت فيدفع اليه الاصبع وهو يقول له

- خذ دليلك معك...ربما تحتاجه في يوم ما ...الان اذهب

لم ينم الاطفال الذين كانوا يلعبون الدعابل تلك الليلة كما لم ينم استاذ ناظم وانتظر ان يستلم الجثة من الطب العدلي اما ابناء سليمة فناموا بطريقة هي اقرب الى فقدان الوعي رغم ان الجميع بقى متسمرا في مكانه يحاول ان يستوعب ما حصل، خرج الاب الى النهر وخلع ملابسه تاركا لباس طويل ابيض يغطي عورته ورمى بنفسه الى النهر، كان الماء جارفا وهو لم يحاول سوى تحريك قدميه بشكل تجعله يطوف على سطح الماء رغم ان النهر كان يحاول ان يسحبه الى الداخل بين الحين والاخر قبل ان يتمسك بشجيرة صغيرة على الجرف ويخرج مبللا بالكامل وهذا جعله يقف يراقب الاشجار وكأنه يريد ان يتطهر من هذا العالم السيء قبل ان يصرخ بأعلى صوته

- بويه سليمه

ويسقط على الارض ليجهش ببكاء حار عندها يقفز احد اطفال الدعابل من فراشه بعد كابوس كان اعادة سيئة للحادثة فكل شيء كان مشوه والمسدس كان موجها نحوه، طفل اخر بقى عمرا طويلا لا يأكل السمك بعد ان سمع ان سليمة كانت تتناول السمك قبل ان تموت وانها اخذت الرائحة معها الى القبر اما استاذ ناظم فبقى لا يكلم احدا بعد ان ارتدى دشداشة سوداء طوال الايام الثلاثة للعزاء التي اقامها بالقرب من بيته، كان يكتفي باستقبال وتوديع المعزين والجلوس وهو يراقب الناس قبل ان ينفجر ببكاء حار رغم ان اصدقائه توسلوا به ان يتماسك من اجل ابناءه لكن الامر كان فوق قدرته حقا فهو لم يتصور في يوم ما انه سيعيش بعيدا عن سليمة، رغم كل هذا فشيخ ابراهيم نسى كل شيء وبدأ

يفكر بمهمته التي كلفها به الحزب بالاتصال ببعض الشيوخ والمتدينين وتقوية الاواصر معهما وايصال مساعدات مادية وعينية لهم، في الحقيقة هذه المساعدات فعلت فعلها فبالرغم من ان الجميع كان متأكدا ان هناك دوافع اخرى غير ما يقوله شيخ ابراهيم ان هناك منظمات خيرية هي من تبعث هذه المساعدات لكنهم تقبلوها بسعادة كبيرة وكانوا على استعداد لفعل الكثير من اجل استمرارها بالرغم من ان معظم هؤلاء كانوا يعيشون حياة مادية معقولة مقارنة بما يعيشه الاخرون من اصحاب الطبقة الوسطى في العراق خاصة بعد الحملة الايمانية للسيد الرئيس والتي جعلت من هؤلاء الشيوخ يتسيدون المشهد ويتحركون مع البعثيين لاصطياد العاهرات والسكارى، وهذا هو من جعل شيخ ابراهيم يتردد من مصارحتهم بانتمائهم لحزب الاستاذ وتركهم حزب السيد الرئيس كما ان الامور لم تكن بهذه السهولة فالخوف كان يعشعش في قلوب الجميع ومن الصعب تجاوزه حتى مع المعلومات التي وصلت الى شيخ ابراهيم ان ايام الرئيس معدودة وان الامريكان قرروا ازاحته عن الكرسي....

الاستاذ ذو التوجهات العلمانية والانتماء الامريكي كان يعتقد بما لا يقبل الشك انه هو البديل الوحيد للرئيس منتهي الصلاحية لكن اصدقائه الامريكان اخبروه ان كرسي العراق سيكون من حصة الاحزاب الاسلامية وهذا لم يفهمه في البداية لكنه تأكد بعد ذلك ان العراق مقبل على ايام سوداء مصدرها هذه الاحزاب التي ستعمل على تقسيم المجتمع العراقي على أسس طائفية وعقائدية وهذا سينخر المجتمع العراقي ويحوله الى قطعان من الذئاب المفترسة يطارد بعضها البعض الاخر لهذا عمل سريعا على نزع بدلة العلمانية وارتداء جبة الاسلام السياسي وبدأ بالبحث عن مشايخ دين يتحركون لصنع قاعدة له في الداخل العراقي مع

إدراكه انه لن يستطيع منافسة الاحزاب الاسلامية التي لها تاريخ معروف لكن كان عليه ان يفعل شيئا قبل ان يجد نفسه خارج اللعبة بالكامل وهذا جعل المشايخ القلة الذي تم تجنيدهم لصالح الحزب ومنهم شيخ ابراهيم يحضون بمكانة مميزة عنده اما شيخ ابراهيم فكان يقوم بعمل رائع في استقطاب المشايخ والمتدينين على صعيد الولاية والمحافظة قبل ان يطلب منه الحزب التحرك على المحافظات القريبة ومع اقتراب الهجوم الامريكي على العراق كان شيخ ابراهيم قد شكل خلية لها مكان للتجمع ولها اتصال مع الحزب عن طريق الهواتف النقالة التي كانت موجودة فقط عند الحكومة العراقية وبعض الجهات العاملة في العراق، كان كل شيء معدا والجميع ينتظر دخول الامريكان وازالة الصنم لتبدأ مرحلة خراب اخرى لهذا البلد، وبالفعل دخل الامريكان وتحول الشيخ ابراهيم الى العمل داخل المنطقة الخضراء من خلال مكتب الاستاذ خاصة بعد ان اصبح رئيسا للجمهورية ايام مجلس الحكم وبعد دورات مكثفة في العمل السياسي والاستخباراتي استطاع من خلالها شيخ ابراهيم ان يقترب من اللعبة السياسية الى حدود معقولة مكنتهُ بعد ذلك من العمل في الجامع الكبير التابع للمحافظة، وبالرغم من ان المحافظة لا تبعد سوى عشرات الكيلومترات عن القرية الا انه لم يجرؤ على زيارتها وكان يفضل زيارة اخيه سعود بعد ان استقر في بغداد وحصل على شهادة الدكتوراه في علم الاجتماع وانجبت زوجته التي كان يطلق عليها لقب (الهولندية) بصبي جميل، الغريب في هذا الصبي انه كان كثير الشبه بعمته سليمة وقد لاحظ ابوه هذا الشبه من سنوات عمره الاولى لكنه اصبح نسخة طبق الاصل عنها عندما دخل الى الابتدائية والغريب ان طريقته بالكلام كانت تشبه طريقتها بالضبط حتى نشاطها وحركتها وفمها

الضاحك وبراءتها الواضحة على سحنتها كلها انتقلت لنوار وكان هذا مصدر سعادة لأبيه ومصدر وجع لعمه الذي كان يشيح بوجهه متجنبا اي اصطدام بالنظرات بينه وبين نوار، سعود لم يعرف بموت سليمه ولم يفهم اسباب القطيعة بين ابيه وشيخ ابراهيم رغم انه سأل اكثر من مرة ولكن بلا جدوى اما زوجته منال فكانت تكره الشيخ ابراهيم كثيرا وتعتبره منافقا كبيرا يستخدم الدين لمصالحه الشخصية ولخداع الناس رغم ان الرؤية لم تتضح عند سعود فهو يترجى الكثير من الخير في هذا العراق الجديد، ذكرى سليمة لم تشكل وجعا ما عند سعود بل سيل من الشوق العارم والرجاء لرؤيتها مرة اخرى حتى انه كان يتخيل ذلك اللقاء الافتراضي وماذا سيحصل فيه، يتخيل انه سيرتمي بأحضانها من دون ان يتكلم ويعيد لروحه رائحة الام الذي كان يشعر بها وهو صغير وربما تكون اكثر شيء افتقده طوال سنوات عمره وضل يبحث عنه بلا جدوى حتى حضن منال لم يمنحه ذلك الدفأ والحنان التي كان يشع من سليمة وهو يرتمي بين احضانها، كان يحاول احيانا ان يسأل شيخ ابراهيم عنها ولكنه كان يتجنب ذلك لكي لا يعيد مرارة الوجع التي كانت واضحة عليه حينذاك حتى انه كان يفهم ان هذا الوجع لم يستطع الزمن انتشاله بالرغم من انه لم يفهم ذلك فسليمة بالنهاية اختارت حياتها حتى اذا كانت بالطريقة الخطأ ولكنها حياتها وهذا يجعلهُ ينساها لفترات طويلة قبل ان تدفعه رؤية ما او موقف لتذكرها مرة اخرى عكس شيخ ابراهيم الذي كان يشعر بعارها كل دقيقة حتى ان شخصيته بدأت تتشكل مع هذا العار فهو لايثق نهائيا بالمرأة ويعتبرها مشروع خيانة محتمل على الدوام لكن الوضع يختلف قليلا مع زوجته فهو يعرف انها لاتغادر البيت كما انها من النوع الذي لايمتلك الذكاء والفطنة لتجرب الخيانة حتى انها

تبدو في احيان كثيرة بلا مشاعر او بصورة ادق ليست لها رغبات كبيرة حتى عند ممارسته للجنس معها فلم تكن شهوانية جدا ونادرا ما شعر انها تحاول الوصول الى حدود الشبق الجنسي، فهي تفعل ما عليها فقط، تفتح فخذيها وتترك الباقي لشيخ ابراهيم بينما تنظر هي الى شيء ما في السقف قبل ان تقفز لتنظف حيامنه التي لا تتأخر كثيرا قبل الخروج من بين فخذيها ولكن ماذا يمكن ان تفعل امرأة تمارس الجنس مع شيخ دين بالتأكيد ستكون خائفة من اي حركة زائدة ستفسر من قبله على انها رعونه او جرأة، هكذا كانت تشعر في بداية زواجها، كانت بالتأكيد تحصل على بعض اللذة ولكنها كانت خائفة من خروجها على شكل تأوهات او صراخ او حتى التمسك به ودفعه للاستمرار بمضاجعتها، كانت تسأل نفسها دائما

- ماذا سيقول عنها الشيخ حينئذ

في تلك الليلة صلى شيخ ابراهيم طويلا قبل ان يدفعها الى السرير، صلاته الطويلة منحته كل الرؤى التي تمنعها من تقبل ممارسة كهذه وكأنها لم تتقبل بين الروحانية التي منحتها هذه الصلاة والمادة التي شعرت بها وهو ينام بكل ثقله على جسدها، الشيخ ابراهيم اعجبته هذه الطريقة التي تجعله يفعل ما يريد من دون اي ردة فعل تمنحه شكا محتملا بان متزوج من امرأة شهوانية لا يمكن السيطرة عليها، ومع الوقت استطاع ان يشعر بالأمان معها حتى نوبات الشك التي كانت تراوده بين الحين والاخر زالت بالكامل وهذا منحه حرية كبيرة بالسفر وترك البيت لفترة طويلة من دون ان يسأل عنها خاصة بعد مقتل سليمة فلم يستطع ان يأخذها معه ويترك اباه في البيت وحده وفي نفس الوقت لم يستطع العودة للبيت بعد ان طرده ابوه وبطريقة قاسية

جدا، المشاغل الحزبية جعلته ينسى كل شيء ويتفرغ تماما للعمل الجديد الذي ربما سيقوده الى اماكن لم يكن يتخيلها.

(٤)

مرت سنة كاملة لم يستطع فيها الشيخ ابراهيم زيارة تل الخصيان ورؤية ابيه وزوجته وبناته الثلاثة اللواتي لا يتذكرنَ اشياء كثيرة عن ابيهن حتى قبل ان يسافر الى الاردن فهو لم يكن يحبذ وجودهن من الاساس، انتظاره للولد هو الذي جعله يسمح بانتفاخ بطن حسنة لثلاث مرات بانتظار هذا الكائن ذو السحلية الصغيرة التي تتلوى بين فخذيه ولكنه في كل مرة يفاجأ بشق صغير ذو لون وردي يجعل وجهه يتجهم قبل ان يخرج وهو يسب حظه مع حسنة التي لا تحمل بطنها سوى الاناث وهذا كان سببا اخرا لابتعاده عن حسنة وعن البيت فلم يكن هناك ما يغريه للعودة سوى الخوف من كلام الناس الذين سيقولون انه هجر زوجته وابيه وقطع صلة الرحم الذي اوصى بها الله ونبيه، وهذا دعاه ان يطلب من اخيه سعود ان يذهب معه الى تل الخصيان فهو يعرف ان اباه لن يستطيع طرده او تعزيره امام سعود الذي لا يعرف ما الذي حدث ولم تكن ثمة حاجة لذلك ما دام الزمن بدأ يمحو هذا العار الذي عشعش في قلب الشيخ لعمر كامل، وبالفعل لم يمر وقت طويل قبل ان يرافقه سعود الى القرية، كان لقاءا غريبا فالأب يبدو متعبا بطريقة غريبة والتجعدات على وجهه وعنقه بدت واضحة وحزن عميق يلمع بقوة من عينية اما حسنة فبدت غير مبالية جدا لهذا الحضور وكان سلامها على سعود اكثر حميمية من سلامها على زوجها التي ادركت منذ وقت طويل انه هجرها وللابد، بقت على ذمته من اجل بناتها الثلاثة التي لم ترد ان تغامر بهن مادامت تعيش حالة مستقرة في هذا البيت وكان الاب يعتني بها ويقدم لها كل ما تحتاجه وهذا جعلها تتقبل هذا

الوضع الغريب كونها متزوجه من زوج غائب على الدوام، حاول سعود ان يفهم ولكن الامور سارت ببطء شديد ومن دون رغبة بالكلام من الجانبين وكل ما قاله الاب لسعود قبل ان يذهب الى غرفته

- دعه يرى بناته ويرحل
- ولكن يا ابي

عندها التفت الاب اليه وقال له بجدية

- لا شيء اخر يقال....اذا يريد ان يأخذهم معه فلا بأس في ذلك ولكنني لن اتحمل وجوده في هذا البيت لفترة طويلة...اخبره بذلك الان

كان الهم الاول لشيخ ابراهيم الناس لأنه يعرف انه سيحتاجهم قريبا وبعده عن القرية قد يشكل حاجزا كبيرا بينه وبينهم لكن شيئا اخرا لم يكن بالحسبان جعله ينسى كل شيء حتى زعل ابيه فبناته الثلاثة كبرن بشكل مفاجئ وظهرت لكل واحدة لهن رمانتان واضحتان من خلف الثياب اللواتي يرتدينها بعد ان تركهن اطفال يلعبن بالشارع حتى مع معرفته ان نبيلة وهي البنت الكبرى تجاوز عمرها العشر سنوات لكنها للحظة بدت كأنها امرأة كاملة وصالحة تماما للتزاوج وهذا جعله يغلي مثل الموقد فالعمر سيتقدم الى الامام وهو سيكون بعيدا عندما تتحرك الرغبة داخلهن كما ان امر تزويجهن سيكون بيد جدهن لأنه هو المسؤول الوحيد عنهن بغيابه، تخيل للحظة ان واحدة من البنات عارية تنام تحت واحد من شباب القرية بعيدا عن انظار الناس، للحظة بدى هذا الامر واقع لامحالة فمن دون ان يعثر على طريقة يُبقي فيها البنات تحت انظاره سيكون حلول الكارثة قدريا، لا شيء يجعله يفكر بطريقة اخرى، لا شيء يمكن ان يردعهن من الارتماء في احضان الخطيئة ما دام هو بعيد عنهن كما انه لا

يعتقد ان حسنة ستكون قادرة على احتوائهن ومراقبتهن بالشكل المطلوب اما ابوه فيبدو متعبا بشكل يجعله لا يهتم كثيرا بهن ، لكن ما يراه شيخ ابراهيم لم يره الاخرون فنحن نتكلم عن ثلاثة بنات ما زلن في دور الطفولة، كل اهتمامهن ينصب على اللعب والركض بين الاشجار او مساعدة امهن في اعمال البيت، ثلاث فتيات صغيرات لا يعرفن من العالم سوى هذا البيت والمزرعة المرتبطة به، لم يدخلن الى المدرسة ولم يفكرن كثيرا بهذه الحياة فكل الامور تجري بالنسبة لهن بشكل جيد مادام الام والجد يغمروهن بحنان واهتمام كبيرين اما شيخ ابراهيم فكان يرى اجساد تحاول الاكتمال خاصة ابنته الكبرى نبيلة التي نبتت لها رمانتان في صدرها جعلت شيخ ابراهيم يلتف على نفسه مثل المصراع ولا يتوقف ابدا وبالرغم ان ملامح الطفولة كانت طاغية على كل من اميرة ومنتهى لكنه يدرك تماما انهن سينضجنَّ سريعا وربما بعيدا عن عينيه، حسنة استطاعت ان تقنعه وبالتجربة انه امرأة غير شهوانية، امرأة لا ترغب بالرجل بالرغم من انها تجعله يقوم بالأمر حتى النهاية ولكن من اجله فقط او من اجل الانجاب من دون اي رغبة او لذة وربما يكون هذا استثنائيا ولكنه مريحا ايضا، الامور داخل الشيخ ابراهيم تنحى دائما منحنيات حادة، قمة اليقين كما يحصل مع زوجته حسنة وقمة الشك كما حصل الان مع بناته الثلاثة بالرغم من ان التركيز كان على نبيلة بعد ان بدت نضوجها بشكل واضح لكن ايضا لم تكن هناك حلول بالنسبة اليه فهو لايستطيع البقاء بالبيت وترك عمله بالحزب الذي بدأ يكبر ويكبر هو معه ولا يستطيع اخذهن معه وترك ابيه وحده بالبيت لأنه سيتعرض حينئذ للكثير من الانتقادات من قبل مجتمع القرية الذي سيعتبر مثل هذا الوضع عقوق للوالدين كل ما فعله انه طلب من سعود التكلم مع

ابيه من اجل العيش معه في بغداد ولكن الاب رفض بشكل قاطع وقال لسعود

- قلت لك اخبر ابراهيم ان يأخذ زوجته وبناته معه...المهم ان لا أرى وجهه مرة اخرى

سعود بدى محتارا فهو رأى ان من حق اخيه ان يعيش مع زوجته وبناته وفي نفس الوقت لا يريد ان يبقى ابوه وحده في القرية كما انه لا يستطيع العودة للقرية وترك عمله في الجامعة، كانت مشكلة حقيقية ولكن الحل الممكن الوحيد ان تبقى الامور كما هي الان، لا شيء ممكن غير ذلك ولهذا طلب من شيخ ابراهيم ان يعودوا الى بغداد وهناك يفكرون بحل ممكن وبالرغم من عدم قناعة الشيخ بترك بناته اللواتي كبرن فجأة لكنه لم يجد حلا غير ذلك لهذا عادوا الى بغداد بينما كانت اسنان شيخ ابراهيم تصطك كلما تذكر صورة نبيلة ونهديها البارزين من خلف الثوب، كان متأكدا ان يدا ستمتد الى هذين النهدين قريبا وبصورة غير شرعية لهذا ذهب مباشرة بعد عودته الى صديقه الشيخ حسن وهو من اوائل الذين كسبهم للحزب بعد عودته من الاردن وبعد ان تردد قليلا قال للشيخ حسن

- هناك مثل مصري يقول (اخطب لبنتك ولاتخطبش لابنك)
- نعم
- وانا اريدك ان تتدبر لي عريس لابنتي
- موجود
- اين
- هنا...ابني جاسم فهو طلق زوجته منذ شهرين ونحن نبحث له عن عروس
- كم عمره
- اثنان وثلاثون سنة....وابنتك كم عمرها

- احدى عشر سنة
- كم؟؟؟
- احدى عشر....

تردد شيخ حسن قبل ان يلتفت اليه ويقول له

- صحيح ان الرسول تزوج من هي في سن التاسعة لكنني بصراحة احتاج من تساعد زوجتي بأعمال البيت...هذا هو كان سبب طلاق زوجته الاولى ولا اعتقد ان ابنتك ستقوم بما نريد
- لا ...طبعا...فهي لا تعرف اي شيء لحد الان
- اذا لماذا تستعجل على زواجها
- الزواج ستر للبنت وانا مثلما تدري بعيد عنهم دائما
- شيخ ابراهيم...لا تجعل الشك يأكل قلبك
- انه يأكلني بالكامل الان...لن ارتاح حتى اجد طريقة

اما اجلبهم للعيش معي او ازوجهم واتخلص من هذا الهم

- اذا ...اجلبهم للعيش معك
- وابي ...من يبقى معه....ماذا سيقولون هناك عندما نتركه وحده...انت تعرف شيخنا
- طبعا...هذا سيجعلهم لن يصدقوا اي شيء تقوله بعد ذلك ...تبقى هناك طريقة واحدة...هو ان يأتي ابوك ليعيش معكم في بغداد
- ابي...لا يكلمني اصلا فكيف يمكن ان يقبل بالعيش معي ...كما انه لن يترك القرية على اية حال
- حتى اذا دبرت لها زوجا فهل تعتقد ان اباك سيوافق
- لا اعتقد...كما انني لا استطيع معارضته....علي ان افكر بطريقة اخرى
- ربما...لو
- نعم

- لو تدفع من يراقبهم ليل نهار ويأتيك بأخبارهم يوميا
- كيف
- اترك لي الموضوع ...سيكون الحل عندك بالغد

الشيخ حسن كان داهية حقيقية وكان يذهب بعيدا في تفكيره للوصول الى حل ممكن كما هو الحال في مشكلة الشيخ ابراهيم مدفوعا برغبة التقرب من الشيخ للوصول الى مراتب متقدمة في الحزب، كان يعرف ان الاستاذ يحب الشيخ ابراهيم وكان يحاول دائما الوصول الى اقناع الشيخ انه لايستطيع التحرك والتفكير بشكل مجدي من دونه لهذا لم يكن ليترك هذه المشكلة بلا حل حتى مع عدم قناعته بالحالة من الاصل فشكوك الشيخ ابراهيم تجاه طفلة بعمر الحادية عشر يبدو غير منطقيا خاصة وهم يسكنون في قرية محصنة بالأعراف العشائرية الصارمة لكن لم يكن هناك ما يدعوه لمعارضته او لتبديد شكوكه بل الافضل له الحصول على حل يجعل الشيخ ابراهيم يقتنع بانه ليس ثمة رجل يستطيع الاقتراب من طفلته تلك، بقى الليل كله يفكر وبعد ان انهوا صلاة الفجر اخبر الشيخ ابراهيم انه توصل الى حل ينهي المشكلة كلها، وهذا جعل شيخ ابراهيم يتوجه معه الى البيت وبعد ان تناولوا الفطور المكون من قيمر العرب ومربى الرقي مع الصمون والشاي التفت شيخ حسن وقال له

- الحل هو ان تطلب من الحزب ان يعين لك بعض الحرس يرابطون امام البيت ويمكنك عندها التنسيق معهم لإخبارك بكل ما يحدث هناك
- لا ...طبعا ..ابي لن يقبل بذلك وكذلك الحزب لن يجد ضرورة لذلك
- طبعا ...لكن علينا ان نجد نحن الضرورة
- كيف....

- نرسل من يقتحم البيت ويهدد اهلك بالقتل في حال لم تترك الحزب....انت تعرف الصراع السياسي على اشده الان...وانت عضو مهم في الحزب ومن الممكن ان تكون مستهدفا بعائلتك....اعتقد ان هذا سيقنع اباك والحزب في نفس الوقت ...
- وكيف نقوم بذلك
- اعطيني العنوان الدقيق للبيت واترك الباقي علي

البيت الذي لا يبعد كثيرا عن النهر كان هادئا، النهر كذلك بالرغم من سرعة جريانه ولكنه لم يهمس للأشجار بأي كلمة، القرية كانت تنام كلها ومثلما يحدث كل يوم، تنام دون ن تفكر بشيء ومن دون ان تخشى شيئا، تنام لان هذا ما يجب ان يحصل بعد يوم متعب في زراعة الارض لكن تلك الليلة كانت مختلفة بالنسبة لبيت ابو ابراهيم ففي حوالي الساعة الرابعة ليلا تسلل اربعة شباب لم تتجاوز اعمارهم العشرينات يحملون رشاشات نص اخمس ومسدسات طارق الى داخل البيت بعد ان عبروا بسهولة البوابة الخارجية وبنفس المفتاح الذي سلمه شيخ ابراهيم للشيخ حسن والذي يفتح الباب الخشبي للبيت فتحوا الباب ودخلوا بسرعة كبيرة، احدهم ركض الى غرفة الاب بينما الثلاثة الاخرون ركضوا الى غرفة الام والبنات وقبل ان يسمحوا لاحد منهم بالصراخ وضعوا المسدسات على رؤوسهم وسحبوهم للصالة الرئيسية في البيت بعد ان وثقوا ايديهم وافواههم ورموهم على الارض وبين فترة واخرى يقترب احدهم ويضع المسدس على راس الاب موحيا له بانه يحاول ان يطلق الرصاص، لم يفهموا شيئا، كانوا فقط بانتظار موتا مؤكدا ولكن بعد حوالي ربع ساعة دخل رجل اخر يرتدي بدلة رصاصية وربطة عنق زرقاء وقف امامهم وصرخ بهم

- لماذا فعلتم بهم هكذا...الا تخافون من الله ...تربطون يدي هذا الرجل الكبير (وهو يفك وثاقه قبل ان يأمرهم بفك وثاق الجميع) وقف على رؤوسهم وقال

اسمعوا...نحن لا نريد ايذائكم ولكن ابنكم الشيخ ابراهيم ترك الله وذهب وراء الشيطان، ما شأنه هو ولعبة السياسة، هذه المرة سنترككم ولكن من دون ان يترك شيخ ابراهيم حزب الاستاذ ويقطع صلته نهائيا بهذا الحزب فالمرة الثانية سيجد جثثكم فقط...انتم تعرفون اننا سنفعل ذلك...

قربَ وجهه من وجه الاب وقال له بهدوء

اخبره ان يكون عاقلا لنكون نحن عقلاء ايضا...من دون ذلك سترون جنوننا على حقيقته

وقف واعطى امرا لاتباعه بالخروج من البيت قبل ان يبدأ شيخ الجامع بالآذان..

قبل صلاة الظهر بنصف ساعة كانت الصور التي تظهر الاب وحسنة والبنات الثلاثة وهم مقيدون ومعصوبو العينين بين يدي شيخ ابراهيم مع رسالة تبلغه انه في المرة الثانية ستكون هناك اكوام من اللحم البشري المنتشر في البيت ومن دون صور او رسالة اذا لم يقدم استقالته عن الحزب ويلغي اي ارتباط معه وهذا جعله يركض في الممر الذي يؤدي الى مكتب ابو نوار وهو يصرخ

- سيقتلون اهلي...

وضع الصور والرسالة بين يدي عبد النور الذي بقى صامتا لا يعرف ما يقول قبل ان يرفع الهاتف ويتصل بالأستاذ ويبلغه بالأمر فما كان من الاستاذ الا ان يطلب ان تتوجه قوة لحماية بيت الشيخ وتعيين حرس شخصي للشيخ يرافقه اينما يذهب عندها طلب شيخ ابراهيم ان يذهب الى القرية للاطمئنان على

الاهل والبقاء معهم بعض الوقت، عندما وصل وقف الاب امامه وبصق في وجهه وقال له

- لاتأتي من ورائك سوى المصائب
- اسف...ابي...ولكنني اعدك بان هذا لن يتكرر
- هؤلاء من سيحموننا
- نعم يا أبي ...يجب ان اطمئن عليكم
- افعل ما شئت....لكن اغرب عن وجهي فقط

استطاع ان يتفق مع واحد من الحرس بعد ان دفع اليه مبلغ جيد من المال على مراقبة زوجته حسنة والبنات وابلاغه بشكل تفصيلي عن تحركاتهم بعد ان وعده ان سيمنحه مبلغ اخر عند رأس كل شهر وهذا المبلغ سيزداد اذا ما قام بالمراقبة بالشكل المطلوب...

(٥)

شخصية الشيخ ابراهيم شخصية مركبة بطريقة خطية، اراءه بالأخرين تعتمد على عاملي الثقة المطلقة والخيانة المؤكدة هكذا ينظر الى الناس اما رأيه بالنساء فيجب ان يمر بتلك اللحظة التي اكتشف فيها اخته سليمة بعد ان هربت مع حبيبها استاذ ناظم قبل ان يقابل شكل اخر من النساء متمثلا بزوجته حسنة التي بلا مشاعر، بلا رغبات، باردة جنسيا بطريقة مقرفة وغير منطقية فربما تكون المرأة الوحيدة في العالم التي لاتعرف معنى الشبق الجنسي حتى مع حركة العضو الذكري داخل فرجها وملامسته المستمرة لبظرها البارز ولكنها تبقى جامدة مثل الحجارة من دون اي آهه او اي ردة فعل بالتالي فهذا الشكل الوحيد الذي يمكن ان يثق به اما اي شكل اخر فهو مشروع مؤكد للخيانة ومن ضمنها بناته الثلاثة التي بدأن ينضجن مع مرور الزمن ويشكلن عامل قلق كبير له بالرغم من كل الاخبار التي تصله يوميا عنهن والتي تدل على ان الامور تسير بشكل طبيعي وليس هناك ما يجب القلق منه لكنه كان متأكدا ان لحظة الخيانة قادمة لامحالة خاصة من نبيلة التي تفتحت مثل وردة ندية وبانت ملامحها الانثوية وبدأت تتحول الى امرأة كاملة، طبيعة التفكير هذه لا تختلف كثيرا في رؤيته للرجال فهو اما يثق بهم بطريقة كبيرة كما يفعل مع صديقه الشيخ حسن او يعتبرهم اعداء محتملين يمكن ان ينقضوا عليه في اي وقت وهذا جعله يتحرك بحذر وتوجس كبيرين داخل الحزب وربما تكون هذه الطبيعة واحدة من اسباب نجاحه السياسي ومن اقوى ملامح هذا النجاح هو قربه من الاستاذ واستدعاء الاستاذ له على الدوام واستشارته في اكثر

الامور سرية، بالنسبة للأستاذ فان الشيخ ابراهيم كان عامل الانقاذ الذي سيحول الشكل العلماني للحزب الى الشكل الطائفي وهو الشكل الوحيد المطلوب في الوقت الحالي خاصة بعد ان تأكد ان صراعا طائفيا سينشأ نتيجة تفجير الامامين العسكريين في سامراء لكنه لم يستطع ان يخبر احد بذلك خوفا من اتهامه في يوم ما انه واحد من المشاركين في هذه العملية فهو يعرف ان التاريخ يمكن ان يقرأ هذه المعرفة على انها فعل مؤكد وهذا جعله يتحدث مع المقربين عن حرب طائفية قادمة من دون ذكر الاسباب التي ستؤدي الى هذه الحرب ولكنه مع شيخ ابراهيم كان اكثر جرأة عندما اخبره ان مراقد لبعض أئمة الشيعة سيتم نسفها من دون ان يذكر هذه المراقد لكن الشيخ ابراهيم كان يدرك ذلك لان هذه المرقدين الشيعيين هما فقط من يقعا داخل البيت السني بالتالي فهما من يستطيعان اشعال مثل هذه الحرب لكنه ايضا كان خائفا من التصريح بذلك حتى لأقرب صديق له الشيخ حسن مع العلم ان مشكلته مع ابنته نبيلة كانت اكبر من مشكلته مع تفجير هذين المرقدين فرؤية الرجل الذي سيفجر بكارتها كانت اكثر وجعا وبشاعة بالنسبة اليه من سقوط القبب الذهبية لهذين المرقدين رغم ان الواقع سيفعل الاسوأ للجميع وليس له وهذا سيجعل القبب الذهبية تسقط وتتناثر على الارض بينما تبقى بكارة نبيلة صامدة لا يقوى احد على لمسها، المشكلة انه لا احد يريد ان يعرف من قرر ذلك فبالنسبة للكثيرين كان فض الف بكارة مثل بكارة نبيلة اهون بكثير من سقوط هذه القبب الذهبية بالرغم من ان هناك من يرى ان هذه القبب كانت بشكل او باخر بكارة المذهب وربما بكارة هذه الارض الجميلة وان افتضاضها بهذه البشاعة سيحول الارض نفسها الى جحيم لا يطاق لكن شيخ ابراهيم يرى العالم كله من بين فخذي امرأة ولكي يبقى العالم

شريفا يجب ان يظلا هذين الفخذين وما بينهما بعيدين عن ايدي الرجال الا بطريقة شرعية لان هذا سيبرر كل شيء مثل الذي حدث بعد تفجير هذين المرقدين فالناس بدأت بموجة من القتل الذي لا يميز البريء من المجرم فالكل متهم وسوء حظ اي شخص هنا ممكن ان يقوده للوقوع في مصيدة الجانب الاخر لتفظ بكارة حياته كلها برصاصة واحدة، المدينة تحولت فجأة الى افخاذ مفتوحة للموت بما انه رغبة القتل عند الرجل تجاوزت لذتها الرغبة بممارسة الجنس واطلاق رصاصة على رأس رجل من المذهب الاخر بدت اكثر متعة ولذة من ايغال عضو ذكري بين فخذي امرأة جميلة، هل كان من الممكن ان تقوم الناس هنا بحفلة جنس جماعي وكيف سيتذكر المجتمع هذه الايام بعد ذلك لأنه ببساطة استطاع ان ينسى حفلة الموت هذه مع انها بدت حينها انها من الذكريات التي لا تنسى، اعني بالنسبة للأحياء بالرغم من انني لست متأكدا ان الاموات استطاعوا نسيان ذلك، اسخف شيء في هذه العملية كلها هو محاولة تبريرها، الممكن الوحيد هنا هو نسيانها فقط وهذا ما فعله الناس ولكن بطريقة مقرفة كالرجل الذي يتعرض لحفلة اغتصاب جماعي وكل ما يستطيع ان يفعله بعد ذلك هو ان ينسى رغم ان شرجه يكون مفتوحا حينها بشكل غير طبيعي تذكره دائما بتلك الحادثة، تشبيه سخيف ومقرف ولكن الاحساس متشابه بشكل كبير ويبدو واقعيا الى حد كبير، بالنسبة للشيخ ابراهيم استطاع خلال هذه الفترة ان يتحول الى اصبع حقيقي للموت يشير للمختلف ويحرض عليه لتهجم الناس عليه وتقطعه إربا إربا، التاريخ كان اداة رائعة لطبخ الموت وتقطيع الاعضاء البشرية قبل رميها في المزابل او في النهر، لا اعرف حقا العلاقة بين المزبلة والنهر لكن اريد لكل منها ان تلعب دور المقبرة من دون اي شعور بالقرف، القرف الاول هو

داخل عمامة شيخ ابراهيم حتى وهو يفكر ببكارة ابنته نبيلة وفمه يطلق احكاما وفتاوي مسلفنة للقتل والذبح ويحول الرب الى كائن مخيف يلوك عباده بأسنانه الحادة او يرمي بهم داخل ناره الواسعة، الشيء الاكثر اثارة ان شيخ ابراهيم كان يؤمن تماما بما يقول ولكن بطريقة غريبة فهو يعرف انها لعبة الاستاذ ولكنه يجد ان قتل المختلف هنا حق مطلق حتى اذا كانت دوافعه باطل مطلق والشيخ ابراهيم كان يريد الاشياء مطلقة فقط، اعني ان تكون ببكارة او بلا بكارة رغم ان وجع المؤخرات اصاب الجميع وكان على الكل ان ينسى، فقط ينسى حتى مع مؤخرة بفتحة شرج اوسع من صحن طعام....

لكن صرخات مختلفة كانت تُطلق من اماكن اخرى لها دلالات ومعاني يكسر هذا النسيان مثلما فعل سعود عندما وقف في الطارمة الخارجية للبيت وصرخ بأعلى صوته

- يا أولاد المنيوكة

منال كانت تقف خلفه جامدة تماما فهي لم تتصور ان زوجها دكتور الاجتماع المعروف سيقول مثل هذه العبارة في يوم ما لذلك عندما التفت اليها ابتسمت بوجهه قبل ان تكبر هذه الابتسامة وتتحول الى نوع من الضحك المهووس، هو ايضا وبعد ان نظر اليها وشاهد الدهشة على محياها بدأ بابتسامة خفيفة يليها ضحك مهووس قبل ان يحتضنها ويدخلون الى البيت وصوت الضحك عبر السياج الى الشارع من دون ان يثير احد قبل ان يهدأ وتتحول ملامحه الى جدية كبيرة وهو يقول

- اولاد المنيوكة هؤلاء دمروا البلد بالكامل
- وماذا نستطيع ان نفعل لهم...سألته منال
- لا شيء
- اذا دعنا نلبي دعوة ابي ونذهب الى هولندا

- قلت لكِ الف مرة انني لن اغادر هذا البلد
- هذه المرة ليس من اجلنا نحن ...بل من اجل نوار...نحن امام احتمالين شبه مؤكدين...اما ان يبكي هو على اجسادنا الميتة او نحمل نحن جسده الميت...وفي كلا الحالتين هذا سيدمر حياته...كما انني لا اعتقد ان من حقنا ان نمنعه من النجاة ما دامت هناك فرصة
- اذهبوا انتم اذا..
- انت تعرف انني لن اذهب بدونك...حتى تدمير حياة نوار اهون علي من تركك وحدك هنا
- لكن
- نحن مجبورون حبيبي ..لا اعتقد ثمة فرصة للنجاة هنا...رغم ذلك فيمكننا ان نعود اذا ما قررت أم هؤلاء الكف عن النيك...

ابتسمت وهي تقول جملتها الاخيرة التي لم تتصور ان تنطق بمثلها في يوم ما ولكنها بدت واقعية وحقيقية وهذا جعل سعود يحتضنها ويبتسم ويقول لها

- حسنا...سنستخرج جواز لنوار ونذهب

استخراج جواز سفر لنوار سبقه استخراج شهادة الجنسية العراقية كلف مؤيد ورقتين من فئة المئة دولار ورقة لاستخراج شهادة الجنسية واخرى لاستخراج جواز السفر وهذه العملية استمرت اسبوعين كاملين قبل ان يضع السمسار جواز السفر بيد سعود عندها قدم على اجازة طويلة من الجامعة ومن دون راتب، في البداية لم يوافق رئيس القسم قبل ان يخبره انه سيسافر على كل حال بالإجازة او بدونها، كل ما في الامر انني ابحث عن حجة للعودة الى البلد، ربما ستكون انتهاء مدة الاجازة هي الحجة وهذا اقنع رئيس القسم ومن بعده رئيس الكلية، خلال ذلك اتصلت منال بأبيها وطلبت منه ترتيب امور الاقامة لهم الثلاثة في هولندا

فأخبرها ان الامور ستأخذ بعض الوقت واتفق معها على ان يسافرون الى الاردن ويبقون هناك حتى يتم ترتيب الامور ومن ثم يسافرون الى هناك...

في ذلك اليوم لم تنم منال حتى الصباح بينما وجد نوار فرصة كبيرة للنوم بعد ان ترك دوامه في المدرسة وهذا اثار الدهشة عند سعود الذي انتبه الى عيني منال الحمراوين ووجهها المتعب قبل ان يسألها

- ألم تنامي
- لا...اشعر بان روحي مقبوضة بشكل غير مبرر
- اذا ...تعالي معي الى الكلية...سأستكمل براءة الذمة واودع اصدقائي وطلابي هناك ثم نذهب للسوق لشراء بعض ما نحتاجه في السفر
- دعني ارتمي تحت الماء البارد اول مرة...احتاج ان اصحو

الشوارع الداخلية فارغة تماما سوى من بعض المارة هنا او هناك بالعكس تماما من الشارع الرئيسي المكتظ بالسيارات بانتظار ان تفرج السيطرة التي تتوسط الشارع عن هذه السيارات وتتركها لشأنها لكن جنود السيطرة لا يبالون بهذا الاختناق العظيم الذي يصيب كل شيء وهذا الملل الذي لا يكسره دعاء الصباح الصادر من سيارة الكيا المجاورة ولا اغاني ساجدة عبيد التي تطلقها سيارة شاب وسط هذه الكأبة العارمة لكن خدرا شفيفا اصاب منال جعلها تسند رأسها على الكرسي وتغمض عينيها وتحلم بحياتها كلها دفعة واحدة، حلمت بشوارع وحدائق هولندا، بصديقاتها هناك رغم ان الحلم الاكثر وضوحا جاء من تل الخصيان، من بيت حجية سريوه وذلك الكهف الذي شكل تاريخ تلك القرية، النهر وحدائق الاعناب بالرغم من ان وجهي امها وابيها كانوا حاضرين في كل هذه الرؤى، اخيرا فتحت عينيها

عندما اجتازت السيارة مرتفع اسفلتي صنعه جنود السيطرة للتخفيف من سرعة السيارات القادمة وبالرغم من الوقت الطويل الذي احتاجه سعود للوصول الى نقطة التفتيش لكن الجند وببساطة شديدة اشار له بيده ان ينطلق هكذا ومن دون تفتيش وهذا جعل سعود يشعر بنوع من الراحة إلا أن وصل الى الكلية، لم تنتظر منال طويلا فقد استكمل معاملة براءة الذمة وكتاب الانفكاك عن الكلية بسرعة وعاد اليها بعد ان ودع أصدقائه الاساتذة والطلبة الذين رافقوه حتى الباب الخارجي من الكلية عندها طلبت منه منال التوجه الى السوق القريب لشراء بعض الحاجيات الضرورية للسفر ولكن بمجرد دخولهم الى الشارع الفرعي الذي يقودهم الى السوق وقف امامهم وبسرعة كبيرة سيارة المانية الصنع من نوع (bmw) ونزل منها اربع رجال ملثمين ووجهوا مسدساتهم نحوهم، حاول سعود الرجوع الى الخلف لكن سيارة اخرى سدت عليه الطريق وبسرعة كبيرة جروهم من السيارة ودفعوهم الى (bmw) وانطلقوا بعد ان عصبوا اعينهم بقماش اسود حولت العالم الى ظلام دامس...

لم تسر السيارة طويلا ولكن من الواضح انها كانت تسير في شوارع داخلية من كثرة المطبات والحفر التي اجتازتها قبل ان تقف ويسحب الملثمون دكتور سعود وزوجته الى الداخل قبل ان يجلسوهم على الكراسي ويربطون ايديهم وارجلهم بقوة كبيرة عندها فقط ازالوا العصابات من اعينهم فتبين انهم داخل قاعة كبيرة كانت تستخدم كمخزن بسقفها الحديدي الذي يشكل زاوية قائمة رأسها في اعلى نقطة من هذا المبنى، انتبه سعود للرجال الملثمين وصرخ بهم

- ماذا تريدون منا

لكنهم لم يجيبوا قبل ان يدخل شاب في الثلاثينات من العمر يرتدي بدلة زرقاء وربطة عنق حمراء، كان يبدو وسيما وقويا وهو ينزع المسدس من حزامه ويضعه على الطاولة التي لاتبعد كثيرا عنهم، عندها اقترب منهم وقال لهم

- دكتور سعود...يا اهلا وسهلا
- ماذا تريدون منا ...سأله بهدوء
- منكم ...لانريد شيئا....مشكلتنا مع هذا السافل اخوك
- شيخ ابراهيم
- فعلا ....هو شيخ للدم والتحريض علينا
- عليكم....من انتم
- دكتور...الذي وصلني عنك انك شخص ذكي
- حسنا....سأفعل اولا كل ما تريد ولكن اطلق سراح زوجتي ...فلا شأن لها بالأمر...ابراهيم اخي انا وليس اخيها
- للأسف ...في الحروب دائما يسقط الضحايا الابرياء لانهم يتواجدون في المكان الخطأ وفي الوقت الخطأ وزوجتك ليست استثناء
- ولكن ...ارجوك...اتركها فقط...وسأفعل كل ما تريده مني

يقف الشاب ويشير الى اتباعه فيقبلون ويثبتوا سعود قبل ان يتقدم رجل اخر يحمل حقنة يرفعها ويطلق قسم من سائلها في الهواء قبل ان يحقن سعود بعد ان يشد زنده بقوة بحبل بلاستيكي مجوف ، ثم يقوم بحقن منال وبنفس الطريقة، دقائق ويبدأ مفعول المخدر بالعمل وهذا يجعل رأس سعود يلتف الى كل الاتجاهات كالمجنون لكن منال تضع رأسها على مسند الكرسي وتنام فهي لم تنم منذ الامس وكان تأثير المخدر فوري جعلها تسلم نفسها للنوم بالرغم من انه مخدر هلوسة يسحب المرء في عوالم غريبة ويشوه الامكنة والاشخاص بطريقة غير طبيعية تفقد الانسان

تركيزه بالكامل، رفعوهما ورموهما في المقعد الخلفي للسيارة بعد ان رشوا وجه منال بالماء لتصحو وتجد نفسها داخل عالم غريب جعلها تلتفت الى جسمها الذي يبدو انه لا ينتمي اليها، لا تعرفه ولا تنتمي اليه بينما بدت الاشياء من حولها هلامية وسائلة وغريبة، انطلقت السيارة باتجاه مقر حزب الاستاذ فهم يعرفون ان شيخ ابراهيم موجود هناك ويحاولون اصطياده قبل تدمير المقر بالكامل، البوابة الخارجية تبعد مسافة كبيرة عن المقر والمتكون من باب مصنوع من القضبان الحديدية القوية ويرتفع الى الاعلى بشكل قبتين متجاورتين يفترقان عندما تفتح البوابة ويلتصقان عندما تغلق، على الجهة اليسرى يقع كشك صغير يحوي جنودا يحملون عصا تقع في مؤخرتها مرآة محدبة تستعمل في تفتيش السيارات، وقف السائق عند البوابة وعندما اقترب جندي التفتيش قال له

- ارجوك...اخبر شيخ ابراهيم ان اخاه وزوجته جاءوا لزيارته
- افتح الصندوق
- خرج الشاب من السيارة وفتح الصندوق الخلفي فتم تفتيشه بعناية قبل ان يمرر المرآة المحدبة على اسفل السيارة ومن كل جهاتها عندها انتبه الجندي على ان الرجل والمرأة الذين يجلسون بالمقعد الخلفي يتحركون بشكل غير طبيعي وكأنهم سكارى وهذا جعله يمد رأسه ويتكلم بشكل مباشر مع سعود
- اسف استاذ ...اخرناك
- ها....(وهو يحاول الاقتراب من الجندي)
- اخرناك استاذ
- ها....اي ..نعم...هؤلاء اولاد المنيوكة....اخروني كثيرا
- نعم...
- اقول لك اولاد المنيوكة....انت ايضا منهم...اليس كذلك

- استاذ...ماذا تقول

هز سعود يده وهو يقول للجندي

- اذهب ...

وهذا جعله يذهب ليقول شيئا مع الجندي الاخر خلف البوابة ويعود ليقول لهم

- انتظروا دقيقة

ذهب الجندي الاخر بصور مباشرة الى شيخ ابراهيم واخبره بان اخيه وزوجته جاءا لزيارته لكنهما يبدوان غير طبيعيين وعندها سأله شيخ ابراهيم

- غير طبيعيين ...كيف
- يبدو ان اخاك سكران بالكامل
- لكن سعود لايشرب ....
- هل انت متأكد شيخنا
- نعم...متأكد

ذهب الشيخ ابراهيم الى الشباك ومن خلال زجاج النافذة رأى السيارة وفي داخلها اخوه وزوجته وانتبه ايضا الى السائق الذي بدى عليه الارتباك وهذا اثار حفيظته فالتفت الى الجندي وقال له

- هناك شئ غير طبيعي ...لا تدعو هذه السيارة تدخل

عندها ذهب الجندي وطلب من سائق السيارة ان يركنها على جانب الطريق وان يدخل سعود وزوجته مشيا الى داخل المقر وهذا جعل السائق يدور بالسيارة حول نفسها وعندما يصبح بمواجهة البوابة ينطلق بكل سرعته محاولا اقتحام البوابة ولكن الحرس اطلقوا النار على السيارة بكثافة قبل ان تصيبه رصاصة بكتفه الايمن تجعله يضغط على الزر الاحمر ويفجر السيارة فتتناثر هي ومن فيها في الهواء..

(٦)

عندما سمع الاب بمقتل ابنه وزوجته واحتراق جثتهما بالكامل مات ببساطة، سقط من دون ان يتفوه بكلمة واحدة ولكن موته لم يكن حقيقيا لان قلبه عاد للعمل بمجرد ان شغل الاطباء جهاز الصدمات الكهربائية وكأنه كان يعمل اصلا ولكن بطريقة لا يدركها الناس ولا الاطباء وهذا جعل الاطباء ينقلونه الى غرفة الانعاش ويبدئون بمراقبة حالته بينما شيخ ابراهيم كان مشغولا باستقبال وفود المعزين ومن اطياف سياسية مختلفة واشكال مختلفة كان ينتظر خبر موت ابيه الذي اصبح مؤكدا بعد ان اتصل فيه احد اتباعه وابلغه ان قلبه قد توقف وان الاطباء يحاولون انعاشه الان، الخبر لم يأتِ وانما الاب بنفسه جاء في اليوم الثاني وبشكل حيّر الجميع واولهم شيخ ابراهيم وهذا لأن الاب قرر ببساطة ان يستمر بالحياة بعد ان لمح نوار يراقبه من خلال زجاج غرفة الانعاش، ازال توصيلات الاجهزة وطلب من اتباع ابنه ان يذهبوا به الى العزاء رغم اعتراضات الاطباء الكثيرة لكنه كان مصرا على الخروج من المشفى وعلى مسؤوليته الخاصة، عندما وصل الى العزاء جلس قرب ابراهيم فالتفت اليه وقال له

- الف حمد لله على سلامتك ابي
- قتلت سليمة وقتلت سعود وزوجته لكنني استطيع ان اؤكد لك انك لن تستطيع ان تقتلني
- ابي
- لستُ ابيك...ابوك الشيطان نفسه ..الان أدر وجهك ولينتهي هذا العزاء على خير

لم يفارق نوار حضن جده خلال العزاء وكأنهما قررا ان يدافعا عن بعضهما حتى الرمق الاخير لكن ابن الرابعة عشر لم يستطع ان يدرك تماما ما يجري، هناك شيء ما يقول له ان هذا مجرد كابوس سيفيق منه بعد حين لكنه عندما يرتمي بحضن جده يدرك الحقيقة كلها، الحقيقة انه يجلس الان في عزاء ابيه وامه اللذان احترقا بالكامل وبطريقة لم يتمكن معها أحد التعرف عليهما بعد تحولا الى هيكلين عظميين متفحمين داخل بقايا سيارة محترقة، رغم صعوبة الامر لكن هاجسا عند نوار كان يدفعه للحياة، الصعوبة هو في ادراك الامر بالكامل قبل تجاوزه، عليه اولا ان يدرك انه لن يستطيع رؤية ابيه وامه مرة اخرى وكل مفاصل حياته كانت تعتمد عليهما رغم انه وجد الان حلا بديلا ولكنه بالتأكيد لن يكون بجودة الاصل، جده كان حلا جيدا بالرغم من انه رجل كبير خرج منذ ساعات من الموت ليعيش هذه المرة من اجله فقط، الجد ادرك مهمته منذ النظرة الاولى وبدى مستعدا لها حتى النهاية وهذا جعلهم يجمعون اغراضهم بعد انتهاء العزاء ويعودون الى تل الخصيان ليتفاجئوا بلوحة كبيرة في مدخل القرية خط في وسطها بشكل بارز وبلون احمر عبارة (قرية الشيخ)، كانت المحافظة قد قررت تغيير اسم القرية واطلاق هذا الاسم عليها تقديرا للجهود المميزة التي قام بها شيوخ المذهب وعلى رأسهم الشيخ ابراهيم في قضية التحريض الطائفي التي قادت المذهب الى انتصار كبير وطرد كل من ينتمي الى المذهب الاخر من المنطقة بل من المحافظة كلها....

نوار لقى تعاطفا كبيرا من حسنة وبناتها الثلاثة ورغم خجلهن الواضح لكنهن حاولن الاقتراب من ابن عمهن كمحاولة لا واعية لمواساته رغم انهن ادركن مبكرا ان هذا الشاب سيسلبهن اهتمام جدهن ورعايته لهن وهذا كان واضحا من اهتمام الجد واحتضانه

له، كان غريبا بالفعل، كل شيء هنا يشعره بالغربة ولكن في هذه الغربة جعلته ينسى ولو بشكل متقطع ذكرى اهله، المكان والحياة المختلفة جعلانه ينشغل بمحاولة استيعاب هذا العالم الجديد ليتمكن من العيش فيه، دقائق وتدخل امرأة كبيرة برفقة ابنها وحال دخولها تحتضن نوار وتبكي بكاء حار بينما يلتفت ابنها الى الحائط ويبدأ بالبكاء لكن نوار استطاع وبصعوبة الافلات منها والذهاب الى جده وسؤاله عنها فأجابه الجد

- هذي حجية سريوه وهذا ابنها جمال ..اقرب الاصدقاء لأبيك هنا

لم يفهم كيف يكون هذا الرجل القروي الصديق الاقرب لأبيه الاستاذ المعروف في كلية الاجتماع لكنه تقبل الامر بعد ان تحدث معه جمال واخبره بلغة شفافة وبهدوء كامل انه سيحل محل ابيه، حجية سريوه بدأت تتذكر هذه الفتاة الهولندية الوحيدة التي صدقت قصتها بل واثبتت صدقها وحدوثها للأخرين فالكثير بعد رحيلها في ذلك اليوم تجرأوا ودخلوا الى المغارة وشاهدوا بأم اعينهم الاعضاء التسعة المنتصبة التي فقدت خصيانها بطريقة بشعة، وهذا نفسه جعلهم يطلبون تغيير اسم القرية هروبا من القصة وليس من الاسم الا ان تمكن شيخ ابراهيم اخيرا وبعلاقاته الكبيرة من اجبار المحافظة على تغييره وبشكل يليق بجمال هذه القرية لكن تغيير الاسم لا يعني شيئا فالواقع ان شيخ ابراهيم استطاع إخصاء الجميع طائفيا وحولهم الى وحوش متعطشة للدم يمزقون كل من يصادفونه من المذهب الاخر وبكل البشاعة الممكنة، من جانب اخر فالاسم يبدو واقعيا لان لفظتي الخصي والشيخ بدتا متقاربتين ويؤدي احدهما للأخر بطريقة غريبة وكأن وجود اي شيخ يعني بالمقابل وجود خصي في مكان اخر وكلما كثر الشيوخ

ازداد عدد الخصيان حتى تحول البلد الى شكلين من الرجال شيوخ وخصيان، هناك استثناءات قليلة ولكنها ليست اكيدة فلا هي بأحجام الاعضاء الذكرية للشيوخ ولا هي تفتقد هذه الاعضاء بشكل كامل، رجال بأعضاء ذكرية ضعيفة ولا تقوى على الانتصاب الا بصعوبة بالغة، تظهر بين الناس بخجل وفي الغالب لا ينتبه اليها احد رغم ذلك فوجودها شكل عامل توازن داخل المجتمع العراقي وربما سيشكلون بذرة لكيان فاعل وقادر على المضاجعة في مرحلة قادمة لان التوصيف الاقرب لهذا الكيان هو صغر العمر والتجربة لا تهالكها ووصولها الى المناطق الاقرب للنهايات، كانوا اعضاء حقيقية ينقصها بعض التدليك والمداعبة والاهم عليها اولا ان تصدق نفسها انها قادرة على الايغال في فرج الحياة الممكنة رغم شراسة وقوة ما بين افخاذ الشيوخ ومن بينهم شيخ ابراهيم الذي استطاع ان ينسى او يتناسى الحادثة التي أدت الى مقتل اخيه وزوجته وانغمس كليا في العمل الطائفي سواء داخل الجامع او في اللقاءات التلفازية لبعض القنوات التي تسيل الطائفية من انيابها حتى ان صراخها بدى مهووسا بطريقة كاريكاتيرية مضحكة....

في البيت القروي الجميل كانت الامور تجري على ما يرام فبنات شيخ ابراهيم استطعن ان يخرجن نوار من صدمة الفاجعة واقتربن منه بطريقة كبيرة وبتشجيع من الجد وهذا منح البيت روحا اخرى ونسيجا جديدا بينما حاول الجد منحه كل الحنان والاحتضان اللازمين وهذا جعله ينسى ولو بشكل متقطع موت والديه ويندمج باللعب مع البنات داخل البستان والحديقة الملحقة بالبيت، شيخ ابراهيم لم يتلق تقريرا من الجندي المكلف بمراقبة العائلة منذ الحادثة وهذا جعله يطلب من مرافقيه تحضير السيارة للنزول الى القرية...

في الوقت الذي تركت فيه سيارات الدفع الرباعي الشارع الرئيسي ودلفت الى الشارع المؤدي للقرية والذي يتغير معه شكل العالم وتتحول الصحراء الى مناطق زراعية خضراء، في هذا الوقت طلب نوار من البنات الخروج للمزرعة ليلعبوا لعبة الغميضة، خرج الاطفال الاربعة وهم يتقافزون ويضحكون ولأن نوار هو صاحب المقترح فكان عليه ان يسند وجهه الى شجرة البرتقال مغمضا عينيه بيده اليسرى بينما اختبأن البنات الثلاثة خلف الاشجار قبل ان يصيح بأعلى صوته

- حلال

فيردن عليه البنات

- بعد

إلا أن اكملنَ عملية الاختباء عندها صاح بأعلى صوته

- الأن...حلال

فأجابن

- حلال

عندها بدأ بالبحث عنهن بين الاشجار، اميرة كانت تختبأ خلف شجرة هي اقرب الى الممر الطويل الذي يؤدي الى الباب الداخلي للبيت بينما تحرك نوار بالاتجاه المعاكس متوغلا داخل البستان للبحث عنهن ولذلك استغلت هذا الوضع وبدأت تتسلل للوصول الى الشجرة الذي كان يقف عندها، لأنها لو استطاعت لمس هذه الشجرة فان هذا يعني انهُ قد فشل في العثور عليهن وعليه ان يغمض عينيه مرة اخرى لكن حركة اميرة كانت مرتبكة ولهذا حركت بعض اوراق الاشجار تحت قدميها فأصدرت صوتا اثار انتباهه وجعله يعود بسرعة وقبل ان تصل اميرة الى الشجرة قفز عليها ودفعها كي تسقط على الارض عندها ارتفع ثوبها وبانت ركبتها قبل ان يسقط هو بقربها وتعم لحظة صمت، نظر اليها

الى وجهها الطفولي وابتسم قبل ان يضحك فتضحك هي ايضا بينما برودة الحشيش منعتهم لدقيقة من الوقوف مرة اخرى، في ذلك الاثناء دخل شيخ ابراهيم ليجد ابنته ممددة على الارض ويرتفع ثوبها ليظهر جزء مما فوق ركبتها وبقربها يتمدد ابن اخيه رافعا يديه للأعلى وهما يضحكان بسعادة واضحة، بقى شيخ ابراهيم جامدا امام هذا المنظر قبل ان تنتبه اليه اميرة وتقف، تنفض ثوبها من الحشائش واوراق الاشجار وتركض نحوه وهي تصرخ

- ابي...ابي

عندها وبصورة مفاجئة يخرجن البنات من داخل البستان ويركضن نحو ابيهن ويتمسكن بجبته كمحاولة لمعانقته ولكنه هذه المرة لم يجلس على ركبتيه لمعانقتهن بل دفعهن وذهب مباشرة الى نقطة الحراسة عند الباب الرئيسي ونادى الجندي المكلف بمراقبة البيت، عاتبه بقوة لأنه لم يرسل له التقارير لما يحدث داخل البيت فأجابه الجندي انه يستطيع مراقبتهم عندما يخرجون الى القرية اما داخل البيت فلا سبيل له لذلك وهم لم يخرجوا منذ ايام لذلك لم يكن لديه ما يرسله عندها مسكه شيخ ابراهيم من كتفه ودفعه وهو يقول

- عليك اللعنة

قبل ان يدخل بسرعة الى داخل البيت متوجها نحو المطبخ لكنه وجد اباه عند الممر الداخلي، نظر اليه الاب للحظة عندها هدأ وقال له بصوت واطئ

- كيف حالك ابي

لكن الاب لم يجبه التفت واكمل طريقه الى الداخل، في تلك اللحظة خرجت حسنة وهي تقول

- ابراهيم...حمد لله على سلامتك

- تعالي

سحبها من يدها وذهب بها الى غرفة النوم، عندها التفت وقفل باب الغرفة وقال لها بعصبية

- هكذا تحافظين على الامانة...الا تخافي الله يا امرأة

لم تفهم حسنة قصده وتصورت ان شيئا كبيرا قد حدث لهذا سألته باستغراب

- ماذا...هل فعلت شئ سيء لاسامح الله
- كيف تجعلين نوار يختلي بالبنات...
- يختلي...ماذا تعني بذلك
- اعني ان يكون معهن في مكان بعيد عن عيونكم
- وماذا فعل هذا الطفل
- طفل...اي طفل ...هذا قادر على ان يحبل عشر نساء
- شيخ ابراهيم.....اذكر الله....
- انا اذكره ليل نهار ...لكن المشكلة انتم الذين لا تعرفون حدود الله.....لا يجوز...هل تفهمين...هذا ابن عمهن يعني انه يحل عليهن وعليها فلا يجوز الاختلاء بهن ولا اللعب معهن
- طيب...عليك ان تقول هذا لعمي ...لأنك تعرف جيدا كم هو متعلق به ....كما انني لا استطيع ان اسجن البنات في الغرفة طوال النهار.....ولا أمنعهن للعب معه لان ذلك سيثير عمي وربما يطردنا من البيت
- امنعي بناتك انتِ
- ابراهيم...الولد يعيش معنا في نفس البيت...ماذا افعل كي أمنع البنات ومن دون ان يلاحظ ابوك ذلك...الافضل ان تأخذنا معك الى بغداد

- مستحيل...ماذا سيقولون علي الناس ...شيخ ابراهيم يعق اباه ويتركه وحده من دون ان يكون هناك من يهتم به...خاصة بعد موت سعود
- اذا كلمه....اخبره بشكوكك هذه ....
- هو لا يتحدث معي...كيف يمكنني اخباره بذلك....خاصة وهو متعلق بقوة بهذا الولد
- لا اعرف...عليك انت ان تجد حلا ....بالنسبة لي لا اريد ان تحصل مشاكل مع عمي من جراء ذلك
- حسنة...عليك ان تفكري بعواقب الامور...ماذا لو فعل نوار فعلته بواحدة من البنات....
- اي بنات ابراهيم...هؤلاء اطفال فقط
- لاتكوني غبية....ولا تقول لي هؤلاء اطفال مرة اخرى
- الغريب انك تخاف من بناتك وتشك بهن...ولا تشك بي...مع انك تتركني لأشهر

صمت شيخ ابراهيم...لان هذا السؤال الجريء فاجئه بقوة وكان عليه ان يرد بقوة فالتفت اليها وقال

- لأنكِ لستِ امرأة
- ماذا تعني بذلك
- اعني انني اعرفك جيدا...انتِ بلا رغبات...ولا يمكن اثارتكِ ابدا
- ربما تكون محق في ذلك...الان اذهب واغتسل وسأعد لك الطعام

عندما خرج شيخ ابراهيم التفتت حسنة الى المرآة وقالت بصوت واطئ

- غبي...لا يعرف انني يمكن ان اكون امرأة في اي وقت، نعم لم اكن امرأة لأنك لم تكن رجلا ....عليك اللعنة

لم يبقَ شيخ ابراهيم سوى ليلة واحدة في القرية لأنه ادرك ان كلام حسنة صحيح وان اي فعل غير محسوب تجاه الولد سيلاقي ردة فعل عنيفة من ابيه وربما طرد حسنة والبنات عندها سيسوء الوضع اكثر وستسوء سمعته في القرية التي لا تتقبل مثل هذا العقوق والذي يكون فيها الاب هو السيد المطاع حتى اخر يوم من حياته كما ان علاقة نوار بالبنات كانت تتجاوز كل الحدود فهم يركضون في البيت ويتصارعون وبأوضاع مثيرة طوال النهار وامام الجميع من دون ان ينتبهوا او ينتبه اليهم احد الا ان الامور اذا استمرت بهذه الطريقة فالنتيجة مؤكدة وبالطريقة التي تخيلها شيخ ابراهيم، صورة واحدة ارتسمت داخل رأسه هي لأبنته نبيلة تتمدد عارية بنهديها اللتان خرجا لتوهما وفوقها نوار بقضيبه الصغير وهو يوغله بقوة داخلها، كان متأكدا من ان هذا سيحدث وبعيدا عن انظاره وربما يتفاجأ في يوم ما عندما يجد بطن ابنته وهي تنتفخ عندها ستكون الفأس قد وقعت على الرأس وهذا جعله يذهب مباشرة الى صديقه الشيخ حسن ليفيض له ما اعتمر في صدره من شكوك لكن الشيخ حسن لم يعد كما كان بعدما فشلت كل محاولاته من الوصول الى الاستاذ والحصول على ادارة احد المقرات المنتشرة في العاصمة بدل ان يكون مجرد موظف بسيط تحت ادارة شيخ ابراهيم، شيخ ابراهيم كان يدرك طموح صديقه لكنه لم يجد ما يضير في ذلك اذا استطاع الوصول الى مبتغاه في نفس الوقت لم يحاول ان يساعده في ذلك لأنه يحتاجه بقربه ليحل له الكثير من المشاكل ويستشيره في كل الامور، ورغم ذلك فان شيخ حسن بدى مهتما بالمشكلة واشار عليه بان يزوج نوار من نبيلة ويجعل الامر شرعيا لكن ابراهيم يعرف ان هذا مستحيلا وان ابيه سيعارض ذلك بقوة لأنه يريد ان يمنح نوار الفرصة كاملة كما منحها لأبيه من قبل، كما ان مجرد

اثارة مثل هذه الشكوك ستجعل اباه يطلب من حسنة وبناتها مغادرة البيت لأنه اصلا يعتبر هذا الوضع خاطئا ويعتقد انه يظلم حسنة لأنه يبعدها عن حقها في النوم بين احضان زوجها لأيام طويلة وطلب منها اكثر من مرة ان تلتحق به في بغداد لكنه كان يرفض ذلك الا اذا جاء ابوه معهم وهذا بدى مستحيلا خاصة بعد مقتل سليمة وسعود، لم يبذل الشيخ حسن جهدا كبيرا للوصول الى حل لمشكلة الشيخ ابراهيم وبدى عاجزا او غير مهتما بها وهذا جعل الشيخ ابراهيم يتركه لأيام رغم ان الشك والقلق اخذوا منه كل مأخذ وجعلوه مثل السمكة التي اكلت الزهر والتي تنتفض بكل قوتها محاولة ابعاد الموت عنها، بدى عصبيا وفقد تركيزه بالكامل، كانت لديه رغبة قوية للذهاب الى القرية ولكنه لم يكن يعرف ماذا سيفعل هناك وكيف يتخلص من هذا الهم الذي رقد على صدره والذي تسببت به هذه اللعنة التي تركها اخوه، لو فقط مات معهم، لو كان موجودا في تلك السيارة المفخخة لكان الامر اكثر منطقية وعدالة، مرت ايام في غاية الصعوبة عليه، لم يستطع معها النوم او الاكل بشكل معتاد فالأحلام كانت لا تفارقه وفي كل مرة واحدة من بناته الثلاثة هي من تنام عارية تحت نوار الذي بدى احيانا رومانسيا وفي احيان اخرى شهوانيا بدرجة كبيرة لكن حلما اخرا لبناته الثلاثة وهن يقفنَ ببطون منتفخة فوقه بينما يتمدد هو على الارض وسيل من الحيامن يفيض من بين ارجلهن ليغطيه بالكامل ويمنعه من التنفس، كان يحاول التشبث بأي شيء ولكن نهر الحيامن كان جارفا وخانقا جعله يقفز من فراشه وهو يصرخ ..

- انقذوني

قبل ان يتنفس بعمق وكأن الاوكسجين لم يزر رئتيه لعمر كامل، في اليوم التالي كان نائما على مكتبه ساندا رأسه بيديه عندما دخل

عليه احد العاملين واخبره ان الاستاذ يطلب رؤيته في الغد وهذا جعله يذهب الى المغسلة ويغسل وجهه بقوة قبل يذهب الى شيخ حسن، بدى متعبا وهو يجلس ويطلب من احد العاملين قدحا من الشاي بينما بقى شيخ حسن صامتا ينتظر ما سيقول شيخ ابراهيم عندها التفت اليه وقال

- اسمع...غدا سأذهب لمقابلة الاستاذ...وستذهب انت معي
- نعم
- انا اعرف ان الاستاذ يريدني بقربه داخل المنطقة الخضراء ولهذا سأطلب منه ان تتكفل انت بإدارة المكتب عوضا عني
- لكن...ربما يريدك في امر اخر
- حتى اذا ...انا سأطلب منه ان تتولى انت ذلك
- اشكر ثقتك ...
- لا تشكرني ...ولكن جد لي حلا
- حل...لماذا
- للمشكلة التي انا فيها
- نعم...لا تهتم....ساجد لك حلا...اعتمد علي
- وانت ايضا ...اعتمد علي

في البداية تصور الشيخ حسن ان مشكلة شيخ ابراهيم هينة وسهلة الحل ولكنه بعد ان فكر فيها بتأمل وتبين ابعادها اتضحت انها مشكل صعبة الحل حتى انه لم يجد مخرجا لها، الحل الوحيد الممكن هو ابعاد نوار عن البيت ولكن ما هو البديل، سيقتنع الجد اذا كان البديل جيدا وافضل بكثير من حاله هذا وفجأة خطرت بباله فكرة فوقف واتصل بشيخ ابراهيم واستدعاه للحضور في الحال، لم يتأخر كثيرا وحالما دخل عليه قال له الشيخ حسن ...

- اسمع ونفذ بالحرف الواحد ما سأطلبه منك
- نعم

- اولا عليك ان تتصل بوالد زوجة اخيك في هولندا وتشرح له الاوضاع السيئة في العراق وانك تخاف على مستقبل نوار هنا وتفضل ان يلتحق بهم الى هناك
- طيب
- بعد ذلك تذهب لتكلم ابيك، اخبره ان ام منال اتصلت فيك وهي خائفة كثيرا على نوار نتيجة لسوء الاوضاع في البلد، اخبره ان مستقبل الولد هناك سيكون افضل وانه هنا سيكون بلا مستقبل، قل له ان ام منال كانت تبكي فهي تريد ان تشم رائحة ابنتها بابنها، قل له انها توسلت كثيرا واكدت لي انها ستحرص على ان يدخل نوار افضل المدارس هناك

صمت شيخ حسن قبل ان يقول له

- اعتقد ان هذا سيقنع اباك

لكن الاب لم يقتنع رغم ان شيخ ابراهيم اجاد تمثيل الدور بالشكل المطلوب حتى انه كاد ان يبكي وهو يحاول ان يشرح الطريقة التي تكلمت فيها ام منال، لكن الجد سمع كل ذلك وقال له بهدوء

- طبعا...سيذهب الى هناك...وسيعيش معهم ولكن بعد ان اموت فقط...هذه هي وصيتي الوحيدة...الان اغرب عن وجهي ولاتفتح هذا الموضوع معي مرة اخرى ...

(٧)

سحب شيخ ابراهيم الشيخ حسن من يده وذهب معه الى مكتبه قبل ان يجلسه على كرسيه ويقول له بجدية

- حل لي هذه المشكلة وهذا الكرسي لك
- لا ...هذي غير مقبولة منك شيخ ابراهيم....
- شيخ حسن...اعرف انك تساعدني كصديق...ولكنك تستحق بالفعل هذا الكرسي...خلصني فقط
- اهدأ ارجوك...ولا تحمّل الامور اكبر من حجمها
- كيف اهدأ وانا اشعر في كل لحظة بالمصيبة....لقد وضعت البانزين قرب النار وانتظر لحظة الاشتعال فقط
- هل تعرف...مشكلتنا اننا طوال هذه الفترة كنا نفكر بأبعاد البنزين عن النار...ربما علينا الان ان نفكر بطريقة اخرى
- كيف
- مثلا نفكر بإطفاء النار....ولابأس عندها ان تبقى بالقرب من البنزين
- ماذا تعني
- اعني انه ليس ثمة طريقة لإبعاد ابن اخيك عن بناتك...علينا اذا ان نطفأ اي رغبة ممكنة عنده
- كيف
- لحد الان لا اعرف ...ولكن الحل الوحيد هو نقتل اي رغبة للجنس داخل هذا الولد...
- لم افهم

- اتركني ليومين وسأشرح لك كل شيء ...علي اولا ان اذهب الى صديق لي يعمل كطبيب للأمراض التناسلية والعقم وحتى ذلك الوقت تعال اجلس على كرسيك هذا

يقف شيخ حسن ويخرج عندها يجلس الشيخ ابراهيم على كرسيه بينما شعور بعدم الارتياح انتابه من مقترح شيخ حسن، بعد يومين اتصل به شيخ حسن وطلب منه الحضور الى عيادة الطبيب بعد ان اعطاه العنوان وهذا جعله يغادر المكتب متوجها للعنوان المطلوب، عندما وصل استقبله شيخ حسن وقدمه الى دكتور مصطفى وهو رجل في الخمسينيات من العمر ذو شعر ابيض مائل الى الشقرة ووجه دائري يكاد ينتفض الدم من وجنتيه، انتبه الشيخ ابراهيم الى الشهادات الكثيرة المعلقة خلفه على الحائط وكلها مكتوبة بالإنكليزية وهذا زاد من حيرته لكنه جلس قبالة الدكتور بانتظار ما سيسفر عنه هذا اللقاء، التفت اليه الشيخ حسن وقال له

- بصراحة وبعد تفكير طويل وجدت ان الحل الوحيد لمشكلتك هو ان نتحكم نحن برغبات هذا الولد
- كيف
- هذا ما سيخبرنا به الدكتور

عندها قال الدكتور بعد ان تردد قليلا

- بصراحة لولا معزة شيخ حسن لما تدخلت في هذا الامر
- ثقتنا فيك عالية دكتور...اجابه الشيخ حسن
- هناك حل واحد لكنه خطر على الولد
- المهم ان يكون فعالا ...اجابه الشيخ حسن
- فعال جدا
- فعال بأي شيء...سأله شيخ ابراهيم

- شيخنا الجليل...هناك هرمون في جسم الرجل اسمه (التوستيرون) هذا الهرمون هو المسؤول عن الرغبات الجنسية ويكون في قمة نشاطه في مرحلة الشباب...اذا اردنا السيطرة على هذه الرغبات علينا كبح هذا الهرمون
- كيف ...نكبحه ...كيف دكتور
- عن طريق حقن نعطيها عادة لمرضى سرطان البروستات وهي من تتحكم في افراز هذا الهرمون
- اذا اين المشكلة ...سأله شيخ حسن
- المشكلة ان لهذا العلاج اعراض جانبية اهمها موت الخصيتين
- تعني انك ستقوم بإخصاء الولد...سأله شيخ ابراهيم
- بطريقة ما....نعم... احيانا يكون موت الخصيتين نهائيا...في احيان اخرى يمكن ان تعود الخصيتين للعمل بعد ترك هذا العلاج
- وهل هناك اعراض اخرى
- موت الخصيتين هو من سيتسبب بأعراض كثيرة، منها تغيير في الصوت واختفاء الشعر في مناطق الجسم عدا منطقتي الرأس والعانة، اضافة الى تغييرات في الحالة النفسية
- ماذا تعني
- اعني انه سيتحول الى جنس اخر بين الرجال والنساء...وهكذا ستتغير شخصيته بالكامل
- طيب هل يمكننا ان نعطيه العلاج بكميات لا تؤدي الى اخصاءه...سأله شيخ ابراهيم
- عندها لا اضمن لكم اختفاء شهوته ورغباته بالكامل...بل على العكس قد يزداد افراز هذا الهرمون وتزداد معه الرغبة والشهوة...يجب ان اكون صريحا معكم قبل ان اقوم بأي شئ
- شكرا دكتور...سنفكر وسنرد عليك

عندها خرجا وحالما صعدا الى السيارة التفت الشيخ ابراهيم الى الشيخ حسن وقال له

- ما هذا
- الحل
- هذا مصيبة اخرى وليس حلا
- هذا هو الممكن الوحيد
- لكنني لا اريد تدمير الولد...هو ابن اخي وانت تعرف
- اذا عليك ان تختار الحل الاسهل....هو ان تسحب عائلتك الى بغداد وتترك اباك مع الولد هناك...
- مستحيل....لا استطيع تدمير سمعتي
- اذا عليك ان تقتنع بما قاله دكتور مصطفى
- لكن انت من اين تعرف هذا الدكتور ...وكم دفعت له ليوافق على ذلك
- لم ادفع ولا فلس
- اذا كيف
- قدمت له بعض الخدمات والوعود
- مثل ماذا
- مثل موافقات من وزارة الصحة لكي يفتح مستشفى اهلي في بغداد اضافة الى السماح له باستيراد بعض الادوية...انت تعرف السيد وزير الصحة بالجيب من زمان
- اعرف ...لكنني لا اعرف ماذا افعل وانا امام امرين احلاهما مرُ
- فكر واختار ...وشيخ حسن بالخدمة
- شكرا ..ما قصرت والله

الجانب الديني لمثل هذا الفعل هو من استوقف شيخ ابراهيم هذه المرة فهو يعرف ان النبي قد نهى عن إخصاء الصبيان والذي

كان مشهورا في ذلك الوقت والحقيقة ان التفكير بالجانب الديني قد اراحه وحسم الامر تماما بعد ان كان يقدم رجلا ويؤخر اخرى حتى انه كاد ان يقتنع لكنه على كل حال لن يستطيع تجاوز هذا الحد من حدود الله لهذا استدعى شيخ حسن الى مكتبه ليبلغه قراره النهائي بعدم الموافقة على اجراء هذه العملية وحالما دخل شيخ حسن وسلم عليه قال له شيخ ابراهيم

- حرام
- ما هو هذا الحرام
- شيخنا ...انت تعرف ان النبي منع الإخصاء
- نعم اعرف
- وتريدني ان اغضب الله
- النبي منع عملية الاخصاء ولكنه لم يمنع استخدام الخصيان ...بدلالة ان كل العلماء والاولياء كانوا يستخدمونهم في بيوتهم
- لكننا سنقوم نحن بهذه العملية
- لا...الدكتور هو من سيفعل ذلك...انت ستقوم بإيواء المخصي فقط
- شيخ حسن ...على من تحب ان تتذاكى ...علي ام على رب العالمين...الدكتور سيفعل ذلك بطلب مباشر منا
- شيخ ابراهيم...صدقني ما سنقوم به وما قام به السلف الصلح يصدر من إناء واحد
- كيف
- بما ان الاسلام سمح بالعبودية وبما ان العبودية تستوجب وجود رجل غريب داخل بيوت المسلمين، رجل يمكنه الاطلاع على النساء وهذا محرم بالتأكيد، كان عليهم ان يجدوا حلا لهذه الاشكالية وكان المخصيون هم الحل
- لكن نوار ..ابن اخي وليس عبدا لي

- ما الفرق....هو رجل غريب في البيت والحل واحد هو الإخصاء....هكذا فعلوا وهكذا سنفعل
- شيخ حسن ...السلف الصالح كان يشتري الخصيان من السوق ولا يطلب اخصائهم
- هذا يعني انه لو لم يشتريهم احد لم تكن هناك ثمة حاجة لإخصائهم...هذه تجارة والتجارة عرض وطلب.... ومثلما ترى ...هو إخصاء ايضا ولكن بصورة غير مباشرة
- شيخ حسن ...حديث الرسول واضح
- اكيد...الحديث منع الإخصاء ولكننا لن نخصي الولد ...الطبيب سيفعل ذلك ...كما كان النصارى يفعلون ويبيعونهم للمسلمين...لو كنا نفعل شيئا محرما هذا يعني ان كل العلماء والاولياء والصالحين دخلوا دائرة الحرام...على كل حال نحن نقتدي بهم في كل شيء...
- نعم ...هذا كل ما نفعله
- شيخ ابراهيم ...انت تعرف انني لا اقرب الحرام...ولو كان عندي شكا ولو بسيطا اننا سنفعل الحرام لما اقترحته عليك
- والدكتور...
- (لست عليهم وكيلا)...
- نعم
- اذا دعنا نفعلها وننتهي بأقصى سرعة
- لا ...الامر يحتاج بعض التخطيط...حتى لا يشعر احد بذلك

لم يثق شيخ ابراهيم بالتخريج الشرعي لشيخ حسن وبقت بعض الشكوك تراوده بين الحين والاخر، كان يعرف ان المسلمين استخدموا الخصيان طوال الزمن وكان يعرف ان بيوت الخلفاء والقادة بل وحتى العلماء ورجال الدين تكتظ بهؤلاء الخصيان ولكن الامر حينذاك كان مختلفا فهؤلاء كان يتم اخصائهم في

بلدان بعيدة ومن قبل غير المسلمين ليبعثوهم بعدها الى بلاد المسلمين وهذا يحول الامر الى شرعي بالكامل لكن الامر هنا يختلف فالدكتور سيفعل ذلك بطلب مباشر وبمعرفة ودراية وتخطيط من قبلهم ولهذا كانت شكوك الشيخ ابراهيم تتزايد رغم انه لم يرد ان يجادل الشيخ حسن مرة اخرى كما ان السؤال الاكثر حيرة الذي كان يحتل رأسه هو ما هو البديل، الواضح ان هذا هو الحل الوحيد الممكن لمثل هذه الحالة وهذا قد يحول الامر الى شرعي بالكامل، اعني انه سيعمل أثم بسيط وغير مؤكد ليتجنب أثم اكبر ومؤكد تماما فتحويل نوار الى كائن اخر بلا رغبة سيكون اقل وطأة من انتفاخ بطن واحدة من بناته وبصورة غير شرعية، والحقيقة ان الجد كان العائق الاكبر لأي حل اخر ممكن لأنه ببساطة كان يمكن ان يسمح لهذا الولد الالتحاق بأهل امه في هولندا وكفى الله المؤمنين شر القتال، لكنه هو من يدفع الامور لتصل الى هذه البشاعة رغم ذلك فان شيئا بداخله كان يصرخ به ان يتوقف ويعثر على طريقة اخرى من دون تدمير حياة ابن اخيه وهذا جعله يسأل الشيخ حسن

- لو كنت مكاني هل كنت ستفعل ما افعل الان
- لا طبعا....اجابه الشيخ حسن بهدوء
- وما الذي ستفعله حينها
- لا شيء
- نعم...لا شيء فقط
- نعم ....كنت ساترك الامور تسير كما تريد واذا حصل الذي اخشاه سأتصرف
- كيف
- لو فعلا حصلت علاقة جنسية بين ابنتي وابن اخي فسأقوم بتزويجهم عندها حتى ابي سيقتنع بهذا الحل

- وشرفك
- سيعود بعد هذا الزواج
- الشرف الذي تذرفه الخطيئة لا يعيده شيء شيخ حسن
- شيخنا...الشرف شيء نسبي ...فالأنسان يبقى شريفا مادام الاخرون لا يعلمون بحقيقته
- كيف
- نحن مثلا نحرض الناس ليل نهار على سفك دم بعضها البعض لكننا امامهم نحن ندافع عن المذهب فقط
- لكننا نفعل ذلك بالفعل
- شيخ ابراهيم هل تعرف لماذا يحبك الاستاذ ويفضلك على الجميع
- لأنني اعمل بشكل جيد
- لا طبعا فكلنا نقوم بعمل جيد ولكن لأنك تصدق ما تفعله
- ماذا تعني
- اعني انك تصدق اننا ندافع عن المذهب واستاذنا الذي لا يفارق بطل الويسكي يمكن ان يكون بطل ديني يدافع عن الله
- لكنني لا اعرف انه يشرب ويسكي ...هل انت رأيته يفعل ذلك
- لا حاجة لرؤيته فإنني اعرف انه ابعد ما يكون عن دين الله، ولو لا متطلبات السياسة لرأيت الويسكي لا يفارقه ابدا
- الذي اراه انك انت الان من يصدق اكاذيب العدو
- العدو...نعم...مهم جدا ان يكون هناك عدو ...لا لشيء فقط لنكون ابطال
- بصراحة ...لو لم تكن صديقي لقلت انك تعمل لصالح العدو

- الشيء الذي لا تعرفه صديقي ان هناك مسافة كبيرة بين ما تفعله وما تعرفه....كلنا يحتلنا هذا التناقض حتى الاستاذ، انت الوحيد الذي يصدق وهذه ميزتك الذي لا يمتلكها الاخرون

- لأنني اعرف انها الحقيقة مثلما اعرف ان ابن اخي سيعتدي على شرفي وحينها لن يكون امامي سوى طريق واحد هو ان اقتلهما معا...فهو الشيء الوحيد الذي سيعيد لي شرفي...امام نفسي وليس فقط امام الاخرين ولكن قل لي...اذا كنت تعتقد انني مخطئ فلماذا تساعدني....طبعا من اجل الوصول الى كرسي المكتب وربما الى قلب الاستاذ بعد ذلك

- ليس هذا فقط...بل هناك شيء اهم هو انني احتاج دائما الى جدار استند عليه داخل هذا العالم القاتل...انت جداري الذي لا ارفض له طلبا او مساعدة...ها انا اخبرك بكل شيء

- جيد....اذا سأكون جدارك وكن انت يدي التي تنفذ وعقلي الذي يفكر...بالتالي كلما زادت قوة الجدار ستكون انت بأمان اكثر

- نعم ...ولهذا يهمني ان تبقى قويا وقريبا من الاستاذ على الدوام

- الان....قل لي ...كيف سنتخلص من هذه البلوى

- طيب...ستذهب انت الى بيت ابيك ومعك قنينة ستستلمها من دكتور مصطفى سيكون عليك ان تضع قطرات من هذه المادة الى طعام ابن اخيك وعندها ستسوء حالته الصحية وتنقله الى مستشفى المحافظة الذي سيوصي الدكتور هناك بنقله الى احدى مستشفيات بغداد، عندها ستنقله الى المستشفى الاهلي الذي يديره دكتور مصطفى وهناك سيقوم بعلاجه في نفس الوقت سيحقنه بالدواء الذي سيقتل كل رغباته....

(٨)

شيخ حسن اخبر دكتور مصطفى انهم سيقومون بالعملية وشرح له الخطة التي سيجلب بها شيخ ابراهيم نمير للمستشفى الاهلي الذي يعمل به وطلب منه تحضير غرفة خاصة لاستقبال المريض، دكتور مصطفى ترك كرسيه خلف منضدة مملوءة بالمستلزمات الطبية الضرورية لفحص المرضى وجلس قبالة شيخ حسن وقال له

- تعرف ان الامر برمته مضحك وغريب
- كيف
- ان يتأمر دكتور اخصائي معروف مع شيخي دين يعملون في السياسة على طفل لم يتجاوز الخامسة عشر من العمر فقط لإسكات شكوك شخص مريض نفسيا
- ماذا تقول
- وماذا تعتقد انت...الا تعتقد ان الشيخ ابراهيم مريض نفسي
- تعرف دكتور ان الامور تجري بهذه الطريقة على الدوام
- كيف
- ألم يتأمر العالم كله على هذا البلد من وراء رجل مريض نفسيا...الا تعتقد انه كان كذلك عندما دخل الى الكويت
- نعم ...صحيح
- اذا كل ما في الامر اننا اخترنا ان نكون مع الجانب الاقوى
- كيف
- بالنهاية عليك ان تختار بين شاحنة المصالح التي يقودها شيخ ابراهيم وبين خصيتي هذا الولد

- لا...طبعا الشاحنة اهم بكثير ...رغم انني ما زلت اعتقد ان الامر مضحك
- اذا افعل ذلك وانت تضحك
- سأفعل بالتأكيد...لكنني اخاف ان ابكي في يوم ما
- عندما تفتح مشفاك الخاص وتستلم صناديق الادوية التي تباع بالصيدليات بألاف الدولارات ستنسى كل شيء
- تعرف اجمل شيء فيك دكتور حسن
- ما هو
- انك صريح جدا...حتى انك لا تعرف كيف تجمل الامور
- لأنها لا تحتاج الى تجميل...فكل منا عقد العزم منذ البداية ومحاولات اراحة الضمير هذه اجدها سخيفة ولا داعي لها اصلا
- ألم اقل لك ...انك صريح الى حد القرف
- اذا انسى صراحتي وقل لي كيف ستفعل الامر
- ما سأفعله بسيط جدا...سأمنح المريض مخدر وسأحقنه بهذه الحقن

واخرج صندوقا صغيرا يحوي على ثلاث حقن تلفها نشرة دوائية مكتوبة باللغة الانكليزية، حملت صندوق الحقن بين يدي وقلت له

- هذه فقط من ستقوم بذلك
- انت لا تعرف ثمن هذه الحقن ولكن الشيخ ابراهيم يستأهل
- ومتى سينتهي الامر
- المفروض خلال ثلاثة اشهر ...واحدة من هذه الحقن كل شهر لكنني سأنهي كل شيء خلال شهر وربما شهر ونصف
- هذا يعني حقنة كل اسبوعين
- نعم
- اذا علينا ان نرتب الامور
- كيف

- علينا ان نبقي الولد هنا في بغداد خلال هذه الفترة...انت ستخبره ان مرضه يحتاج الى مراجعة دائما ..ومن الضروري ان يبقى يشعر بالأم البطن خلال هذه الفترة

- هذه سهلة ....اعرف ان مشكلتكم الوحيدة ان لا يشعر الجد بأي شيء وان تتم العملية دون ان ينتبه الولد لما نفعله به...وانا سأكون حريص على ذلك

حدث الامر وكأنه غيبوبة طويلة استمرت لشهر كامل منذ اللحظة التي شعر فيها نوار ان سكاكينا تقطع امعائه وان خليطا غريبا يخرج من فمه فيبلل السجادة الايرانية ويغير ملامحها وكأن رسما سرياليا تشكل في جانبها وغير من شكل الزخرفة المليئة بالورود والاغصان لكن خليطا اخرا انتفض من مؤخرته في نفس الوقت بلل بنطاله وجعله يسبح داخل رائحة كريهة قبل ان يركض الجد وهو يصرخ

- بويه وليدي

لكن شيخ ابراهيم كان مستعدا بالكامل حيث حمله بكلتا يديه ومباشرة نحو السيارة، وضعه في حضن الجد وانطلق بسرعة نحو مشفى المحافظة، كان الدكتور هناك مستعدا ايضا عندما فحصه بسرعة وضربه حقنة مهدئة قبل ان يخبر الجد انه من الافضل له ان يذهب الى احد مستشفيات بغداد، سأله الجد بلغة متوسلة

- ولكن هل يتحمل الا ان يصل الى هناك

- نعم ..اعطيته حقنة مهدئة سيكون نائما حتى تصلون بسلامة

بسرعة كبيرة حملهُ شيخ ابراهيم ووضعه مرة اخرى في حضن جده وانطلقوا الى بغداد بعدها مباشرة اتصل بشخص وطلب منه ان يدله عن مشفى اهلي مناسب، قال ذلك بصوت عالي ولغة

واضحة، بعدها بقليل جاءه اتصال يخبره عن مكان المشفى عندها التفت الى ابيه وقال له

- رتبت الامور وسأنقله الى احسن المستشفيات

هز ابوه رأسه فأجابه شيخ ابراهيم

- هذا ابن الغالي...الله يرحمه

الوهم هو من تدثر به نوار طوال الايام الثلاثة في هذا المشفى فهو لا يتذكر شيئا في الوقت الذي رأى فيه اشياء عدة لكنها بطريقة واهمة فقط، يتذكر مثلا وجه الدكتور وهو يراقب نبضه ووجه الممرضة وهي تدفع الدواء الى فمه لكن وجها اخرا بدى اكثر بعدا وهو لشاب يرتدي بدلة بيضاء يدخل يده الى بطنه ويسحب شيئا ما، لم يفهم شيئا لكن يدا حديدية كانت تدخل الى بطنة في مكان قريب من السرة وتضخ داخله ماءً باردا ولكنه بطعم قريب من الكوكاكولا، لهذا عندما استيقظ رفع قميصه ونظر الى بطنه فرأى ندبة حمراء وهي الاثار المتبقية من حقنة يبدو ان قطر أبرتها الذي يخترق الجسد كان اكثر عرضا من الحقن العادية ولكن ما الشيء المهم في هذا الامر فهو كان مريضا جدا واستطاع ان يتخلص الان من هذه السكاكين التي كانت تقطع معدته وهذا هو المهم، في اليوم التالي اخرجه جده من المشفى بعد ان وعد الدكتور ان يزوره بعد اسبوع لأجراء الفحوصات اللازمة وليتأكد ان المرض قد غادره الى الابد لكن عمه كان حريصا على ان لا يغادره المرض فبقى الصبي متعبا او مغيبا عن العالم رغم ان الام البطن قلت بدرجة كبيرة وتحولت الى نبضات وجع صغيرة تراوده بين الحين والاخر كما عدم استطاعته تناول الطعام بشكل طبيعي اثر على هيئته فبدى ضعيفا متعبا اصفر اللون لا يتحرك الا بصعوبة رغم ان الشيء الاكثر ازعاجا كان وجع الرأس الذي لم يفارقه على الدوام، بعد

اسبوعين ساءت حالته مرة اخرى ودخل الى المشفى قبل ان يتأكد هذه المرة من ان شابا ببدلة بيضاء يقوم بحقنة بشيء ما في بطنه حتى ان شعر بوجع خفيف وتشنج اصاب منطقة الحقن والحقيقة ان هذه المرة لم يخدره الدكتور لان الصبي بدى متعبا وغير قادر على تحمل هذا التخدير الذي قد يأخذه الى غيبوبة طويلة لذلك اكتفى الدكتور بالتخدير الموضعي قبل ان يسمح له بالخروج في اليوم التالي بعد ان اعطاه جرعة من المقويات جعلته يشعر بالراحة لأول مرة منذ اسبوعين لكن هذه الراحة تحولت الى نوع من القلق لأنه بدأ يشعر بتغييرات تحدث داخل جسده وكأن كائن ما يسكن داخله يحاول اعادة توزيع مكوناته الداخلية بشكل اخر وعندما اخبر جده بهذا الشعور جاوبه ان الامر طبيعي بعد محنة هذا المرض وانه سيتحسن بالتدريج الشيء الذي لم يستطع ان يخبر به جده ان نوعا من التشنجات والالم بدأ يراوده في المنطقة التي تقع بين فخذيه حتى انه كان يدخل يديه ويفرك خصيتيه ليتخلص من هذا الوجع الذي لا يغادره الا بعد ان يتناول الاقراص المهدئة الذي كان عليه ان يأخذها ثلاث مرات في اليوم مع حفنة اخرى من الاقراص لكن شيئا ما كان يتحرك في هذه المنطقة، نوع من الحياة التي تذوي وتموت وتحاول الصراخ وكأنها تطلب النجدة هذه الحالة كانت تولد شعورا من القلق تجعلهُ ينزوي عن الاخرين ويحاول دائما الاختلاء بنفسه وتلمس خصيتيه لان ذلك يشعره بالراحة المؤقّتة قبل ان يعاوده القلق ونبضات الالم، كانت حربا داخلية هائلة جعلت من الصبي يركض نحو جده ويرتمي بأحضانه وهو يصرخ

- جدو...انا لست على ما يرام
- ماذا ...هل عاودتك الام البطن

- لا ...لكن شيئا يموت بداخلي...لا اعرف...ليس وجعا ...هو شيء اخر لا اعرفه...وجع من نوع جديد...الشيء الذي اعرفه انني لست على ما يرام

بكاء نوار جعل الجد يغير ملابسه ويذهب الى دكتور مصطفى الذي اخبرهم انه يعاني من حالة نفسية نتيجة المرض وانه سيتخطاها بسهولة وكتب له بعض المهدئات كما طلب منهم ان يراجعوه بعد اسبوع ليتأكد من زوال المرض بالكامل، المهدئات هذه المرة سحبت نوار الى عالم اخر، عالم بين اليقظة والحلم، في الحقيقة كانت نوع من المسكرات التي تمنحك نشوة غريبة وتسحبك من العالم الواقعي الى عالم اكثر احتمالا وهذا جعلهُ يشعر براحة غريبة رغم انه بدى غير واعيا واصبح يتكلم بطريقة غريبة كما انه يتصرف وكأنه تناول لتوه بطلا كاملا من الويسكي

- تعرف جدو ...عندما اخبروني بأني ابي وامي احترقوا في تلك السيارة لم اشعر بالحزن...نعم ..صدقني...لم اشعر انني حزين ...شعرت انني غبي فقط....لا...لا...لستُ غبيا بل مجنون لا يعرف ما يدور ما حوله وماذا يفعل وكيف يستمر بالحياة بعدهم...لم ابكِ...أي حمار انا....ابوه وامه يحترقون وهو لا يستطيع البكاء...لكنني لم ابك لأنني لم اشعر انهم ماتوا حينها.....اعني الموت بمعنى انني لم ارهم مرة اخرى ....في ذلك الوقت بدى الامر سخيفا ومضحكا اكثر منه مبكيا فما شأني انا بسيارة تحترق وهل يمكن لسيارة غبية مثلي ان تأخذهم مني، طيب لماذا لم اكن معهم ...الم يكن من الاسهل والاجدى ان اكون معهم...ها جدو...جاوبني ارجوك...لماذا اعرف الموت بمنطق الحياة...طيب من الذي قرر ان يأخذ الاثنين معا...اليس من الرحمة ان يترك لي واحد منهما...ربما امي فقط فهو يعرف ان

موت الامهات موجع جدا خاصة بالنسبة للذين لم يدركوا الحياة بعد...لكنني افهم جيدا انهم لن يعودوا...وربما علي انا اللحاق بهم...هل تعرف هذا المرض كان محاولة جيدة وعندما فشلت بدأ جسمي يتغير حتى ان(عندها يقترب من اذن جده ويبدأ يهمس له) خصيتي تحولت الى دعبلتين زجاجيتين لا يفيدان بشيء، لكن هذا غير مهم...لأنني سأموت بسهولة، لا يمكنني ان اكون هنا وهم في مكان اخر...لقد حاولت...لكنني افشل في كل مرة ...جدي ارجوك افهمني...لا استطيع الحياة بدونهما، خصيتاي عرفت ذلك...متى يفهم باقي جسدي انني لن اتحمل هذه الحياة الجديدة، آه ياجدي...انا متعب...متعب الى حد الموت....

قلق الجد وصل ذروته وهو يرى نوار يهذي بهذه الطريقة فما كان منه الا احتضنه وبدأ بالبكاء لكنه دفعه وقال له

- لا تبك...ارجوك...لا تبك...المصيبة اكبر بكثير من البكاء...هل تعرف جدي...في هذا النوع من المصائب يكون الموت هو ردة الفعل المناسبة وليس البكاء ...دعنا نموت فقط ونحن نضحك...نعم اضحك...جدي...اضحك...(يبدأ يدغدغ جده من ابطيه فيكف جده عن البكاء ويبتسم بينما يستمر هو بالصراخ)

- اضحك...اضحكوا كلكم ...اضحكوا

بعدها يترك جده ويذهب الى الحديقة الصغيرة لمنزل شيخ ابراهيم والتي تقع بالقرب من كراج البيت الذي يؤدي بصورة مباشرة الى الباب الخارجي ، في وسط تلك الحديقة تقع نافورة على شكل حورية بحر واقفة على زعانفها الخلفية وهي تمد يديها للأعلى بينما يتساقط الماء من يديها ليبللها بالكامل، على جوانب الحديقة وبالقرب من الحائط الخارجي للبيت تقف اشجار النارنج والبرتقال تحتها شجيرات الورد بينما يلتف الثيل الاخضر على

حول النافورة وبشكل جمالي رائع...يرمي نوار نفسه فتلفه رطوبة الحشيش ويشعر بنشوة غريبة وهو يتأمل البيت من الاسفل فيلتف رأسه بشكل نصف دائري حتى يسقط نظره على اصابع الحشيش التي تبدو اكبر حجما، من بين هذا الاصابع يسقط نظره على حفرة صغيرة يغطي وجه هذه الحفرة وجه سحلية صغيرة من النوع التي يسمونها العراقيون (حية ام سليمان)، تتأمل السحلية وجههُ فيتبادل النظرات معها، كانت قريبة منه وبدأ الخوف يغادرها فتخرج نصف جسمها من الحفرة عندها يمد يده بالقرب من السحلية، كان يعتقد انها ستهرب وتدخل الى الحفرة لكنها تبقى ثابتة في مكانها بل على العكس تتقدم وتصعد بهدوء على اصابعه لتتخطى يده نحو صدره وتبدأ تنزل نحو بطنه فيشعر نمير بدغدغة بسيطة لكنه يبقى ثابتا وهو يرى السحلية تمشي على جسده لتقف في النهاية بين فخذيه وتفتح قدميها وكأنها تريد ان تنام هناك او تبقى في ذلك المكان الى الابد في ذلك الوقت ينتبه الى ان سحالي اخرى تقف منتصبة وتلتف حول جسمه كله فيبدأ يعد هذه السحالي...

واحد، اثنان، ثلاثة، في الجانب الايمن منه، يعود يلتفت الى الجهة اليسرى فيستمر بالعد، اربعة، خمسة، ستة، بعدها يرفع رأسه ويرى سحليتين بين قدميه فيستمر بالعد، سبعة، ثمانية، لكن شيئا ما يبدأ يحرك شعرات رأسه من الخلف فيدرك ان سحلية تاسعة تتحرك خلف رأسه...

تسع سحالي بدأن يحرسنه من الهواء بينما تنام سحلية عاشرة بين فخذيه لتمنحه أمنا غريبا ودعوة هائلة للاستمرار بالحياة فأمه وابيه يرسلون هذه السحالي ليحرسنه من بشاعة العالم الذي لم يعد يستوعبه صبي لم يتجاوز الخامسة عشر من عمره، يشعر وكأنه يجلس في احضان امه فيغمض عينيه وينام....

في حوالي الساعة الرابعة صباحا يفتح عينيه فيجد نفسه في فراشه بينما الجد ينام بجواره على الكرسي وبصورة غير مريحة، يلتفت يمينا ويسارا لكنه لا يجد السحالي بعد ان رفعه جده بصعوبة ونقله الى فراشه، يصيح على الجد فيصحو فيسأله الجد بعد ان يمسح عينه بيده اليمنى

- كيف اصبحت

- جائع

شعر حينذاك بجوع كبير وهذا جعله يقفز من الفراش ويذهب الى الثلاجة ليلتهم موزتين وتفاحتين قبل ان يشعر براحة غريبة احس بها الجد فقال له

- سأذهب انا لأنام واذا احتجت الى شيء نادني

خرج نوار الى الحديقة وارتمى على العشب الاخضر وبدأ ينتظر ظهور السحالي لكنها لم تظهر الا بعد ان بدأ الجامع القريب بقراءة القرآن استعدادا لصلاة الفجر، عندما صرخ المؤذن (ان الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين أمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) خرجت السحالي وبدأت تتحرك بسرعة كبيرة حوله، كان يحاول ان يلاحقهم بنظراته ولكن دون جدوى لانهم كانوا يتحركون بسرعة ونشاط غريبين لكن عندما وصل المؤذن الى (حي على الصلاة) جمدت السحالي في مكانها بينما تقدمت السحلية العاشرة ووقفت قبالتهُ وبشكل مثير للدهشة والتساؤل في تلك اللحظة اصطفت باقي السحالي خلفها وكأنها تبدأ صلاة من نوع ما، صلاة لآلهة تجلس امامهم وعيناها تراقبهم بدهشة وتأمل، تساءل مع نفسه ان كانت هذه السحالي تعتقد انهُ ربهم فابتسم مع نفسه، مساكين ايتها الكائنات الصغيرة لأنك تعبدين ربا منتهك في كل ذرة من ذرات كيانه ولكن لابأس لأمنحهم رحمتي وبركاتي التي لم يمنحها لي رب ما، لم استطع ان اقف امامه وهو

الذي يرى ويسمع ولا يبالي، لكن هذه السحالي كانت تقصد شيئا اخرا لانهم بسرعة بدأوا يتسلقون جسده وهم يطلقون صفيرا خفيفا عندها بدأ يشعر بأنها تدغدغه وهي تتسلل من تحت كم قميص وبنطال البيجامة التي يرتديها وتلامس جسده فيقف وهو يصرخ بها

انتظروا....انتظروا

عندها يبدأ يخلع بيجامته وملابسه الداخلية سوى اللباس وينام على العشب فتهجم عليه السحالي عندها يشعر بدغدغة تجعله يقف ويركض في ارجاء الحديقة وهو يضحك بصوت عالي قبل ان يسقط مرة اخرى ويرفع حينها لباسه الداخلي فيظهر عضوه وقد تقلص ونام بينما تهدلت خصيتيه وتحولت الى اللون الازرق المتفحم لهذا تبتعد السحالي التسعة عنه وتتقدم السحلية العاشرة وتنام بالقرب من قضيبه وكأن تحاول ان تنمو من جسده لكنها تخرج لسانها الطويل وتبدأ تلحس قضيبه، نمير ينظر اليها بغرابة ووجع فهو لا يشعر بشيء رغم ان السحلية تحولت الى عاهرة تؤدي دورا ما في احدى الافلام الجنسية الأجنبية تعرف كيف توزع لحساتها المتوالية على اجزاء القضيب بالكامل لكن دون ادنى احساس او جدوى، حينها ادرك ان هذا الكائن الذي يشبه سحلية ميتة قد مات وربما للابد وان كل سحالي العالم لن تستطيع ايقاظه مرة اخرى لذلك دفع السحلية الصغيرة وغطاه بلباسه مرة اخرى قبل ان يقف ويرتدي ملابسه ويدخل الى داخل البيت.

(٩)

كانت بغداد تحترق والجثث المجهولة الهوية تملئ الشوارع فكل ما عليك هو ان تمر من في منطقة يقطنها اصحاب المذهب الذي لا تنتمي اليه لتموت بسهولة حتى انها تكاد تكون افضل طريقة للانتحار، الاماكن الوحيدة المؤمنّة بشكل جيد هي بيوت المسؤولين واتباعهم فهناك على الدوام جيش من حاملي الرشاشات يقفون عند ابوابهم بعد ان قطعوا كل الطرق المؤدية الى بيوتهم بالصبات الكونكريتية ولهذا لم تقترب السيارات المفخخة من هذه البيوت ووجدت لذتها في الاسواق والشوارع العامة وكل مكان ممكن ان يشهد تجمع سكاني من طائفة واحدة، نوار وجده لم يكونوا مشغولين بكل ما يجري بما ان البيت مؤمن بشكل حقيقي كما انه هناك نوع من الاتفاق غير المعلن بين السياسيين الذين يديرون لعبة الموت هذه بان لا يستهدف احدهم الاخر ويبقى الانسان الفقير هو المستهدف الاول لكن هذا الانسان في نفس الوقت هو اداة السياسي لقتل الاخر المختلف، بغداد تنام منذ الساعة الرابعة عصرا، تغلق محلاتها وتبدأ الظلمة تتجول في شوارعها التي لا تطأ اسمنتها سوى سيارات الشرطة وهمرات الجيش الامريكي، لكن من قرر ان يحدث كل هذا ببغداد ولماذا، الخوف منها هو الذي دفع العالم لتدميرها مع انه خوف غير مبرر، كانت تشبه كثيرا نوار ابن الهولندية التي اخذتها السيارة المفخخة قبل ان يفكر اقرب الناس اليه بتدميره وبهذه الطريقة البشعة، كانت المهمة ان تتخلص بغداد من نشوتها، من لذتها الكامنة في شوارعها وباراتها وحدائقها وناسها، ان تتحول الى كائن مختل لا يمكن تجنيسه ولا حتى الالتصاق به، هذه النقطة

بالذات هي من أرادو سلبها من هذه المدينة الغريبة هو الالتصاق فبالرغم تخلفها العمراني والتكنلوجي لكن الناس تلتصق بها وبطريقة غريبة ومن دون سبب واضح، كل من يراها ويعيش فيها حتى ولو لفترة قريبة تسكنه قبل ان يسكنها وتبقى معلقة بذاكرته الى الابد، بغداد الشكل الحقيقي للشهوة، الهيكل العام للذة والمعنى الحقيقي للشبق ولايمكن ان تصل الى هذه الملذات دون ان تمارس طراوة شوارعها وبلل بيوتها القديمة فللجنس في بغداد او مع بغداد نوع من النواح السري الصاخب الذي لا يمكن الخروج منه إلا للولوج فيه مرة اخرى ولهذا قرروا قتل الجزء الاهم فيها هو قدرتها على نشر النشوة وبطريقة لا يمكن ان تجدها في مكان اخر، الموت وحده من يحول الملذات الى نوع من الحزن المقرف والوجع اللامجدي والذي لا يؤدي الا اليه وما دام نوار يسكن في هذه المدينة سيشعر بذلك العجز وبفقدانه لرجولته التي لم تكتمل لهذا طلب من جده العودة الى القرية بعد ان فحصه الطبيب واكد للجد ان تخلص تماما من المرض بعدها أكد لشيخ ابراهيم انه تخلص من رجولته وتحول الى مسخ غريب لا ينفع بشيء رغم ذاك فشعورا بعد الارتياح بدأ يسكن شيخ ابراهيم فهو لم يفهم حقا لماذا قام بهذا الجنون وهل ان الامر يستحق ذلك ولماذا لم يفعل مثلما فكر الشيخ حسن عندها يقوم بتزويجه من احدى بناته التي مارست الخطيئة معه، لكنه عندما تخيله وهو ينام عاريا مع ابنته نبيلة ويوغل ذكره بكل قوة داخل فرجها بعيدا عن انظاره شعر براحة غريبة وبأن ما قام به هو عين الصواب حتى من الناحية الدينية فهناك بون واسع بين الزواج والزني الاول يلفه الاحتفال والفرح ويعتبر ضمن الكينونة الحقيقية للحياة والثاني يعتبر خروج فاضح على شريعة الله عقوبته الرجم حتى الموت حتى اذا كان المتخيل واحد وهو ان

نوار ينام عاريا بجانب نبيلة ويوغل ذكره بقوة داخل فرجها سواء كان زوجها او لا، بالتالي فأن جريمة شيخ ابراهيم مبررة بالكامل ما دام الله هو الذي خلق هذا التباين في الشكل بين شكل الجريمة في ممارسة الجنس من دون زواج وفقدان هذا الشكل في حالة الزواج، فما دام حصول الجريمة مؤكداً يصبح تجنبها امر ضروري ومرحب به حتى وان كان بجريمة اخرى، شيخ ابراهيم كان مقتنعا ان هذا التبرير سيرضي الله فيما لو سأله يوم القيامة عن ما فعله بهذا الصبي لان الله نفسه هو من قاد الامور الى هذا الفعل كما ان جريمة مشرعنة تاريخيا مثل الإخصاء تبقى أقل أثما من الزنى او عقوق الوالدين الذي تحتوي على نصوص صريحة بحرمتها، حتى انه ليس هناك نص قرأني يحرم هذا الامر بشكل واضح، فقط حديث نبوي يدخل ضمن اشكاليات الحديث الكثيرة والذي قد لا يتفق عليه الجميع، من هنا فالإخصاء لا يعتبر جريمة او ذنب حقيقي مقارنة بجريمتي الزنى وعقوق الوالدين التي جاءت بها نصوص قرآنية واضحة ومباشرة وحتى اذا كانت حرمتها صحيحة فهي اقل حرمة والشيخ ابراهيم اجتهد هنا بما انه ليس هناك نصا مؤكدا على ذلك، بل الحقيقة المؤكدة ان الخصيان كانوا في كل مكان وفي كل وقت من زمن الدولة الاسلامية بل في كل بيت من بيوت الملوك والامراء حتى بيوت العلماء ورجال الدين واصحاب المذاهب حتى ان بعضهم كان يزهد في الدنيا كلها ولايزهد في استخدام الخصيان لأنه يعتبره امر مشروع ولا غبار عليه، هذا التخريج الشرعي كان يدور ايضا في رأس الشيخ حسن الذي كان يرى في الإخصاء فعلا مقبول شرعا منبوذ من الناحية الاجتماعية فقط حاله حال الكثير من الزيجات المشرعنة مذهبيا والمنتبذة اجتماعيا ولكنه شيخ دين بالنهاية وما يهمه هو الشرع لا رأي المجتمع لهذا كان يتزوج

كثيرا بهذه الطريقة حتى انه لا يتذكر عدد النساء اللواتي مارس معهن الجنس بعد ان دفع مبلغا من المال وبمقدمات شكلية تقوده دائما الى الفراش ومع امرأة اخرى، الشيخ حسن جرب بهذه الطريقة كل الاشكال وكل الالوان وكل الاعمار ومن دون ادنى شعور بالذنب او بالاعتقاد ان ما يقوم به خارج حدود الشرع لكن ما كان يحيره هو رفض الشيخ ابراهيم لمثل هذه الزيجات مع اعترافه بشرعيتها الدينية وعندما طلب منه الشيخ حسن ذلك سأله بصورة مباشرة

- هل ستتزوجها برضى اهلها ...هل يعرفون بذلك
- لا اعرف ...ولايهمني ان اعرف...اجابه شيخ حسن
- ألم تفكر بردة فعلهم لو عرفوا
- شيخ ابراهيم ...ما يهمنا حقا هو ردة فعل الله وليس عباد الله
- بالنسبة لي لا استطيع ان انام مع امرأة لا يعرفون اهلها ذلك ولا يعتقدون ان ثمة وضعا غير طبيعي في هذه الحالة

شخصية شيخ ابراهيم كانت شخصية متجانسة جدا عكس شخصية شيخ حسن، الشخصية البراغماتية التي تحاول ان تجد مخارج شرعية لما يصب في مصلحتها الخاصة والحقيقة ان سليمة أخصته تماما منذ اليوم التي خرجت فيه من القرية وهي تضع يدها بيد استاذ ناظم، في حينها تولد لديه شعورا بالقرف من الجنس حتى عندما تزوج فأنه بمجرد ان يقوم من فوق جسد حسنة العاري فأن شعورا هائلا بالقرف والاحتقار يتملكه بالكامل وكان هذا الاحتقار يتحول بشكل لا ارادي الى حسنة ويمنعها من الشعور بأي لذة حتى ان حركة قضيبه داخل فرجها لا يولد لديها اي شعور بالنشوة سوى شعور بالانتظار في اللحظة التي يرمي فيها بذوره داخلها ويتركها قبل ان تتغير سحنته بالكامل وينظر

اليها نظرة ازدراء واحتقار واضحتين حتى انها يأمرها من دون ان ينظر اليها وبلهجة حادة ..

- هيا قومي واغتسلي بسرعة

وكأنه يريد ان ينسى كل الذي حصل قبل لحظات

سليمة قامت بذلك بالفعل، اخصتهُ ومنعت عنه اي شعور باللذة حتى انه لا يستطيع الوصول الى هذا الشعور وهو يقذف بذوره داخل رحم حسنة، لا يتأوه ولايفعل اي شيء ولا حتى يزيد من سرعة حركته فوقها، كان شعورا يشبه التبول ينتابه وهو يفعل ذلك وكانت حسنة تشعر بذلك وتعرف انه يبول داخلها فقط وعليها ان تقوم وتغتسل من هذه العملية المقرفة والتي لا داعي لها، الشيء الذي لا يعرفه شيخ ابراهيم ان حسنة كانت تمارس الجنس كل يوم، فأصبعها يستطع ان يعوض قضيبه بينما رأسها يعمل على رسم عملية كاملة برفقة ممثل تركي جميل يمتص شفتيها ويرضع نهديها ويوصلها الى حالة الشبق الكاملة، كانت تفعل ذلك وتلعن الساعة التي رأت فيها قضيب زوجها الذي لا يفعل شيئا وهذا جعلها مهووسة بمشاهدة المسلسلات التركية حتى مع اعتراض شيخ ابراهيم على ذلك لكنها كانت تستغل فرصة غيابه عن البيت لتفعل ذلك، كانت تتحول الى امرأة حقيقية مع الممثلين الاتراك وليس كما اخبرها ابراهيم، بل اكثر من امرأة، عاهرة تفعل كل شيء، من رضع القضيب حتى مص الخصيتين وكانت تتلذذ كثيرا وهي تجعل القضيب يتحرك بقوة بين نهديها قبل ان تدفعه بقوة نحو فرجها وهي تمتص شفتي الممثل التركي الذي كان يغير في كل مرة الوضع الذي يمارس الجنس معها، لقد جربت كل الاوضاع ونامت مع كل الممثلين الاتراك وسال فرجها بماء الشبق وهي تمتص لذتها بالكامل من اجسادهم البيضاء المائلة للشقرة بينما كان شيخ ابراهيم يعتقد دائما انها

ليست امرأة ولا تعرف طريقا من طرق اللذة وهذه اهم منحه منحها الله له لأنها لو لم تكن كذلك لعاش ساعات من الشك والقلق كانت ستدمر حياته وتمنعه من التقدم ولو خطوة واحد في مستقبله السياسي...

هنا تكمن اهمية ذلك فهي بالنهاية لا تخونه الا بخيالها وليس هناك أثم على هذا النوع من الخيانة رغم انها تشعر احيانا بتأنيب الضمير ولكن ليس لوقت طويل فبمجرد ان تدخل الحمام وتتعرى تدخل لوحدها وبصورة لا ارادية في عالم اللذة والشبق رغم انها كانت دائما تتمنى لو فعلت ذلك مع رجل حقيقي ولأنها كانت لا ترى في شيخ ابراهيم رجلا، هو شيخ دين وربما رجال الدين كلهم على هذا المنوال لا يعرفون كيف يمسون الجنس ويكتفون بالتبول داخل فروج نسائهم فقط، هكذا كانت تظن، تعتقد انه هكذا لأنه رجل دين وهي لا تعرف ان بعض رجال الدين يستطيعون ممارسة الجنس بطريقة اكثر اثارة من ممثلي افلام الجنس الامريكية، لكن كل الذي تفعله انها تستمر بالحياة من دون تهشيم بنية العائلة خاصة بعد ان انجبت ثلاث بنات واصبحت المأوى والمربي الوحيد لهن حتى يأتي اليوم الذي تزفهن فيه الى ازواجهن وتستريح من مراقبتهن، فبالرغم من عدم قناعتها بكلام زوجها لكنها بدأت تجد الاعذار لتبعدهن عن ابن عمهن وبصورة لاتثير شكوك الجد قبل ان يقع نوار مريضا ويذهب الى بغداد لكنهُ شفيَّ اخيرا بعد ان تحول الى كائن اخر وحان موعد عودته الى تلك القرية البعيدة التي تنام على كتف النهر لكنه قبل ان يغلق باب السيارة شاهد السحالي التسعة تقف في باب البيت، أبتسم وأشار اليهن ليصعدن الى السيارة، بسرعة تتسلق الواحدة إثر الاخرى اطار السيارة قبل ان تصل الى الدكة التي تقع تحت الباب وتختفي داخل السيارة عندها يلتفت الجد لنوار ويقول له ...

- هيا ..اغلق الباب ودعنا نذهب

لكنهُ يبقى للحظة ينتظر سحليته العاشرة التي تتقدم بخجل فتعلو ابتسامة خفيفة على فمه ويناديها بطريقة تثير دهشة جده فتركض بسرعة قبل ان تتسلق الاطار وتختفي تحت مقاعدها الوثيرة عندها يغلق الباب ويقول لجده

- الان نستطيع ان نذهب

حلم جماعي

(١٠)

في تلك الليلة شعر الجميع بارتياح كبير فدكتور مصطفى تلقى اتصال من شيخ حسن يخبره انه يستطيع مراجعة وزارة الصحة لاستحصال الموافقات الخاصة بفتح مشفى خاص في وسط بغداد اضافة على حصوله على أذونات تمكنه من امتلاك بعض الادوية ذات الاسعار الغالية من مذاخر الوزارة، هذه الادوية كانت مخصصة اصلا لأصحاب الامراض المستعصية وتصرف بشكل مجاني في العادة وهذا جعل دكتور مصطفى يرتمي على السرير في حدود الساعة الحادية عشر والنصف وينام من دون ان يفكر بشيء، شيخ حسن ذهب لزيارة غرفة شيخ ابراهيم الفارغة وتحسس الكرسي قبل ان يديره وهو يضحك لأنه اطمئن تماما انه سيجلس عليه في وقت قريب لهذا خرج من الغرفة وتوجه لبيته قبل ان يرمي نفسه على السرير في الساعة الثانية عشر الا ثلث ويغفو ليتعالى صوت شخيره في زوايا الغرفة، حسنة استطاعت الحصول على لحظات جميلة مع ممثل تركي يظهر لأول مرة وهذا جعلها تذهب الى السرير في الساعة الثانية عشر الا عشر دقائق، تتحسس نهديها وهي تصنع فتحة في ثوبها من الاعلى لتصل اليهما، تتلمس حلمتيهما بإحدى يديها ويدها الاخرى تتسلل الى فرجها وتبدأ تدعكه بلذة وهي تتخيل الممثل التركي الذي ضاجعته لتوها لكنها تشعر فجأة بتعب فتسحب يديها وتغفو، نمير يسمع صفير سحليته فينظر اليها تحت السرير ليراها واقفة تنتظره ان يستدعيها، يشير اليها بأصبعه فتركض بسرعة وتندس تحت بجامته وتنام لينام بعدها بقليل وفي الساعة الثانية

عشر، الجد اطمئن على حفيده الذي غادره الوجع وبدأت سحنته تستعيد نظارتها فيرمي نفسه على السرير في الساعة الثانية عشر وعشر دقائق وينام ، شيخ ابراهيم وحده لم ينم بسهولة فلحظة شك هائلة راودته جعلته يتقلب في فراشه قبل ان ينظر الى سقف الغرفة ويقول مع نفسه

يا آلهي...ماذا فعلت؟

فجأة بدى الامر له وكأنه خطيئة كبرى مع انه لم يشك قبل ذلك انه على حق في كل ما يفعله وقبل ان يسمح للشك ان يحتويه بالكامل تذكر انه يستطيع ان ينام مطمئنا الان بعد ان تأكد ان ليس ثمة قضيب يمكنه فض بكارات بناته الثلاث وهذا جعله يشعر بارتياح كبير فيغمض عينيه وينام في الساعة الثانية عشر والثلث، شوارع بغداد تبدو مظلمة وخالية الا من بعض جنود السيطرات الذين يتخلون عن حذرهم ويرقدون بينما يستمر النهر وحده في الحركة وهو ينشر نسائمه الباردة على المدينة كلها فيغفو الجميع بانتظار يوم اخر وجثث اخرى ووجع يتردد صداه في كل زاوية من زوايا هذه المدينة التي اخذت تغفو في الساعة الثانية عشر والنصف ليلا بالضبط....

لكن المدينة دخلت كلها في حلم جماعي فكل فرد من افرادها بدأ يتشكل في المكان ومع الناس الذين يعرفهم او الذي مر معهم في الايام الاخيرة بمحنة ما حتى اذا كان هو المتسبب في هذه المحنة، كلهم دخلوا في هذا الحلم وفي نفس الوقت القتلة والضحايا، المتآمرون والسياسيون والايادي التي تنفذ جرائمهم التي سدت بشاعتها عين الشمس مع ضحاياهم المنتشرة جثثهم في كل مكان، حلم جماعي كان يؤذن لبداية فترة جديدة ربما اكثر بشاعة وقسوة ما دام المسؤولين عن ادارة هذا الخراب هم انفسهم وهذا جعل بغداد تتحول الى شيء اخر، عالم اخر يشبهها

ولايشبهها فدكتور مصطفى وجد نفسه في شارع يشبه كثيرا شارع السعدون حيث تقع عيادته هناك ولكنه ايضا لا يشبه هذا الشارع لان البنايات تهدمت في اجزاء كثيرة منه كما انك لا تستطيع ان تلمح اشجار ابو نؤاس ولا النهر من بين درابينه الضيقة حتى السينمات اختفت وتحولت الى محلات لبيع الاطارات والعدد الطبية بينما لم يبق من تمثال عبد المحسن السعدون سوى رأس معلقة بالهواء وبشكل مثير للانتباه، تساءل الدكتور مصطفى عن هذا المكان الذي يعرفه ولا يعرفه وهو يمشي بحذر في ذلك الشارع الفارغ تماما، فجأة مرت بجانبه امرأة في الثلاثينات من العمر ترتدي ثوب مورد بورد كبيرة ويتهدل عنق هذا الثوب بشكل قسري يظهر من خلاله الخط الفاصل بين نهديها، يحاول ان يسألها لكنها تنظر اليه باستغراب وتذهب، قبل ان يجد الجد وهو يبحث عن نوار، يركض نحوه وهو يصرخ..

- دكتور هل صادفت نوار في مكان ما
- لا ...لم اره

يضع خصيتين سوداوين في يد الدكتور ويذهب، شيخ حسن كان يقف في باب الجامع القريب من ساحة التحرير التي تحولت الى حائط اسود لا يمكن العبور من خلاله وهو يدعو الناس للصلاة، عندما يرى الدكتور يصيح عليه

- دكتور ..الصلاة...قد قامت الصلاة ...

لكن الدكتور يتذكر انه لم يصلِ في يوم ما ولا يعرف حتى كيفية الوضوء رغم انه يعرف كيف يصلي الناس لهذا يتجاهل شيخ حسن ويعود ولكن قبل ذلك يخرج شيخ ابراهيم من داخل الجامع ولا ينتبه للدكتور وهو يمشي بسرعة الى مكان ما، يعود دكتور مصطفى ليرى نوار يجلس على رصيف الشارع المقابل وامامه

صناديق من الحقن التي تعطى لمرضى السرطان وبعض الامراض المستعصية الاخرى، يرفع نوار هذه الحقن ويرمي بها في الارض فتتهشم وينتشر الدواء على الارض بعضهُ متكون من مادة سائلة والبعض الاخر على شكل بودرة بيضاء اللون، يركض دكتور مصطفى محاولا منعه من تهشيم هذه الحقن لكنه يراوغ الدكتور وهو يرمي بها بقوة على الارض ويضحك، يضحك بشكل هستيري وبصوت عالي حتى ان فمه يبدأ يتسع ويتسع ليسحب دكتور مصطفى الى داخله فيحاول ان يتمسك بأي شئ ومن دون جدوى فيبدأ يصرخ

- لا...لا...

يبدأ صوته يتضح وهو يهتز على السرير قبل ان ينتفض وهو في حالة من الدهشة لا يستطيع ان يستوعب الذي يجري الا بعد لحظات عندما يتأمل غرفة نومه ويطمئن انه فيها وليس في اي مكان اخر، يتناول قدح الماء ويكع منه كمية كبيرة قبل ان ينظر الى الساعة التي كانت تشير الى الثانية والنصف ليلا بالضبط....

شيخ حسن يجد نفسه عاريا في نفس الشارع، جسده الاسمر المتهدل وعضوه الذكري النائم بين فخذيه يجعلانه يركض في مكان بحثا عن شيء يستر عورته لكنه ينتبه الى رأس عبد المحسن السعدون العائم في الهواء ويتمنى لو كان جسده مخفيا ايضا في تلك اللحظة فمن الصعب حقا على رجل الدين ان يمشي عاريا في الشارع، فجأة تظهر امامه حسنة بثوبها المورد المتهدل من جهة الصدر، تنظر اليه وتبتسم وهو يغطي عورته بكلتي يديه مطبقا ركبتيه على بعضهما لكن حسنة تلتف ورائه لترى مؤخرته المتهدلة والتي تبدو ككتلتين شحميتين متجاورتين يحاولان السقوط على الارض، يلتفت اليها قبل ان يهرب مبتعدا عنها، هناك يرى الدكتور مصطفى وهو يحاول ان يجمع الحقن

المنتشرة في كل مكان في الشارع، بعضها متهشم والبعض الاخر سالم، يجمع الحقن ويضعها باعتناء داخل صناديقها التي تحمل عناوين واستخدامات هذه الادوية، لم ينتبه له دكتور مصطفى لذلك يتركه ويستمر بالبحث عن شيء يستر عورته قبل ان يجد نوار يلعب مع ثلاث بنات صغيرات، يرمون جبته وعمته وملابسه الداخلية الواحد على الاخر وهم يتقافزون ويضحكون، يركض نحوهم، يحاول التقاط ملابسه لكن الملاعين يضعونه في وسطهم ويجعلونه يركض مثل المجنون بينما عضوه الذكري يتحرك بقوة ويرتطم بفخذيه من الجانبين، اخيرا وبصعوبة يلتقط ملابسه فيتركونه ويهربون الى مكان اخر، يرتدي الملابس بسرعة قبل ان يتقدم نحوه الجد وهو يقول له....

- الا تدعو الناس للصلاة
- ولكن لم يحن الوقت بعد
- من يقرأ من يكتب ايها المغفل....هيا ادعو الناس للصلاة

يقف شيخ حسن في باب الجامع وهو يدعو الناس للصلاة لكن الناس تنظر اليه وتضحك قبل ان تتركه وتذهب، فجأة يخرج شيخ ابراهيم من داخل الجامع فيناديه بصوت عالي

- شيخ ابراهيم...الصلاة
- ليس الان...ليس الان

يتركه ويذهب بسرعة قبل ان يجد نفسه داخل الجامع وهو يأم حشود كبيرة من المصلين يتقدمهم هو للصلاة، يبدأ يتكلم بشيء ما قبل ان يرفع يديه ويصرخ

- الله اكبر

في تلك اللحظة ينتبه على نفسه فيجد نفسه عاريا تماما، يلتفت للمصلين فيجدهم عراة بالكامل، يترك الصلاة ويحاول ان يخترق جموع المصلين لكنه يبدئون يضايقونه حتى ان البعض منهم يبدأ

ينبت اصبعه في مؤخرته وهو يضحك، يحاول التخلص منهم لكن البعض يجرون عضوه الذكري بينما يحاول البعض الالتصاق به من الخلف موغلا عضوه الذكري في آليته فيبدأ بتطويح يديه في كل اتجاه وهو يصرخ

- اتركوني....لا...لا...اتركوني

عندها يقفز من فراشه ويجد نفسه في غرفة نومه، يبدو متعبا ويتنفس بصعوبة قبل ان يشرب قدحا كبيرا من الماء وينظر الى الساعة التي كانت تشير للثانية والثلث ليلا بالضبط...

حسنة تجد نفسها في مكان لا تعرفه ولم تره من قبل لكنها تنتبه الى التناقض الكبير الذي يلف هذا الشارع فهناك الكثير من مكاتب الطيران ذات الواجهات الزجاجية الجميلة وقربها الكثير من البنايات المدمرة بالكامل حتى انها لا تعرف من هو صاحب هذا التمثال الذي يتوسط الشارع والذي لم يتبق منه سوى رأس معلق في الهواء، تنتبه الى طبيب ببدلته البيضاء يركض وراء نوار وبناتها ويحاول الامساك بهم فتحاول الوصول اليه ومنعه من ايذائهم لكنهم يختفون فجأة تاركين الكثير من العقاقير والادوية المنتشرة في الشارع، يبدأ الطبيب يجمع العقاقير عندما تصل اليه لكنها لم تجد رغبة في التحدث معه فتتركه قبل ان تصادف رجل عاري تماما يتفاجأ هو ايضا برؤيتها فيحاول ان يخبأ عضوه الذكري بكلتي يديه لكنها تلتف خلفه لتشاهد مؤخرته المتهدلة فتضحك بصوت عالي، فجأة يقف امامها زوجها شيخ ابراهيم ويسألها

- الى اين تذهبين

- لا اعرف...سأدخل الى واحدة من هذه الازقة

ينتبه شيخ ابراهيم الى ثوبها المتهدل من جهة الصدر وشعرها المتساقط على ظهرها فتتغير سحنته ويبدو عصبيا ويصرخ بها

- ولكن كيف تخرجين هكذا في الشارع
- لكننا لسنا في الشارع...الا ترى ...مجرد غرفة نوم اخرى لا داعي لها

يلتفت شيخ ابراهيم من حوله فتتركه وقبل ان تدلف الى احدى ازقة البتاويين ترى الرجل العاري وهو يرتدي ملابس رجال الدين ويدعو الناس الى الصلاة، بمجرد ان تدخل الى الزقاق ترى الممثل التركي الذي يظهر لأول مرة على الشاشة فتسأله

- كيف جئت الى هنا

لكنه يبدأ يتحدث معها بلغة تركية لا تفهمها فتقول له

- لا يهم...تعال

تمسك يده ويدخلان معا الى البتاويين

عندها تفز من نومها وابتسامة خفيفة مرسومة على شفتيها، تتناول كأس من الماء وتشربه وتنتبه الى الساعة التي كانت تشير الى الثانية وعشر دقائق بالضبط....

شارع السعدون بالنسبة لنوار مجرد خيالات وأضوية وواجهات لمحلات لا يعرف ماذا تبيع ففي كل مرة يمر من خلالها فيه يكون اما غارقا بموجة من الوجع او شبه مخدر لذلك يرى الشارع وكأنه حلم ناقص لكن هذه المرة يمكنه ان يتأمل ارصفته المرصوصة بالحجر المقرنص وبشكل غير جمالي، ينتبه الى محلات بيع العدد الطبية والى عمارة الاطباء في ساحة النصر والتي تقع فيها عيادة دكتور مصطفى، يتذكر ان شيئا ما أُستلب منه في هذا المكان، شيء لا يمكن اخبار الاخرين به لذلك يقرر ان ينتقم رغم انه غير متأكد من قدرته على هذا الانتقام ولا على مشروعيته فهو لا يعرف هل كان للطبيب يد في تورم خصيتيه واسودادهما ام ان ما عاناه من مرض هو من تسبب بذلك لكنه الامر يستحق فهو يدرك انه كان على الطبيب ان يفعل شيئا ما، على الاقل يخبره بالأمر اما ان

يتجاهله بهذه الطريقة حتى انه لم يخبر عمه ابراهيم ولا جده واكتفى بتخليصيه من وجع طارئ ليضعه داخل قلق لا ينتهي، فكرة الانتقام تتملكه بالكامل ومن كل الموجودين عدا جده وعمه لهذا يجد نفسه مباشرة في ساحة التحرير تحت نصب الحرية ويحمل بيديه جبة وعمامة وحتى الملابس الداخلية لشخص ما، لم يعرف تبعية هذه الملابس في بادئ الامر لكن في نفس الوقت التي تخرج به بنات عمه من نفق التحرير وهن يتراكضن ويلعبن يدخل من جانب شارع السعدون شيخ حسن، كان يعرفه فهو قد شاهده اكثر من مرة في عيادة دكتور مصطفى او بيت عمه شيخ ابراهيم لكن هذه المرة الاولى التي يراها فيه عاريا بهذا الشكل، يركض شيخ حسن نحوه محاولا استخلاص ملابسه من يديه فيرميها الى نبيلة وبسرعة كبيرة تلتقطها نبيلة لترميها الى اختها قبل ان تصل مرة اخرى الى نوار وشيخ حسن يركض ورائهم مثل المجنون بينما عضوه الذكري وخصيتيه يتحركان بقوة ويرتطمان بفخذيه على الجانبين، اخير تتناثر الملابس على الارض فيرتمي عليها شيخ حسن ويرتديها بسرعة ويتركهم، في تلك اللحظة بنات عمه يختفين ليجد نفسه على رصيف مدخل شارع السعدون مقابل مكتبة النهضة وامامه صناديق من العقاقير المختلفة بعضها تحتوي على مادة سائلة والبعض الاخر بودرة بيضاء، يبدأ يخرج الحقن ويرميها في الشارع فتتهشم وينتشر دوائها على الارض عندها يركض نحوه دكتور مصطفى محاولا منعه من تكسير الحقن لكنه يركض وهو يحمل احدى الصناديق بعد ان يرمي باقي الصناديق على اسفلت الشارع ويبدأ بتهشيم الحقن وهو يتجنب ان يمسك به دكتور مصطفى الذي يبدو متعبا وثقيل الحركة وهذا يجعله يتلاعب به كيفما يشاء، ينتبه الى شيخ حسن وهو يقف امام باب الجامع يدعو الناس الى الصلاة والى حسنة تترك عمه ابراهيم قبل ان

تضع يدها بيد شاب جميل ويدخلون الى احدى درابين البتاويين فيتركهم ويحاول الرجوع الى نفق ساحة التحرير للبحث عن بنات عمه لكنه يتفاجأ بوجود السحالي العشرة في احدى مداخل النفق، السحالي التسعة يركضن بسرعة ويتسلقن نصب الحرية ويتشكلن مع التماثيل المعلقة هناك اما سحليته العاشرة فتقترب منه وتقول له

- أ لم تفهم بعد
- ماذا
- لقد باعوا خصيتيك منذ زمن بعيد
- ومن قبض الثمن
- الكثيرون...الان كلهم جاءوا ليتأكدوا
- يتأكدوا ...من أيِّ شيء
- من انك لم تعد قادرة على ممارسة الحياة
- ولكن ...ما الذي فعلته لهم
- انت تفعل الكثير دائما...حتى من دون ان تعرف بذلك
- لكنني مجرد صبي صغير
- من قال ذلك...انت عالم واسع، عالم من الاراضي الخصبة والانهار العذبة والنواح اللذيذ، انت عمر الارض كلها وهم يعرفون ذلك
- والان ...ماذا افعل
- يجب ان ينتصب مرة اخرى
- من دون خصيتين
- نعم...يستطيع ان يفعل ذلك وستعثر على من يساعدك في هذا
- حقا..
- ايها الغبي ..من يستطيع تكذيب ما تقوله السحالي الصغيرة
- اذا تعالي ...دعينا ننام ونحلم بذلك اليوم

تركض وتتعلق ببطنه فيرى عضوه الذكري وهو ينتصب حتى يكاد يمزق سحاب بنطاله، ينظر اليه بسعادة وهو يصرخ

- انه ينتصب...انظري...انه ينتصب ....ينتصب...ينتصب

في تلك اللحظة يقفز من فراشه، ينظر الى عضوه الذكري النائم فيبتسم قبل ان يتناول كأسا كبيرا من الماء وينظر الى الساعة التي تشير الى الثانية بعد منتصف الليل بالضبط.. الجد الذي يرتدي الدشداشة البيضاء والعقال الاسود الذي يتربع فوق قطعة من القماش بخلفية بيضاء ينتشر فوقها مربعات سوداء لم يفهم ابنه شيخ ابراهيم في يوم ما كما انه لم يفهم وجوده الان في هذا الشارع الغريب الذي يتجول فيه الخراب كما تسيجه الانوار والمحلات والباعة لكن ما يهمه ان حفيده قد شفي تماما، تذكر ذلك وهو يقف امام عمارة الاطباء التي تضم عيادة دكتور مصطفى فيتركها ويمشي في الشارع وحده، في منتصف الشارع يرى خصيتين سوداوين فيتأملهما، يتملكه شعور مفاجئ بانه يعرف صاحب هاتين الخصيتين لكنه ليس متأكدا من شيء فيلتفت يرفع الخصيتين ويبدأ يبحث عن نوار، يراه يلعب مع بنات عمه قرب نفق التحرير فيطمئن قلبه وتتولد عنده رغبة بالصلاة ولهذا يتوجه الى الجامع فيجد شيخ حسن في طريقه فيطلب منه ان يدعو الناس للصلاة فصلاة الجماعة فيها اجر وبركة اكثر من الصلاة المفردة لكن الشيخ حسن يتعذر بان الوقت لم يحن بعد وهو لا يعرف ان الصلاة شهوة ايضا عندما تحضر في قلب الانسان فلا يهم الوقت لهذا يدعو شيخ حسن بالغبي لأنه لا يفهم ذلك رغم عمامته التي تملأ رأسه فيمتثل شيخ حسن لأمره ويبدأ يدعو الناس للصلاة لكن يده تصطدم بالخصيتين اللتين في جيبه فيقف ولا يدخل للجامع فهو يعرف انه لا تجوز الصلاة وهو يحمل اربع خصيات لهذا ترك الجامع وذهب يبحث عن نوار

ليودع الخصيتين عنده فيصادف دكتور مصطفى امامه، سأله عن نوار لكن الدكتور لم يره فيدفع اليه الخصيتين، شعر للحظة انهما يخصان الدكتور مصطفى اكثر من نوار قبل ان يعود للجامع ويرى شيخ حسن يخرج منه عاريا فيركض وراءه محاولا الاستعلام عما يحدث لكنه يتعثر فيسقط قبل ان يقفز من فراشه ويشرب قدحا كبيرا من الماء وينظر الى الساعة التي كانت تشير الى الثانية الا عشر دقائق بالضبط...

لم يكن حلما فكل شيء كان حقيقيا الى درجة كبيرة وشيخ ابراهيم كان يتحسس كل ذلك بشكل حقيقي فشارع السعدون هو شارع السعدون وتمثال عبد المحسن السعدون يقف منتصبا بالكامل وليس رأسا معلقا بالهواء حتى المحلات وعمارة الاطباء كانت كما هي في الواقع وهذا يبدو منطقيا في حالة الشيخ ابراهيم لأنه في العادة لا يعرف كيف يزيح فكره عن ما يعتقده اصلا حتى اذا اكتشف انه كان مخطئ والحقيقة انه لم يعتقد ذلك في يوم ما لكن الامور بدت احيانا هكذا فهو لم يخطئ عندما قتل سليمة لكن مع نوار كان الامر يختلف قليلا ربما لأنه لم يفعل ذلك نتيجة لفعل عمله نوار اصلا ولكن نتيجة لتوقع ما وهذا جعله يشعر احيانا انه ارتكب خطيئة بشكل او باخر لكن ما الذي يفعل وحده في شارع السعدون من دون حماية وسيارات دفع رباعي حتى ان الامر يبدو مستحيلا قبل ذلك لكن الان الشارع فارغ الا من رجل يجمع اشياء من الارض، يتوجه اليه فيكتشف انه دكتور مصطفى يجمع حقن منتشرة في الشارع ولان الدكتور كان منهمك بمطاردة هذه الحقن يتركه ويذهب الى الجامع وقبل ان يدخل يتفاجأ بحسنة وهي ترتدي ثوب مورد بصدر مفتوح، ابتسمت عندما رأته وبدى ذلك غريبا، حاول ان يصرخ بها لكن صوته جاء هادئا يكاد لا يسمعه احد هي ايضا اجابته بهدوء ودلفت الى احدى درابين

البتاويين، تركها ودخل الى الجامع، كان الجامع فارغا الا من اخيه سعود وزوجته منال، كانا في حالة انجذاب قبل ان يصيحوا

- الله اكبر

ويقوما للصلاة، لكنه انتبه الى ان منال لاتضع شيئا على رأسها فركض نحوها واوقفها عن الصلاة وصرخ بها

- لا يجوز...استري نفسك اولا

عندها توقف سعود عن الصلاة والتفت نحوه وسأله

- وانت
- انا
- هل سترت عورة اخيك بعد ان كشفها الوقت
- ها....نعم ...فعلت ما بوسعي
- كاذب وملعون اخي
- ممكن اسألك سؤال شيخنا....قالت له منال
- اسألي
- لو كان الامر بالعكس...انت لديك ثلاث ابناء...ونحن لدينا بنت واحدة ...هل كنت ستفعل ما فعلته بنوار بأولادك الثلاثة
- ها...لا اعرف...ربما...
- لا ...انا اعرف انك شعرت الان بقسوة ذلك...وادرك تماما انك لن تفعلها
- لكن تبقى ابنة اخي وهي شرفي ايضا
- انت لم تفكر بذلك عندما تخيلت ما يحصل لأولادك الثلاثة
- انا لا اعرف...هذه فرضية فقط
- لكن المفروض المبادئ لا تتجزأ....الدين لا يتجزأ...انت لا تعتقد ان امرأة مثل منال ممكن ان تصلي بلا حجاب على كل حال...قال له سعود وكأنه يهمس بأذنه
- وماذا تريدون مني الان

- لا شيء...اردنا ان نخبرك فقط ان هناك من يخونك الان في هذه اللحظة
- يخونني
- اقصد تخونك

تذكر ان حسنة تركته ودخلت الى احدى درابين البتاويين عندها شعر بالكارثة وانه لابد ان تكون حسنة في احدى البيوت المشبوهة في هذه المنطقة، كان قد سمع بذلك من شيخ حسن رغم انه لم يذهب في يوم ما الى هناك وكان يظن ان شيخ حسن يبالغ في هذا الامر لذلك ترك الجامع وركض بسرعة، عند باب الجامع وجد شيخ حسن وهو يدعو الناس للصلاة فصرخ به شيخ حسن يدعوه للصلاة لكنه لم يبالي وركض بسرعة الى الزقاق التي دخلت فيه حسنة، كان الشارع فارغا لكن سرعان ما خرجت النساء من البيوت وهن شبه عرايا، كنَّ يدعونه للدخول وكان هو يهرب منهن لكن امرأة كبيرة في العمر اعترضت طريقة، كانت ترتدي ثياب داخلية تظهر جزء كبير من نهديها المتهدلين، سحبته نحوها وهي تصرخ به

- تعال حبيبي

وضعت رأسه بين نهديها وبدأت تحركه حتى يلامس حلمتيها من الجانبين، حاول هو ان يتخلص منها ولكنها كانت اكثر قوة ولم تسمح له بالخلاص منها، حاول ان يصرخ بلا جدوى ففمه كان يدخل بالكامل داخل نهديها فشعر باختناق فضيع وكأن رئتيه اصبحتا تطلبان الهواء بكل شغف وهذا جعله يقفز من فراشه وهو يأخذ نفسا عميقا وكأن شخصا ما انقذه من غرق مؤكد، التفت الى الغرفة فشعر بشيء من الارتياح، شرب قدح كبير من الماء ونظر الى الساعة التي كانت تشير الى الثانية الا ثلث بالضبط....

ما بين الساعة الثانية عشر والنصف والواحدة والنصف، بغداد عاشت ليلة غريبة لم تعشها منذ سنوات، وكأنها قررت ان تدخل في احلام الجميع وتتحول الى شكل ما، تتمشى داخل شوارعها وتربت على ظهر خرابها وتتنفس هدوئها وتحاول ان تلعق جراح الجميع الذين ناموا وكأنهم لم يناموا من قبل، اهالي بغداد رقدوا وكأنهم يستعدون لرقدة ستستمر لسنوات حتى ان الازواج لم يتحارشوا بزوجاتهم في تلك الليلة، الامهات اللواتي فجعن بأولادهن نسين كل شيء ونمنَّ، الزوجات التي ترملت احلامهن في لحظة واحدة تركن كل الموت خلف ظهورهن ورقدنَ، الشباب الذين سيموتون في يوم قادم لم يبالوا بهذا الموت المؤجل وناموا قبل ان يظهروا كلهم في حلم واحد وكأن المدينة اعادة انتاج الحياة ولكن هذه المرة في حلم جماعي جعلت الشوارع تمتلئ بالناس والحياة تتحرك مرة اخرى، الجميع حقق كل رغباته دفعة واحدة، الموتى رجعوا وكأن الرب قرر ان يمنحهم اجازة من الموت، الجنود والمسلحون رموا اسلحتهم او هي تبخرت فجأة وقرروا ان يضيعوا في حفلة رقص عارمة في شوارع المنصور، بينما تجمع الشعراء في شارع المتنبي وقرأوا قصائدهم الذين لم يسبقوا ان كتبوها قبل ذلك حتى انهم عندما افاقوا شعروا بالحسرة لانهم لا يتذكرون هذه القصائد فهم كانوا متأكدين انهم كتبوا اجمل قصائدهم هناك، ارتدى الفقراء بدلات بربطات عنق ودفعوا اعمالهم الصغيرة داخل الازقة الضيقة، كان حلما عظيما لا يحدث كل مرة او ربما يحدث كثيرا من دون ان يذكره احد، هناك شيء ما يجعل هذا الحلم شخصي بطريقة ما رغم ان الجميع اشتركوا فيه قبل ان تقفز المدينة وتشرب نهرا كاملا وتعود للنوم مرة اخرى بينما كانت الساعة تشير الى الثانية والنصف ليلا بالضبط....

الفصل الثالث

النوم مع سحلية ميتة

عمي شيخ ابراهيم

بعد التحية والسلام

اعرف انك تبحث عنا منذ عشر سنوات واعرف انك ادركت مؤخرا انك لن تستطيع الوصول الينا مهما حاولت رغم منصبك كمحافظ لواحدة من كبرى المدن العراقية واعرف ايضا انه ليست ثمة طريقة تجعلك تغفر لنا ما فعلناه بك وانك ستعيش عمرك كله تحلم بذلك اليوم الذي تطلق فيه رصاصات مسدسك حتى تستقر بأجسادنا، اعرف كل ذلك لكنني اترجى شيئا في داخلك لم تكتشفه بعد ربما يكون وهما فقط وربما يكون مختبأ على الدوام وراء ما تعتقده كما انني لا اريدك ان تتخلى عن حلمك بقتلنا فربما تصل الينا في يوم ما بطريقة او بأخرى عندها لن اعارض ان تقتلنا كما قتلت عمتي سليمة من قبل، حتى ما فعلته بي رغم انه دمر حياتي بالكامل وجعلني اركض وراء احلام ناقصة لكنني اغفره لك، لقد نسيت كل شيء واستطعت الحصول على حياة مقبولة رغم ذلك فانا لا اطلب منك ان تنسى اتمنى عليك ان تمنح حسنة ايام قليلة لترى بناتها، شوقها لرؤية البنات حول حياتنا الى كابوس حقيقي حتى ان الموت يبدو اكثر راحة مما هي فيه الان، اتمنى عليك بروح ابيك وبروح ابي الذي اخذته سيارتك المفخخة ان تمنحها هذه الفرصة، بعدها تستطيع ان تفعل ما تشاء

أبن أخي نوار

بعد التحية والسلام

انت تعرف انني طلقت حسنة منذ سنتين عندما عرفت انكم وصلتم الى هولندا وستسقرون هناك كما انني لن امنع أم من رؤية بناتها لذلك تستطيع ان تحظر في أي وقت لرؤيتهن والسلام

عمك شيخ ابراهيم

...

عمي شيخ ابراهيم

في الحقيقة انا لا اثق كثيرا بوعود شيوخ الدين وادرك تماما انك لن تتنازل عن انتقامك على اي حال لذلك اتمنى ان توافق على ارسال البنات الثلاثة الى هولندا وانا سأقوم بكل الاجراءات اللازمة

والسلام

حبيبي نوار

بما انك تعرفني جيدا فلابد انك تفهم انني لن اغامر بأرسال بناتي الى هناك ولن اقبل ان يعشن في بلد اجنبي على الاطلاق لهذا هناك طريق واحد امام حسنة اذا ارادت ان ترى بناتها هو القدوم الى بغداد

والسلام

بعد شهر

السيد المحافظ

الشيء الذي يجب ان تعرفه انني الان موجود برفقة حسنة وصديق قديم لك في احدى الدول العربية وسأقوم بأجراء لقاء مع واحدة من القنوات العراقية افضح فيها كل ما فعلته بي وبالأخرين، سيعرف الجميع ان زوجتك هجرتك لتهرب مع ابن اخيك ويعرف الجميع مهمتك الطائفية التي ادت الى مقتل العشرات من الشباب في سنوات الخراب تلك، سأصرح بكل شيء، كل ما اعرفه عنك وكيف انك قمت بإخصائي بمشاركة شيخ حسن ودكتور مصطفى، ستقول انه من السهل عليك ان تنكر كل ذلك ولن يصدقني احد، اعتقد ان الصورة المرفقة ستكون كفيلة بأن يصدقني الجميع، امامك اسبوع واحد اما ان توافق على ارسال البنات او سأقوم بإجراء اللقاء وبثه عبر احدى القنوات ....

والسلام

المرفقات: صورة تظهر فيها حسنة ونوار وبقربهم دكتور مصطفى

بعد يومين

عزيزي نوار

لا املك وقتا لألعاب الاطفال هذه، ومثلما اخبرتك سابقا هناك طريق واحد لحسنة كي تتمكن من رؤية بناتها هو الحضور الى بيتي في بغداد والعنوان تعرفونه جيدا....ولا داعي لا رسال المزيد من الرسائل، كما انك تستطيع ان تفعل ما تشاء

والسلام...

في نفس المقهى البغدادي في الاردن والذي قابل فيه شيخ ابراهيم المثقفين العراقيين الثلاثة في نهاية التسعينات الذين ارشدوه على طريق الحزب جلس نوار ينتظر صديقه حسام الصافي، المقهى لم يتغير كثيرا لكن رواده تغيروا بالكامل فبعد ان كان يجتمع فيه كل الكارهين والحاقدين والهاربين من حكومة الدكتاتور اصبح تجمعا لمحبي الديكتاتور بعد ان باعه صاحبه عام ٢٠٠٤ الى واحد من ضباط المخابرات في زمن البعث وعاد الى بغداد، كان التلفاز الكبير المعلق في احدى زوايا المقهى يبث مقاطع من خطب الديكتاتور في سنوات الثمانينات والتسعينات تتخللها اغاني الحرب او الاغاني التي تكيل المديح له والذي صدح بها معظم المطربين العراقيين بل وحتى العرب حينذاك لكن كل هذا لم يكن يعني شيئا لنوار الذي ابتسم وهو يرى صديقه الذي لم يره منذ سنوات يدخل الى المقهى، نوار التقى حسام في احدى محطات المترو في هولندا، كان جائعا وفي حالة يرثى لها فهو وصل عن طريق المهربين الى هذا البلد ولم يعرف ماذا يفعل حتى انه تجنب الذهاب الى مركز الشرطة كما اوصوه المهربين لأخذه الى المكان المخصص لإيواء المهاجرين الذين يدخلون الى هذي البلاد بشكل غير قانوني لأنه كان يعرف ان الامور هذه الفترة لم تكن على ما يرام والحكومة الهولندية بدأت تعيد الكثير منهم الى تركيا وباتفاق مع السلطات التركية لهذا بقى ضائعا لا يعرف الى اين يتجه حتى قابل نوار الذي اخذه للبيت عنده ومنحه عملا في عيادة جدته قبل ان يحصل له على الاقامة، نوار كان يحتاج حينها الى صديق يسمعه وحسام كان يسمع بشكل جيد، حسام

الشاب المثقف خريج اكاديمية الفنون الجميلة قسم السمعية والمرئية والذي قدم مجموعة من الافلام الوثائقية والقصيرة استطاع ان يحصل من خلالها على بعض الجوائز العربية والذي قرر ان يهاجر بعد ان اصبح مطاردا من قبل اشخاص لا يعرفهم وبعد ان تلقى تهديدات كثيرة وبأشكال مختلفة، علاقة نوار بحسام تطورت بسرعة حتى انهم اصبحوا لا يفارقون بعضهم البعض وهذا جعله يخبره بقصته منذ اليوم الذي شعر فيه ان هناك سكاكين تمزق امعائه حتى ذلك اليوم الذي عاد فيه للقرية برفقة السحالي العشرة لكنه توقف عند هذا الحد حتى مع طلب حسام بأن يكمل له القصة وكيف وصل الى هولندا بعد ذلك لكنهُ بدأ يتهرب وحسام شعر بأن هناك امور شخصية وربما لا يستطيع التحدث عنها فاحترم ذلك ونسى الموضوع، أحتضن كل منهم الاخر قبل ان يجلسوا ويطلب نوار قدحين من الشاي، سأل كل منهم الاخر عن حاله قبل ان يسأله حسام

- ما الذي جاء بك الى الاردن
- لأكمل القصة
- أي قصة
- قصتي ...ولكن ليس لك فقط
- ماذا تعني
- نعم ...سأخبر الجميع بها
- هل انت جاد
- نعم...واحتاج مساعدتك في ذلك
- بصراحة...انت أقلقتني

هنا يدخل دكتور مصطفى، يبدو انه قد كبر كثيرا وملامح التعب والكبر واضحان على ملامحه، يقدمه نوار لحسام

- دكتور مصطفى

- اهلا...حسام الصافي
- اهلا
- حسام...انت سمعت بالدكتور من قبل...

يحاول حسام ان يتذكر

- لا والله...لا صغرا فيك دكتور
- حسام...شارع السعدون ..هناك في العيادة التي تم إخصائي فيها

تتغير ملامح حسام وينظر بدهشة نحو دكتور مصطفى قبل ان يصرخ

- هو...
- نعم....انا....يجيب دكتور مصطفى
- لكن لماذا
- هذه قصة اخرى دعونا نشرب الشاي وسنخبرك بكل شيء، في البداية عليك ان تقرر أن كنت ستساعدني ام لا
- وهل املك خيار غير مساعدتك...يجيب حسام
- طبعا
- تعني ان اصبح ناكر للجميل...لا ...طبعا...سأفعل ما تريد ...تأكد من ذلك

تركوا المقهى وذهبوا الى الشقة التي يقطن فيها نوار حيث اعدت لهم حسنة طعام الغداء وبعد ان شربوا الشاي التفت دكتور مصطفى الى حسام وقال له

- انت سألتني لماذا؟

في الحقيقة ليست ثمة اجابة واضحة على هذا السؤال سوى وعود شيخ حسن لي حينذاك فلقد حصلت على موافقة وزارة الصحة على بناء مشفى اهلي في وسط بغداد، كان هذا حلمي منذ ان كنت اعمل في الاردن وقبل ان اقابل الاستاذ عبد النور وانضم الى

الحزب هناك لكنني لم أكن احب الارتباط الحزبي لهذا لم ينظر الي الحزب على انني عضو بارز فيه وبقيت دائما على الهامش حتى بعد ان تعرفت على شيخ حسن وطلبت منه الحصول على تلك الموافقات من الوزارة لكن لا شيخ حسن ولا عبد النور كانا يبالون بطلباتي لأنني انا اصلا لم أبال بالحزب ولم ارتبط فيه بشكل حقيقي لذلك عندما طلب مني شيخ حسن ان اقوم بإخصاء نوار كنت في غاية السعادة لان هذه العملية ستكون طريق فعلي للدخول الى الحزب والحصول على مشفاي، في البداية كنت اعتقد انه يعاني مرضا في الجهاز التناسلي يتطلب مثل هذا العمل لكنني عندما عرفت السبب الحقيقي اصابني قلق حقيقي فالمطلوب مني هو انهاء الحياة الجنسية لشاب صغير ومن دون سبب حقيقي، لم يكن تواجده قرب بنات الشيخ ابراهيم سببا ولم اكن اعتقد ان هناك من يفكر بهذه الطريقة كان وهما حقيقيا لكنه يمنحني مشفاي الخاص بالنهاية ويمنح شيخ حسن كرسي المكتب الرئيسي للحزب في بغداد، بدى الامر وكأنه نكتة، لا شيء يمنحنا كل شيء، جنون يمنحنا كل ما نحلم به لهذا لم نناقش شيخ ابراهيم وفعلنا ما طلب منا بالضبط وبالشكل المطلوب، أخصيت نوار وحصلتُ على مشفاي الخاص وكميات كبيرة من الأدوية التي تساوي الاف الدولارات، لكن الامر لم يستمر على ما هو عليه فلم اكن أعرف ان شيخ حسن سيشاركني في ارباح المشفى ويطلب مني ثلاثة ارباع من اموال الادوية التي كنت اوزعها على الصيدليات والمذاخر الخاصة، في البداية لم أهتم للأمر لان ما يتبقى لي من ارباح كان كبيرا بالفعل لكن بعد ذلك تطور الامر كثيرا حتى وصل الا انهم طلبوا مني ان ابيع المشفى لأحد الاطباء الذي كانت تربطه علاقات مع الاستاذ في الخارج، رفضت بقوة حتى تطور الامر الى التهديد المباشر لكنني لم اكن

مستعد للتنازل عن حلمي كذلك لم اكن اتصور انهم سيختطفون زوجتي ويجبرونني على بيع المشفى وبالسعر الذي حددوه هم، بعدها طلبوا مني مغادرة العراق وهذا جعلني ابيع بيتي واسافر الى الاردن، كنت متعبا ولم احاول العمل هنا، كنت ضائعا ولا اعرف ماذا افعل لكن الشيء الذي اتعبني كثيرا هو ما فعلته بنوار، ادركت فجأة حجم الكارثة التي صنعتها بهذا الشاب لذلك بدأت ابحث عنه سألت كل معارفي في بغداد وبعض ممن مازالت لي علاقات معهم في الحزب وعرفت انه سافر لكنني لم اعرف الى اين وبعد جهد طويل استطعت الوصول الى حسابه في الفيس بوك واتصلت به، لم اطلب المغفرة لكنني عرضت عليه ان افعل أي شيء لأعوضه عما فعلت به، اجابني حينها بكلمة واحدة

- انسى

لكن قبل شهر اتصل بي وسألني ان كنت مستعدا لأفضح كل ما فعله في احدى القنوات التلفازية، لم اتردد ووافقت ، كان ذلك جيدا بالفعل ويمنحني راحة كبيرة وانتقام حقيقي، اخبرني انه سيتصل بي عندما يصل الى الاردن ويرتب الموضوع...

- لكن قد تصبح مطلوب قضائيا حينها...سأله حسام
- لا يهم...على كل حال فانا لن اعيش طويلا واريد ان انهي هذا الامر قبل ان اموت

التفت حسام الى نوار وقال له

- هذا جيد بالفعل ...سيكون دكتور مصطفى دليلا مهما لكن قبل ذلك اريد ان اعرف كل شيء، كل ما حصل لك، حتى التفاصيل الدقيقة ستكون مهمة عندما اطرح القصة في التلفاز، لا اسرار هنا ولاشى يمكن تجنبه اذا شئت ان ينجح البرنامج ويفضح هؤلاء المجرمين

دكتور مصطفى حاول الاستئذان والمغادرة لكن نوار طلب منه الجلوس، قال له

- سيكون من الضروري ان تعرف ماذا فعلت يداك....اجلس ارجوك

لا اعرف حقا من أين أبدأ، اشياء كثيرة حصلت في فترة قصيرة لكن اهمها انني بدأت اشعر بأشياء تتغير داخلي، اول هذه الاشياء كان صوتي، كان شخص اخر يتكلم بداخلي وكنت التفت كلما تكلمت لأرى ذلك الشخص، جدي لم ينتبه، هو اصلا كان يعاني اختلالات في السمع لكن حسنة انتبهت وسألتني عن ذلك، لم اكن املك جواب سوى المرض رغم ذلك فهي لم تقتنع وبدأت تلاحظ كل التغييرات الحاصلة في شخصيتي، تحولت الى شيء اخر كنت اضحك لأسخف نكتة او موقف وابكي ايضا من اشياء تافه، كنت اشعر بحاجة حقيقية الى الاحتضان لكن الشيء الاغرب ان ذلك الشعور الجميل الذي كنت اشعر به عندما اقترب من بنات عمي قد اختفى وحل محله شعور جامد وغير مبال، ما الذي يحدث لي؟ كنت احتاج اي شخص لأسأله ذلك ولكن مَن؟ لا أحد ينفع لمثل هذه المهمة لا جدي المتعب ولا حسنة التي كانت تبدو محرجة مني على الدوام رغم انها كانت ترى كل شيء ولا تجد تفسير لذلك، بعد ايام بدأت تظهر علي حالة غريبة هو انني بدأت اتبول في الفراش، كنت الم الشراشف واخبئها تحت السرير حتى اجد لفرصة لغسل موقع البول قبل ان افرشه وما زالت رائحة الرطوبة تغطي كل شيء، كان كل شيء صعبا والحياة بدت وكأنها مواجهة مع شيء لا اعرفه، شيء هائل وقوي وقادر على الانتصار في كل مرة وهذا جعلني اهرب من البيت دائما واعيش ساعات طويلة وانا اتأمل النهر قبل ان يجلس بقربي شاب جميل الهيئة اسمر البشرة ولكنه يبدو مرحا وذكيا بطريقة ما

- اهلا
- اهلا
- اني مصطفى جمال...
- واني نوار سعود
- اعرف
- تعرف....كيف
- ابي اخبرني الكثير عنكم
- عنا
- اقصد عنك وعن ابيك رحمه الله...كان صديقه المقرب هنا
- اها...نعم تذكرت ...
- هل تحب كرة القدم
- نعم...لكنني لا العب كثيرا
- اذا تعال معي

حسنة كانت قد انتبهت الى معاناتي وكل التغييرات التي اصابتني فذهبت الى بيت حجية سريوه وطلبت من مصطفى الاقتراب مني، كانت تعرف انني بحاجة الى شخص اتحدث معه وبالفعل كان مصطفى صديق حقيقي استطاع خلال فترة قصيرة يجعلني انسى كل شيء، نسيت صوتي الذي ترقرق ومشيتي التي تغنجت، حركة يدي التي توحي لك انك تحادث انثى حتى جلدي الاملس بالكامل سوى مناطق الرأس والابطين والعانة، مشاعري المتفجرة بشكل خارج عن السيطرة، حتى خصيتاي اللتان لا اعرف متى سقطتا وتركتني انسى شيء اسمه الجنس، غرقت باللعب، بالركض في البساتين بتسلق التلة ومحاولة دخول الكهف هناك لكن في كل مرة يمنعنا الخوف من التوغل اكثر، كنت اعيش كصبي فقط من دون حياة خاصة، من دون عادة سرية بل حتى من دون التفكير بالمستقبل، كنت اقضي النهار برفقة

مصطفى وابناء القرية ونحن نلعب طوال الوقت، لم أعد أبن الهولندية بل تحولت الى ابن هذه القرية التي تنمو بهدوء على ضفاف النهر، الان اتمنى حقا لو ان الايام مرت بهذه الطريقة فقط لكن لا شيء ثابت في هذه الحياة وهناك الكثير مما لا يمكن توقعه، قد يبدأ بخطأ بسيط منك لكنه ينمو ويتكاثر بطريقة غريبة وبسرعة كبيرة حتى يتحول الى كارثة كبرى، كان خطأ بسيطا عندما اخبرت مصطفى انني لا امارس العادة السرية لأنني لا امتلك خصيتين، اخبرته بكل شيء وهو بدى واجما ولم ينطق بكلمة واحدة قبل ان يتركني ويذهب، لم اكن اتصور انه سيخبر احد بالأمر لكنه اخبر جدته حجية سريوه وهي بدورها اخبرت حسنة قبل ان يتفقا ان يأخذاني الى طبيب الامراض التناسلية في المحافظة، لم تذهب معنا حسنة خوفا من ان تلفت نظر جدي بينما وضعني ابو مصطفى في سيارته وجلست بقربي حجية سريوه وذهبنا الى المحافظة، الدكتور سألني اسئلة كثيرة وكان يبدو مندهشا عندما جعلني أخلع بنطالي وسروالي الداخلي وينظر الى المنطقة الملساء اسفل عضوي الذكري الذي كان يبدو متعبا او يعيش ايامه الاخيرة، طلب من ابو مصطفى اجراء بعض التحاليل وعندما اكملناها ووضع نتائجها بين يدي الدكتور طلب مني ومن حجية سريوه الانتظار خارجا، عرفت بعد ذلك انه اخبر والد مصطفى انني تعرضت لعملية اخصاء كيميائي وبشكل مقصود، قال له

- هذه جريمة وعليك اخبار السلطات المختصة بالأمر، كتب لي بعض الادوية وطلب منه ان يعاود مراجعته بعد اسبوع ليرى تقبل جسمي لهذه الادوية، قال له ربما نستطيع أحياء حياته الجنسية ولكن بالتأكيد لن يستطيع ان ينجب اطفالا لأنه لا يمتلك ماينتج الحيامن اصلا

شكرهُ والد مصطفى وخرجنا من العيادة وعدنا الى القرية، حجية سريوه اخبرت حسنة بكل شيء وهذا ما فاجئني حيث كانت ردة فعلها غريبة فهي اتهمت زوجها شيخ ابراهيم وبدأت

- والله كان قلبي يشعر بذلك...هذا الظالم دمر حياة ابن اخيه، يا الله...هذا المجنون ماذا فعل ...وانا الغبية التي اعتقدت انه نضج وانه لم يعد يرى وجود نوار يشكل اي خطر على البنات، كان عليّ ان افهم ان ذيل الكلب لن يستقيم في يوما..

بعد اسبوع اصرت حسنة على مرافقتنا الى الطبيب، فحصني مرة اخرى واخبرنا هذه المرة ان الادوية لم تعطي اي نتيجة لكن هناك طريقة واحدة بما تنجح مع الادوية

- ما هي دكتور
- ان يحفز هو نفسه جنسيا، يحاول مثلا ممارسة العادة السرية، قد لا ينجح من المحاولة الاولى ولا الثانية ولكنه قد ينجح مع الزمن، على الاقل يستطيع ان يعيش حياة جنسية طبيعية بعد ذلك، لم استطع ان اتكلم حينها وشعرت بخجل شديد لكن حسنة بدت جريئة وهي تسألني
- هل فهمت وصايا الطبيب
- نعم...بخجل

عندما عدنا جلست بقرب حسنة التي احتضنتني بقوة وبكت وهي تقول

- ياربي ...ماذا فعل لهم هذا الولد...هذا جنون...مجرد جنون

كانت هذه المرة الاولى التي اشعر بها بقرب حسنة الى هذا الحد، شعرت بحنانها واحتوائها فشعرت براحة غريبة رغم انني لحد الان لم افهم ما الذي يجري بالضبط، فهمت ان عمي شيخ ابراهيم هو من كان وراء ذلك لكنني لم افهم لماذا، ما الذي فعلته ليدمر حياتي بهذه الطريقة رغم انني كانت غارق داخل كيان حسنة ولم

اعد ابالي حتى بحجية سريوه التي التفت اليّ فهربت دمعة من عينيها لكن والد مصطفى التفت الي بعد ان اوقف السيارة قرب البيت وهمس بأذني، نفذ ما قاله الطبيب، حاول اكثر من مرة، واذا تحتاج اي شيء اخبرني بذلك

- شكرا عمو
- لا تشكرني....يبدو اننا كلنا خنا اباك....على الاقل كان علينا ان نحافظ عليك....لكن جنون عمك تعدى كل الحدود، انا متأكد اننا سننجح

حسنة قادتني الى الداخل وقالت لي

- حاول نوار، لا تيأس ابدا وانا بقربك على الدوام
- شكرا عمتي

قبلتني من خدي قبل ان اذهب الى غرفتي، قفلت الباب فخرجت السحالي وبدأت تتقافز على السرير قبل ان تقف سحليتي على صدري تبدأ تطلق صفير ملأ الغرفة ومنحني سعادة غريبة شعرت معها ان الوقت قد حان للمحاولة فخلعت ثيابي بالكامل وبدأت احاول ان احرك قضيبي بكل الاتجاهات، كان لحمة صغيرة تنبت بين فخذي لا تفهم ما افعله بها لكنها ايضا لا تعارض ذلك، تنزلق بين يدي من دون شعور بأي شيء، كان عليّ ان احاول، السحالي ايضا بدى وكأنهن يدعونني للاستمرار بالمحاولة فصفيرهن بدأ يتقطع وكأنهن نساء وصلن الى حافة الشبق، بالنسبة لي كنت افعل ذلك فقط، بقيت حوالي نصف ساعة وانا امط قضيبي وادعكه واحركه في كل الاتجاهات ولكن بلا فائدة حتى بدى لي ان الامر مستحيل فلبست ملابسي عندها اختفت السحالي التسعة تحت السرير وحدها سحليتي نامت بقربي ولكن هذه المرة على ضهرها فظهرت بطنها الحليبية اللون والتي تتشكل بهيئة مربعات صغير، بدت ميتة تماما، مسدت على بطنها

لكنها لم تتحرك، كانت ميتة بالفعل فرميت الشرشف علينا ونمت، كانت هذه المرة الاولى التي انام فيها مع سحلية ميتة.....
بقيت اسبوع كامل وانا احاول بلا فائدة في كل يوم تسألني حسنة فانكس رأسي وابتعد عنها، في اليوم السابع قررت ان اتوقف عن المحاولة فالأمر برمته يبدو انه غير مجدي وهذه الحقن استأصلت اي رغبة بالحياة، اخبرت حسنة بذلك فرفضت وقالت لي ان لا أيأس واستمر لكنني اجبتها انه لا طائل من وراء هذه المحاولات وانني بدأت اتعب بالفعل من ذلك، دعوني فقط اعيش حياتي هكذا كأي آلة موجودة في البيت، من دون حب ومن دون مشاعر او رغبات ربما سأكوّن رغبات من نوع اخر لكن هذه الرغبة ماتت داخلي وتحتاج الى قرار إلهي ليعيدها الى الحياة، قبل الغروب بساعة جاء مصطفى واخبرني ان والده يريد ان يراني فذهبت معه الى بيتهم وهناك وجدت والده يرش الزرع بالماء وعندما رآني ابتسم بوجهي وطلب من مصطفى ان يتركنا وحدنا، سألني كيف تسير الامور فأجبته بانني لم اعد احاول ولكن هذا ليس مهما الان، السؤال الذي يأكلني يوميا هو

- لماذا، لماذا فعل عمي هذا بي
- اعتقد ان الاجابة عن سؤالك سهلة الى درجة السخف
- ماذا تعني
- اعني انه فعل ذلك لأنه كان يخاف منك
- يخاف مني؟؟...
- نعم ...اعني يخاف من هذا الذي بين فخذيك
- لكنني لم افعل شيئا
- اعرف، وهذا ايضا ليس مهما فهو كان يخاف مما ستفعله وليس مما فعلته
- وماذا كنت سأفعل

- هناك حديث نبوي يقول (ما اجتمع رجل وامرأة الا وكان ثالثهما الشيطان) وهو كان يخاف من هذا الشيطان
- الحديث يقول رجل وامرأة ونحن اطفال فقط
- في الدين تبلغ المرأة في سن التاسعة والرجل في سن الحادية عشر
- يعني هل كان يخاف مني على بناته
- نعم....اعتقد هذا كان دافعه الحقيقي...على الاقل من خلال معرفتي بطريقة تفكيره
- اذا لماذا لم يأخذهم معه الى بغداد
- لا يستطيع...لأنه حينها عليه ان يترك جدك وحده في البيت من دون اي احد يهتم لأمره وهذا عقوق....وعقوق الوالدين من الكبائر
- هل تعني ان ما فعله بي لم يكن من الكبائر
- لا ....لان المسلمين خلال التاريخ كله استخدموا الخصيان بل واخصوهم، كما انه ليست هناك آية قرآنية تمنع من ذلك
- تعني ان الدين يبيح مثل هذا الفعل
- هو لا يبيح ...لكن العادة جرت ومثلما يقال (المعروف عرفا كالمشروع شرعا)
- عمي ارجوك...لا تقل لي ان الدين هو من فعل ذلك بي
- ليس الدين لكن ما فهمه الانسان من هذا الدين هو من فعل ذلك...احيانا تنال الاخطاء مقبولية اذا صدقها الجميع واعتقد بصحتها وهذا ما يحصل دائما، الشيء الاهم انك لا تستسلم، جد طريقة فالحياة بالنهاية تجد طريقها ما دمنا نتنفس
- ماذا تعني
- اعني ان لا تكف عن التجربة حتى لو استطعت ان تعيد جزء من فحولتك فهذا جيد...ارجوك لا تكف عن المحاولة

- لكن لماذا
- نعم
- اعني لماذا انتم تهتمون لهذه الدرجة
- انتم...من نحن
- انت وزوجة عمي حسنة
- بالنسبة لحسنة فالذي فعل بك هذا هو زوجها وبسبب بناتها وهذا يجعلها تشعر بالذنب، اما انا فأبوك كان صديقي الاقرب وعلي ان افعل شيئا احتراما لهذه الصداقة
- يعني انكم تفعلون ذلك من اجلكم وليس من اجلي
- بل من اجل ان لا نشعر بقبح العالم...فنحن لا نستطيع معاقبة عمك ولا الدكتور الذي فعل بك هذا بالتالي، عدني فقط بانك ستستمر بالمحاولة

ابتسمت بوجهه وتركته وذهبت

رغم كل دعوات حسنة وابي مصطفى للاستمرار بالمحاولة لكنني تركت كل شيء سوى كرة القدم فكنت العب طوال النهار حتى اذا جاء الليل ارتمي على الفراش وانام من دون ان افكر بشيء حتى بسحليتي التي رحلت فجأة وربما ماتت فقط ودفنوها اخوتها التسعة في مكان ما، حسنة اصبحت العصبية تبدو واضحة عليها وهي تدعوني للمحاولة، بدأت تصرخ بوجهي، امسكتني من كتفيّ وهزتني وهي تصرخ

- قلت لك...لا تكف عن المحاولة...هذا ليس لعب اطفال...انك تغامر بحياتك كلها
- اتركيني فقط...لم اعد احتاج لهذه الحياة....ماذا تريدين...ان ترتاحي...تتخلصي من تأنيب الضمير...انا اعفيك من كل شيء....لا انت ولا البنات لكم ذنب بما حصل لي...ارتاحوا فقط ودعوني اعيش كما اريد....

عندها نظرت بوجهي بشفقة كبيرة واحتضنتني وبكت، احسست بنهديها يطبقان على صدري وصدى انفاسها يتغلل داخلي فشعرتُ باحتواء غريب استسلمت له تماما قبل ان تفلت دمعة من عيني فادفعها واقرفص على الارض وانا اصرخ

- لقد تعبت...تعبت...دعوني انسى فقط انني مت....ولا احد غير الرب يمكنه احياء الموتى ...اتركوني ارجوكم....اتركوني

لكنها لم تتركني فبعد ان انتهى جدي من صلاة الفجر واخذ معوله وذهب للأرض فتحت حسنة باب غرفتي بهدوء، كنت نائما فلست معتاد على الاستيقاظ في مثل هذا الوقت، وقفت فوق رأسي للحظات، كانت مترددة وليست واثقة من صواب ما ستفعله لكنها اخيرا هزتني من كتفي ففتحت عيني ووجدتها واقفة فوقي، فركت عيني وقلت لها

- ماذا تفعلين هنا
- سأساعدك ...
- تساعديني...كيف
- انت اصمت فقط

سحبت بيجامتي الى الاسفل وبعده لباسي الابيض وبدأت تفرك قضيبي براحة خنصرها، قالت لي أغمض عينيك وتخيل ان واحدة من الممثلات الجميلات هي من تفعل لك ذلك، اغمضت عيني لكنني لم اتخيل سوى حسنة، كانت جميلة بالفعل وفي كلا الحالتين لهذا بدأت اتأملها وكأنني اراها للمرة الاولى، تأملت عينيها، شفتيها رقبتها الناصعة البياض عندها شعرت بخدر شفيف يتسلل الى جسدي كله قبل ان تنتبه لي وتتورد خدودها نتيجة شعورها بالخجل فتصرخ بي

- لماذا تنظر اليّ هكذا

ابتسمت ولم أجبها فتركت قضيبي وولت هاربة من الغرفة، نظرت اليه كان هو الوحيد الذي لم يصبه هذا الخدر الذي احتل جسمي كله لهذا لبست بيجامتي ونمت..

بعد الخجل الذي رأيته على وجهها لم اكن اتصور انها ستحاول مرة اخرى لكنني كنت مخطئا فبمجرد ان سمعت جدي يغلق باب البيت خلفه دخلت عليّ، كنت مستيقظا واجلس على حافة السرير وهذا جعلها تصاب بالدهشة لكنني كنت انتظرها بالفعل، شيء ما داخلي كان ينتظرها، فجأة احتلتني جرأة كبيرة فاذا كانت مصرة على الاستمرار فعلى طريقتي هذه المرة وبالشكل المطلوب، اغلقت الباب ورائها وجلست بقربي على السرير فالتفت اليها وسألتها

- اسمعيني ارجوك...انتِ غير مسؤولة عما فعله عمي بي...افهمي ذلك
- لكن الامر ليس بهذه الطريقة
- ماذا تعنين
- عمك تحول الى شيطان حقيقي وكان علي ان اعترف لنفسي انني زوجة الشيطان، دمرَ حياة الكثيرين، دعواته الطائفية تسببت في قتل مئات الشباب، قتل اخته سليمة بيديه ودفع اطفالها لليتم، وانا كنت اعرف كل ذلك من دون ان احرك ساكنا، حتى انني لم اناقشه في الامر، كنت زوجة مطيعة للشيطان إلا ان عرفت ما فعل بك عندها قررت ان ارد على كل هذا، قررت ان اقول كلمتي ومهما كلف الامر
- لكنه سيرى انك مجرد خائنة اخرى وسيقتلك
- خيانة الشيطان تستوجب الاجر والثواب ...انت ساعدني فقط
- طيب...سأساعدك ولكنني لا اعتقد اننا سنصل الى شيء بهذه الطريقة

- ماذا تعني
- اعني ان تدليك قضيبي بهذه الطريقة لن يوصلنا الى شيء
- وماذا نفعل
- ربما لو شعرت انني امارس الجنس بطريقة واقعية
- نعم
- انا تعبت من المحاولات الفاشلة...واذا كنتِ تريدين خيانة الشيطان فيجب ان تكون هذه الخيانة كاملة
- انت مجنون بالفعل...هل تعرف ماذا تطلب مني
- اعرف...لذلك اذهبي الان ...وقرري ماذا تفعلين

خرجت حسنة من غرفتي وهي في غاية الذهول، كنت اعتقد ان الامر انتهى الى هذا الحد فلم تكن هي من النوع الذي يتعرى للأخرين بسهولة لكن بعد ثلاثة ايام فتحت الباب علي في نفس الوقت ودخلت وهي ترتدي عباءة سوداء، فتحت عيني وجلست ففتحت العباءة امامي ورمتها على الارض، كانت ترتدي ثوب شفاف يظهر جسمها بالكامل، كل شيء كان واضحا، نهديها، بطنها، شعر عانتها، احسست للحظة بالذنب لهذا قلت لها

- هل انتِ متأكدة
- دعنا نحاول بشكل جدي هذه المرة

بسرعة كبيرة احتضنتني وقبلتني بقوة، كنت اشعر بلسانها يغوص بداخلي، قبلت رقبتي قبلات قصيرة ثم عرتني بالكامل، وضعت رأسي بين نهديها فبدأت ارضع منهما وكأنني طفل صغير، انتقل من نهد الى اخر، لم يكونا كبيرين ومتهدلين ولا صغيرين وكأنهما لفتاة في مقتبل العمر، كانا ناضجين وبنفس الوقت متماسكين وكأنهما ربوتان نبتتا فوق الصدر وهذا جعلني اشعر برغبة هائلة وانا ارضعهما حتى انني تسببت ببعض الالم لحسنة لكنها لم تعارض، لم تبدو منتشية بما نفعله، كان شيء من

الارتباك يصيبها بين فترة واخرى، مدت يدها على قضيبي وبدأت تدعكه فمددت يدي انا على عانتها وفتحتها بأصبعي عندها دفعتني قليلا لكنها ما لبثت ان عادت وتناولني بقبلة اخرى فأوغلت اصبعي داخلها وبدأت ادعك بظرها برفق، تخلصت من خجلها تماما وبدأت النشوة تتصاعد عندها فبدأت تضغط على قضيبي وتسحبه بقوة لكن هذا لم يكن يثيرني بقدر ما يثيرني شكل النشوة الذي بدأ يضع ملامحه على وجهها حتى انها تحولت كائن خفيف بطريقة غريبة وهذا جعلني ازيد من حركة اصبعي داخلها فهاجت فجأة وبدأت تتأوه وسحبتني نحوها بقوة وهي تصرخ

- اكمل ...ارجوك...لا تتوقف

لم اكن لأتوقف لان اشياء كثيرة تحركت داخلي ونشوة هائلة تملكتني جعلتني اتحول الى ثور هائج لا يمكن إيقافه، عضضت شفتيها بأسناني قبل ان أعض حلمة نهدها وامتصها بقوة بينما حركة اصبعي كانت تزداد فيزداد هياجها حتى وصلت الى حالة لم تعد تتحمل معها كل ذلك فأمسكت يدي ودفعت اصبعي بقوة وكأنها تريد ايصالهُ الى اعمق نقطة داخلها وبدأت تصرخ حتى انني خفت للحظة ان يصل صوتها الى غرف البنات فتناولتها بقبلة طويلة قبل ان تسحب يدها وتتناول قضيبي بالسحب في تلك اللحظة احسست ان شيئا ما يتغير هناك، بدأت اشعر انه يحاول ان ينتصب لهذا صرخت بها

- انه ينتصب...يحاول ان ينتصب

عندها دفعتني على السرير وبدأت ترضعه وتمصه بقوة وهي تدغدغ قبعته بلسانها فشعرت بنشوة هائلة جعلته ينتصب بالكامل، كانت تنظر اليه وتبتسم ثم تعاود عملية المص حتى تحول جسدي الى قشعريرة هائلة واختلت اعضائي بنشوة غريبة في تلك

اللحظة وقفت ودفعتها على السرير وفتحت فخذيها لكنها وقفت بسرعة وهي تصرخ

- ماذا تفعل...ليس الى هذا الحد

ارتدت ملابسها وخرجت من الغرفة فنظرت اليه كان ما يزال منتصبا وقبل ان يعود لينام مرة اخرى خرجت السحالي التسعة وبدأت تتقافز بينما اقتربت منه سحليتي العاشرة ومسحت عليه بلسانها الطويل قبل ان تختفي في مكان ما من الغرفة.....

في اليوم التالي وبينما كنت اتمدد في الحديقة واتأمل السحالي وهي تتقافز من حولي جاءت حسنة ووقفت فوقي مباشرة وسألتني

- كيف تجري الامور معك
- جيد...كل شيء يسير بشكل جيد
- هل تحتاجني بشيء اخر
- ها...لا اعرف
- انا اعرف....وهي تبتسم

كنت اعرف انها ستأتي لذلك بقيت انتظر خروج جدي للمزرعة حتى سمعته وهو يغلق الباب خلفه فجلست على حافة السرير قبل ان تفتح حسنة الباب وتدخل، كانت ترتدي عباءة سوداء تغطي جسمها بالكامل، وقفت امامي وقالت لي

- اخلع ملابسك

خلعت ملابسي وتركت لباسي الابيض فلم اكن متأكدا مما تريد لكنها اشارت لي ان اخلعه ايضا فخلعته ووقفت امامها عاريا بالكامل عندها دفعتني على السرير وقبلتني بقوة كبيرة، مسحت عباءتها بجسدي وهي تقبل جسدي بالكامل، قبلت رقبتي وصدري وبطني ثم مدت لسانها بسرتي قبل ان تنزل الى قضيبي وتمصه بقوة فينتصب بسرعة، بدت وكأنها قطة جائعة تلتهم قطعة لحم

طازج، بعدها اجلستني ثم فتحت عباءتها دفعة واحدة فتعرت بالكامل، كان المشهد هائلا جعلني اختنق بالشهوة ومن دون ان افعل شيئا، بعدها تمددت هي على السرير ثم دفعت رأسي بين فخذيها وجعلتني التهم بظرها قبل ان اسحبه بكل قوة الى داخلي بينما تتلاطم شفاه عانتها بشفتي وهذا جعلها تبدأ تتأوه وتضغط على رأسي بقوة قبل ان تقف وتدفعني على السرير وتركب علي، مدت يدها الى قضيبي وحشرته داخلها لتبدأ ترهز عليه، في البداية بلطف وبعد ذلك بقوة هائلة جعلتها تصل الى قمة الشهوة فتسقط علي وتمد لسانها بين شفتي قبل ان تقول لي

- دورك الان

عندها مددتها على السرير وفتحت قدميها وبدأت احك قضيبي بعانتها قبل ان اوغله بقوة فتشهق وكأنها خرجت لتوها من غرق لذيذ، ازدادت سرعة حركتي واحسست اكثر من مرة انني على وشك ان اقذف داخلها لكن لا شيء يخرج مني لاستمر انا في الحركة وتستمر هي بالتأوه الذي تحول الى صراخ بعد ذلك

- اسرع...حبيبي ...اسرع...اتوسل اليك...

كنتُ أفعل ما تريد بالضبط، اذا طلبت ان اسرع فاسرع من وتيرة دخول القضيب قبل ان تمسكني بقوة وتدفعني نحوها محاولة ان يصل قضيبي الى ابعد نقطة داخلها، استمرت هذه العملية لنصف ساعة كاملة، احسست خلالها انني اقذف اكثر من مرة لكن من دون ان يخرج مني شيء، كانت لذة هائلة جعلتها تلتفت نحوي وتقول لي

- هل تريد ان تعرف لماذا اخصاك شيخ ابراهيم
- نعم
- من اجلي ....هذا الغبي فعل ذلك من اجلي فقط

أدمنت حسنة بالكامل، شيء يشبه كثيرا الادمان على المخدرات، قلت لها اكثر من مرة انني لن اتركها ابدا ومهما حدث، هي لم تقل شيئا لكنني كنت اعرف انها لن تقوى على الابتعاد عني ولو ليوم واحد، لا اعرف كيف عشقتها، الذي اعرفه انني كنت في كل مرة امارس معها الجنس اشعر بانزياح حقيقي نحوها، ربما لأنها المرأة الوحيدة الممكنة في حياتي فانا ادرك تماما ان مخصيا مثلي لا يملك شعرا في جسمه كله سوى في رأسه وأبطه ومآبين فخذيه لن يستطيع الحصول على امرأة بسهولة او ربما لأنها كانت تمثل لي طريقة انتقام رائعة من عمي ابراهيم، ربما اي شيء اخر لكن الشيء الوحيد المتأكد منه انني اعشقها الان، اعشقها بكل ما لهذه الكلمة من معنى، كنا نمارس الجنس بشكل يومي الا في الايام التي لا يخرج فيها جدي للمزرعة او عندما يعود عمي ابراهيم للبيت ودائما عندما تزورها الدورة الشهرية، حتى في ايام دورتها الشهرية كانت تأتي الي وتنام معي وتملؤني بالقبل وهذا منحني حياة رائعة بالفعل نسيت معها كل شيء لكن الاشياء الجميلة في هذا المكان لا تستمر طويلا ففي احد الايام وبعد ان خرج جدي للمزرعة وبدأت اتوغل داخل جسد حسنة واملأها بالنشوة واجعلها كتلة من التأوهات رجع جدي من المزرعة، شعر حينها بوجع في بطنه جعله يترك الحقل ويرجع لكنني لم اعرف لماذا تسلل للبيت بهدوء وجاء مباشرة الى غرفتي ليرانا كتلتين لحميتين تتقافز الواحدة على الاخرى، وقف في الباب من دون ان يقول شيئا بينما تركت انا حسنة ووقفت عاريا تماما امامه من دون ان اعرف ماذا افعل، نظرت للحظة في عينيه فرأيت اوجاع العالم كلها فيهما قبل ان يتركنا ويذهب، لطمت حسنة خدودها وهي تصيح

- الفضيحة...يا إلهي...سيقتلني شيخ ابراهيم وربما سيخبرون اهلي وهم يقومون بذلك
- اذا دعينا نهرب
- الى اين
- لا اعرف ...اجمعي ملابسك بسرعة ودعينا نهرب
- والبنات
- سنتركهن هنا الان...وسنعود لنأخذهن في وقت اخر ..هيا بسرعة

فكرت بالهروب بشكل مباشر ومن دون تفكير لأنني لم أكن مستعدا لمواجهة نظرة جدي هذه مرة اخرى كما انني كنت متأكدا انهم لن يغفروا لحسنة حتى اذا غفروا لي لكن هذه المغفرة ستتلاشى بالتأكيد اذا وصل الخبر لشيخ ابراهيم، في الحقيقة لم أكن متأكدا من جدي فمثل قضايا الشرف هذه يكفي ان يكشفها شخص واحد ليعرفها الجميع، واذا كانت القصة ستنتهي معي بسيل من عمليات التأنيب والعقوبات الخفيفة فلن تنتهي مع حسنة سوى بالموت حتى اذا تركها عمي فأن اهلها سيتكفلون بذلك لذلك كان الهرب هو الحل المنطقي الوحيد، بسرعة كبيرة جمعنا ملابسنا بينما لم تغادر عيني باب غرفة جدي الذي اغلقه خلفه ولم يخرج بعدها، سألت حسنة عن مستمسكاتنا الرسمية فقالت لي هي في احد ادراج دولاب عمك المقفلة وهذا جعلني اذهب للمطبخ واجلب ساطور كبير فتحت فيه الدولاب وبعد بحث استطعت العثور على مستمسكاتنا الرسمية كما انني رأيت كيس ورقي، فتحته فكان مملوء بأوراق نقدية بعضها بالدولار وبعضها من فئة الخمسة وعشرين الف دينار عراقي، اخذت الكيس والمستمسكات ووضعتها في الحقيبة التي امتلأت بالملابس وخرجنا من البيت، كان علينا ان نتسلق الجدار العالي للبيت من الخلف فلم نشأ اثارة

فضول الجنود الواقفين عند الباب الرئيسي، حسنة عبرت بصعوبة واضطررت للنزول قبلها حتى اتلقفها وهي تسقط لكنها كانت ثقيلة بالفعل وهذا جعلنا نرتمي على التراب، نظرت اليها وابتسمت قبل ان اسحبها ونذهب مباشرة الى بيت حجية سريوه، وجدنا صعوبة كبيرة في شرح ما حصل لأبو مصطفى، قالت له حسنة

- كنت اساعده فرآنا عمي
- تساعديه؟ كيف...سألت حجية سريوه بتعجب
- لا اعرف...لكن لم تكن هناك طريقة اخرى
- غبية...صرخ ابو مصطفى
- لا يهم الان...المهم ان تساعدنا على الهرب...قلت له بهدوء
- الى اين؟
- خذنا الى كراج بغداد الان...ونحن نعرف ماذا نفعل بعدها

اخذنا ابو مصطفى الى المحافظة بعد ان اعطاني رقم هاتفه وطلب مني ان أتصل به ان ضاقت بنا الدنيا، صعدنا سيارة اجرة من هناك وذهبنا الى بغداد، الشيء الجيد انني كنت املك هاتف جدي والد امي في هولندا لذلك حالما وصلنا الى بغداد اشتريت هاتف جديد واتصلت به واخبرته بكل شيء، طلب مني ان اؤجر بيت واسكن فيه، اخبرني ان اتجنب السكن في الفنادق لأن عمي يستطيع ان يعثر علينا هناك، وبالفعل بعد بحث عند الدلالين استطعت الحصول على بيت صغير يحتل الطابق الثاني مكون من غرفتين ومطبخ صغير مع ملحقاته وهذا جعلنا ننزل للسوق ومشتري بعض الاشياء الضرورية، اشترينا بعض الفرش والاغطية مع طباخ كهربائي صغير وقوري مع الشاي والسكر وكيس من الفواكه، كنا نعتمد في طعامنا على مطعم صغير يقع في الشارع العام، تفكير حسنة ببناتها وما حدث هناك جعلها

تنزوي بعيدا عني، حاولت أن اطمئنها ولكن بلا جدوى فالقلق بدأ يأكلها والخوف حفر اخاديد معتمة داخلي، كنت اتخيل عمي ابراهيم عندما يعثر علينا، حقيقة اسوأ ما اتصوره سيكون افضل ما سيفعله بنا حينذاك لكن الايام تمضي بهدوء وعمي ابراهيم كان يبحث في مكان اخر، بعد اسبوعين جاء جدي من هولندا، شعرت حينها ولأول مرة ببعض الامان قبل ان نذهب في اليوم التالي ونستخرج جوازات سفر لي ولحسنة، جدي دفع مبلغا كبيرا لأحد الموظفين في دائرة الجوازات لنستلم الجوازات في نفس اليوم وهذا جعلنا نحزم أمتعتنا ونسافر الى الاردن بواسطة الطريق البري، الرحلة كانت طويلة ومع كل متر تقطعه سيارة ال(GMC) تنزف حسنة قطعة من روحها فهي تدرك انها تبتعد عن بناتها وان رؤيتهن مرة اخرى بدأت تتحول الى مستحيل اخر لا يمكن تحقيقه، اخبرتها اننا سنجد طريقة عندما نصل الى هولندا، فابتسمت وقالت لي، من الافضل ان انسى فقط إن كنت استطيع، بعد يومين من وصولنا الى الاردن اتصلت بأبي مصطفى وطمأنته علينا لكن صوته جاء مختنقا ومترددا وهو يخبرني انه لم تكن ثمة حاجة لهروبنا لأنهم وجدوا جدي ميتا في فراشه في نفس الصباح الذي هربنا فيه، قلبه لم يتحمل صدمة بهذا الحجم فقرر ان يتوقف الى الابد، احسست حينها بقهر حقيقي فلم افكر ولو للحظة واحدة انني سأتسبب بموت الرجل الذي احتواني بكل ما لهذه الكلمة من معنى، مات من دون ان يعرف ماذا فعل ابنه بي، ربما كانت هذه المعرفة ستقتله ايضا ولكن القدر ارادني انا ان اتحمل أثم موته، ربما من باب التغيير فقط فالذين تحمل عمي أثام موتهم كانوا يسدون عين الشمس، هذه المفارقة جعلتني ارمي الهاتف وابدأ بالضحك، في البداية بهدوء ولكن صوت الضحك بدأ يعلو ويعلو حتى تحول الى ضحك

هستيري مجنون لكنه ما يلبث ان تخف وتيرته ليتحول هذه المرة الى نشيج هادي وبكاء مختنق يجعل حسنة تمسكني من كتفي وتصرخ بي

- بناتي ...هل حصل شيء لبناتي هناك
- لا...ليس البنات...ولكن جدي
- ماذا به
- مات بعد تلك اللحظة التي رآنا فيها عاريين، كان ميتا ونحن نجمع اغراضنا ونهرب،
- يا إلهي....هذا يعني انه لم تكن ثمة حاجة لهروبنا اصلا
- هذا ما يهمك الان ...الا يهمك اننا قتلنا الرجل الوحيد الذي وقف بجانبنا دائما
- لا...لم نقتله نحن...ابنه هو من قتله، قتله عندما قتل سليمة وقتله عندما تسبب بمقتل ابيك وامك وقتله عندما دمر حياتك
- لكنه لم يكن يعلم
- هو الان يعلم كل شيء...وسيغفر لنا بالتأكيد...انسى فقط ...علينا الان ان نجد حياة جديدة وننسى كل شيء

بقينا هناك شهر كامل حتى تمكنت جدتي من الحصول على فيزا لي ولحسنة مكنتنا بعدها من السفر الى هولندا....

انا نسيت بالفعل ولكن حسنة لم تنس بناتها، صحيح انها انشغلت عنهن في السنوات الاولى حيث ادخلتها في احدى مدارس التعليم الاولي بينما اكملت انا دراستي حتى حصلت على شهادة البكالوريوس في برمجة الحاسوب عندها اكتفت حسنة بالدراسة الثانوية ودخلت بعدها معهد للتمريض مكنها من العمل في احدى العيادات الطبية الصغيرة وبمساعدة من والدتي بينما التحقت انا للعمل في احدى شركات برمجة الالعاب الاليكترونية وكنت اقضي معظم الوقت في العمل، هذه الحياة العملية جعلتنا ننسى

كل شيء حتى وصلت ورقة طلاق حسنة من شيخ ابراهيم بعد ثمان سنوات وعن طريق السفارة العراقية، في تلك اللحظة تغير كل شيء وشعرت حسنة بحنين غريب حوّلها الى كائن يتحرك بلا وعي مما حملها على ترك العمل بعد اشهر، ليس العمل فقط بل الحياة كلها وهذا جعلها تركض وراء رغبة واحدة وهي رغبة رؤية بناتها مرة اخرى وكان عليّ ان اخطط لذلك فانا اعرف انه ليست ثمة طريقة لوصول البنات الى هنا الا عن طريق تهديد فعلي لعمي شيخ ابراهيم الذي اصبح محافظا لواحدة من كبرى مدن العراق وهذا جعلني ابحث عن تاريخ هذا الرجل الذي حولته عصبيته الدينية والقبلية الى واحد من رجالات الحاضر السياسي العراقي، تعثرت بمئات الجثث وانا اتوغل في هذا التاريخ، مئات الاغتيالات والموت المجاني والعذابات والخوف والقلق واللحظات الحرجة التي تسبب بها هذا الرجل مع حزبه بقيادة الاستاذ الذي جلس في اعلى كراسي السلطة العراقية، الدم هو المنتج الوحيد لهذا الفكر الذي تحول الى منجل كبير لحصد الرؤوس وهذا جعلني اتمكن من صناعة ملف كامل يكفي لتسقيط شيخ ابراهيم وحزبه الى الابد بالرغم من انني اعرف ان الامور في هذا البلد لا تجري على هذا النحو وانهم سيحافظون على مناصبهم ومكاسبهم السياسية حتى مع ما اقدمه من دلائل لا تقبل الدحض لكنها بالتأكيد ستشكل مصدر قلق حقيقي داخل رؤوس هؤلاء الساسة، فهم يعرفون ان كل ما بنوه من حولهم من حصون وقلاع ستنهار مع اول عاصفة حقيقية بشرط ان تمتلك الوعي الكافي لأحداث مثل هذا التغيير، مثل هذه الكشف لحقائق ما فعلوه بهذا البلد سيعمل على تشكيل هذا الوعي وهذا جعلني التفت الى حسام الصافي واضع بين يديه الملف بالكامل واقول له

- هذه هي قصتي بالكامل ...أريني همتك

ابتسم بوجهي وقال لي

- اولا علينا ان نصور اعترافات دكتور مصطفى، وبعدها سترى ماذا سأفعل

الفصل الرابع

العودة الى تل الخصيان

اللعب مع الوحوش

ان تلد انسانا ما هذا يعني شيئا واحدا انك ستبقى مرتبطا به مهما تغيرت الظروف وهذه البطن انجبت ثلاث بنات جميلات لم اتمكن من رؤيتهن منذ عشر سنوات، آه، هذا زمن بعيد بالفعل فانا اعرف انهن نضجن الان وربما زوجهن هذا الملعون، بالتأكيد ان اشياء كثيرة حدثت لهن هناك وانا لم أكن بقربهن، لا اعرف ان كنت مخطئة او لا، ان كنت اشتريت رغبتي وبعتهن لكنني اعرف ان الامور سارت بسرعة كبيرة ومن دون التفكير فيها، حتى هروبنا لم يكن منطقيا، هذا كله غير مهم بالنسبة لهن فالحقيقة الاكيدة انني تركتهن ورحلت حتى من دون وداع، من دون ان اطبع قبلة على خدودهن، فعلت ذلك وكلما اتذكر هذا اشعر انني امرأة سيئة، سيئة بالفعل بل اكثر من ذلك، امرأة ملعونة في زمن ملعون، الان استطيع ان اعترف انني اشبهك ايضا شيخ ابراهيم، اشبه تعصبك وطائفيتك ومزاجك القاتل، رغم ذلك فانا اضع ثقتي بنوار مثلما وضعتها دائما ويبدو انه يقوم بعمل جيد فانا كنت حاضرة في جلسات التصوير لدكتور مصطفى والذي شرح فيها وبالتفصيل كيف قام بإخصائهِ وبتحريض مباشر من قبل ابراهيم وشيخ حسن، فعل ذلك وقبض الثمن بشكل مباشر كما ان حسام الصافي بدأ بالفعل بالعمل على البرنامج، كلنا قلنا الحقيقة ولم يتبق سوى المونتاج الذي سينتهي خلال يومين. نوار أكد لي ان ابراهيم سيرسل البنات ورجله فوق رقبته، وسيعشن بأحضاني كل عمرهن المتبقي لكنني كنت اعرف شيخ ابراهيم وكنت اعرف ان الامور معه لا تجري بهذه

الطريقة رغم ذلك لا شيء بيدي سوى أن انتظر وارى ما ستؤول اليها الاحداث والاحداث لا تتأخر كثيرا ففي صباح اليوم التالي بعد ان نهضت في حوالي الساعة التاسعة وغسلت وجهي وبعد ان صنعت لي قدحا من الشاي وفتحت التلفاز احسست ان الدنيا تدور من حولي وان الاشياء تتحرك بشكل مرتبك ، نظراتي غرقت بشاشة التلفاز وانا ارى داخلها شيخ ابراهيم بجبته وعمته يحدث احد الصحفيين عن عملية اختطاف بناته الثلاثة، قال للصحفيين ان الصراع السياسي بدأ يأخذ اشكالا مرعبة وان اعداء النظام الجديد سيفعلون كل شيء من أجل وأد العملية الديمقراطية لكنهم سيفهمون انه لا يمكن العودة للديكتاتورية وان زمن الملعون ولى بلا رجعة، كان يبدو حزينا ومتعبا، بل منهارا وهو يتحدث كيف اختطفوا البنات ، كان صادقا، والحقيقة ان شيخ ابراهيم لم يكن كاذبا في يوم ما وكل الجرائم الذي فعلها كان يعتقد بصورة لا تقبل الشك انه محق فيما يفعلهُ، تحركت الارض من تحتي، احسست بذلك بالفعل، بناتي الان بيد الموت وانا على بعد مئات الكيلومترات لا اعرف ما افعل، خانني جسمي وانا احاول بصعوبة استيعاب ما اراه امامي، صرخت

- نوار...نوار...مصيبة وحلت على راسي

قفز نوار من الفراش بعد ان سمع صراخي ، بدأ يراقب التلفاز قبل ان يأخذ الهاتف ويتصل بحسام الصافي ويطلب منه الحضور، بكيت وكأنني لم أبكِ من قبل، شعرت بخوف وقلق شديدين فماذا لو قتلوا بناتي، كيف سأعيش حياتي بعدها وانا لا استمر الا على امل رؤيتهن مرة اخرى، بعد نصف ساعة حضر عماد الصافي وقبل ان يسلم علينا نظر اليَ وقال لي

- هذه لعبة ...مجرد لعبة من شيخ ابراهيم
- مستحيل ...اجبته

- اسمعوني...اعتقد ان شيخ ابراهيم شعر بخطر حقيقي بعد ان رأى صورة دكتور مصطفى فلعب هذه اللعبة ليجبركِ على العودة الى العراق
- اسمعني انت...انا الذي يعرف شيخ ابراهيم...يمكنه ان يلعب بكل شيء الا بشرف بناته
- ماذا تقصدين
- اقصد انه يدرك ان مثل هذه اللعبة ستمس شرف بناته، وهو الذي فعل ما فعل بنوار من اجل هذا الشرف

نوار بدى محتارا لكنه التفت اخيرا الى عماد الصافي وقال له

- معها حق...يبدو ان صراع الاحزاب في العراق وصل الى حدود القرف وانعدام الشرف...وحقيقة لا اعرف ماذا عليّ ان افعل
- انا اعرف...سأعود الى هناك ...سأذهب الى كل الاحزاب واتوسل لهم ان يعيدوا لي بناتي...سأفعل اي شيء من اجل ان اشم رائحتهن مرة اخرى
- سيقتلك شيخ ابراهيم
- لا يهم...حتى اذا فعل ذلك فسأكون قد نلت مرادي...لقد اخطأت عندما تركتهن كل هذه السنوات وعليّ الان ان ادفع الثمن
- اسمعوني ...علينا اولا ان نهدأ وبعدها سنقرر ما يجب عمله....قال حسام الصافي
- لا...لن اهدأ...سأرحل ولوحدي
- اذا كان هذا ما يجب فعله فسأرحل معكِ
- لا...ستبقى هنا...لن أدع شيخ ابراهيم يصل اليك
- مستحيل...نحن فعلنا هذا سوية واذا كنا سنموت فلنمت معا

- لن تموتا...ارجوكم اسمعوني هذه المرة...قال عصام الصافي قبل ان تعودا الى العراق...دعوني ارسل البرنامج الى الاستاذ...سأهدده ببث البرنامج في حالة لم تعودا الى الاردن خلال شهر...وهو من سيحميكما من مسدس شيخ ابراهيم...امنحوني اليوم فقط....

- طيب غدا سنكون في العراق وفي كل الاحوال

لكن العراق لا يستقبل ابناءه الا بالمسدسات والملثمين فبمجرد ان خرجنا من مطار بغداد الدولي وامام حشد من الناس العائدين الى الوطن او الراحلين عنه تقدم نحونا خمسة ملثمين وضعوا مسدساتهم في خاصرتنا وقالوا لنا بهدوء

- رافقونا من دون ضجة...هذا افضل لكم

صعدنا في المقاعد الخلفية لأحدى سيارات الدفع الرباعي وانطلقنا باتجاه شارع المطار، جامع ام الطبول كان اخر ما رأيته قبل ان يعصبوا أعيننا بعصابة سوداء، استمرت السيارة بالسير في شوارع تبدو داخلية لأنها كانت تهتز من عمق الحفر او الموانع التي غطت هذه الشوارع قبل ان تقف السيارات وننزل منها ويقودوننا الملثمون الى مكان ما، قيدونا الى كراسي خشبية قبل ان يزيلوا العصابة عن اعيننا فنعرف اننا نجلس داخل قاعة كبيرة، تبدو كأنها ملعب كرة سلة متروك منذ زمن بعيد، الارضية كانت تخبأ بعض الالوان التي تظهر من بين اطنان التراب والاوساخ التي تغطيها بالكامل، نوار التفت الى احد الملثمين وسأله

- متى يأتي عمي

- عمك...من هو عمك

- ارجوك...لا داعي لكل هذا...فنحن نعرف اننا في قبضة عمي الشيخ ابراهيم

- المحافظ
- نعم...هو بعينه والان اخبرني متى ننتهي من كل هذا
- قريبا...قريبا جدا سينتهي كل شيء

اخرج هاتف خلوي من جيبه واتصل بشخص ما قبل ان يتركنا ويذهب، بعد نصف ساعة دخل رجل دين معمم لا اعرفه، لم يكن زوجي ابراهيم لكن نوار بدى متفاجئا وهو يقول

- شيخ حسن
- اهلا ...كيف حالك زوجة صديقي

التفت الى نوار وسألته

- من يكون شيخ حسن
- صديق عمي شيخ ابراهيم، هذا الذي اقترح عليه اخصائي حينذاك

التفت شيخ حسن للملثمين وقال لهم

- فكوا قيودهم

فك الملثمون قيودنا وخلال ذلك سألت الشيخ حسن

- متى يأتي عمي
- وما حاجتنا به
- ماذا تقصد
- اقصد ...انه لن يأتي...ستأخذ حسنة بناتها وتعود
- بناتي...عندكم...
- نعم...شيخ ابراهيم، هذا الغبي لم يترك لنا خيارا...انتم تعرفون ان الانتخابات قريبة وفضيحة مثل هذه ستؤثر كثيرا عليّ وعلى الحزب، نصحناه ان يرسل البنات لكنه رفض وبشدة وما كان امامنا إلا ان نخطفهن، ستأخذ حسنة بناتها وتعود الى الاردن، اما انت فستبقى معنا حتى نهاية

الانتخابات، فقط كي نتأكد ان صديقك الاعلامي لن يبث البرنامج خلال هذه الفترة

- لا يهم...المهم ان تعود حسنة مع بناتها الان...هذا جيد بالفعل
- ستنامون هنا الليلة...
- والبنات
- غدا...ستسافرون سوية

قبل ان يلتفت ويخرج صرخت عليه

- شيخنا
- نعم
- شكرا....

هز رأسه مع ابتسامة خفيفة وخرج قبل ان ينقلنا الملثمون الى احدى الغرف الملحقة بالقاعة والتي تبدو اكثر نظافة وترتيب وتحتوي على سريرين ونافذة تطل على حديقة صغيرة، كنت افكر بنوار، باقي للانتخابات ثلاثة اشهر وهو سيبقى هنا طوال هذه الفترة كما انني لا اعرف ان كنت استطيع ان اثق بهذا الشيخ ولكنه يعيد لي بناتي وهذا بحد ذاته معروف كبير منه، التفت اليه وسألته

- ماذا نفعل الان
- لا شيء...فقط عودي انتِ وبناتك الى هولندا ولاتفكري بي...لن يفعلوا لي شيئا...مجرد حبس بسيط لفترة قصيرة....

في اليوم التالي جاء الملثمون وقدموا لنا الفطور وهو عبارة عن قطع من جبن المثلثات مع قطعتي كيك وشاي حار، احدهم كان بلا لثام هذه المرة، ابتسم بوجهي وقال لي

- لا تقلقي...ساعات وستكونين مع بناتك في الطائرة

لكن هذه الساعات بدت دهرا كاملا، اكلت قطعة كيك في الفطور لكنني لم استطع ان اضع شيئا في بطني عند الغداء المكون من

مرق الفاصولياء باللحم مع الرز والخبز الحار، كانت ساعات متعبة بالفعل والمشكلة انني لم أكن اعرف الوقت الذي سيجمعني مع بناتي حتى انني لم اكلم نوار طوال اليوم هو ايضا احترم قلقي وبقى صامتا وربما كان يفكر ما الذي سيحدث له خلال الفترة القادمة...

في حدود الساعة الخامسة فتح هذا الشاب الذي قدم لنا الطعام الباب وأومأ لي

- تعالي

خرجت بسرعة لأرى ثلاث سيارات دفع رباعي سوداء، اشار لي الى السيارة التي في الوسط وهذا جعلني اركض نحوها وافتح الباب الخلفي لأرى بناتي الثلاثة يجلسن هناك، للحظة لم اعرفهن فانا كنت اريدهن بشكلهن القديم، بعمرهن القديم، لكنني الان امام ثلاث فتيات يرتدين عباءات سوداء ويضعن على رؤوسهن حجاب اسود ايضا، نظرت الي نبيلة وصرخت

- يمه

نزلت من السيارة واحتضنتني قبل ان يلتحق بها اخواتها ويحتضنني جميعا وهن يصرخن

- يمه...لماذا تركتينا...

لم استطع ان اقول شيئا، شممت رائحتهن فنسيت العالم، كانت لحظة بعمر كامل حتى ان لا اهمية لما قد يحدث بعدها، بكيت، بكيت وكأنني انزف العالم السيء كله مرة واحدة لكن الشاب سحبني من كتفيّ وقال لي

- دعونا نذهب الان...طائرتكم ستقلع قريبا

في المقعد الخلفي لسيارة الدفع الرباعي ارتميت وسطهن وكأنني أعوم في بحيرة من القداح، رائحة قديمة احتلتني وحولتني الى فراشة تتنقل بين ورود غضة لم يمسسها احد، لم يكن هناك اي

معنى للكلام فرحلة طويلة من الفرح رسمت مساراتها على جسدي كله وجعلتني اضغط على ايديهن وألمهن الى صدري وكأنني احاول ارضاعهن مرة اخرى، آه لو يمكنني ذلك الان بينما عجلات السيارة تحرث الشارع الرئيسي المؤدي الى مطار بغداد، نسيت كل شيء، حتى انني نسيت ان اعتذر لهن لكن نبيلة التفت لذلك، قبلتني من جبهتي وقالت لي

- فراقكِ كان مراً...لكننا نفهم ونعرف ان الحياة مع رجل مثل أبي غير ممكنة، جربنا ذلك وشعرنا بالحبس التي كنتِ تعيشينه طوال سنوات زواجكِ منه، لقد حبسنا بشكل حقيقي، لم نعرف من الدنيا سوى البيت الكبير الذي كنا نعيش فيه، كان سجنا جميلا ولكنه يبقى سجن، يبقى الملل يتجول بين غرفه الواسعة وممراته العريضة وسقوفه المرصعة بالنقوش المغربية، كان امل رؤيتكِ مرة اخرى هو ما يصبرنا، لكننا كنا نخاف ان نسجنك معنا مرة اخرى، كان فراقكِ صعبا ولكننا لن نعاتبكِ وان نحملكِ مسؤولية هذا الفراق لأننا نعرف السبب، نعرف ان لا أحد يستطيع الاستمرار برفقة هذا الوحش...

كلام نبيلة اسعدني حقا، خلصني من هم كبير كان يجثم على صدري، كنت افكر دائما بالطريقة التي سأعتذر بها لكن الان لا حاجة لكل شيء والافضل ان انسى كل شيء وافكر بشكل جدي بصنع مستقبل حقيقي لهن، اعرف ان الكثير فاتهن فشيخ ابراهيم لن يسمح لهن بالذهاب الى المدرسة كما لن يسمح لهن بالخروج من البيت ربما الا برفقته والى اماكن محددة يقررها هو وهذا يضعني امام مهمة صعبة، مهمة اعادة تأهيلهن بالشكل الذي يشكل شخصياتهن وبشكل ايجابي، لكن كل هذا ليس وقته الان، الان احاول ان ارتوي منهن والى حدود الشبع، لكن مثل هذه

اللحظات لا تستمر طويلا، كنت ادرك هذا دائما لان مثل هذا الفرح الخالص لن يكون الا مقتضبا وناقصا وغير مؤكد، عشت حياتي كلها بهذه الطريقة، كل شيء موجود وناقص في نفس الوقت، كل شيء رائع من جانب واحد فقط فحياتي مع نوار كانت رائعة بحق لكن اشتياقي لبناتي كان يدمر هذه الروعة ويحولها الى هوس دائم، احبه لكنني بالنهاية أم ومشاعر اللذة الجنسية لا تعادل مشاعر الامومة التي تتحول الى حشرة صغيرة تنهشني من الداخل من دون ان تكون لي القدرة على مواجهتها واستلابها، موتها يعني موتي المؤكد وهذا حول سنوات هولندا الى جحيم حقيقي لم تنطفأ نيرانه الا الان وانا ارتمي وسط بناتي في المقعد الخلفي لسيارة الدفع الرباعي التي بدأت تقترب من المطار، فجأة نجد ثمان سيارات عسكرية تطوقنا من كل جانب، صوت جاء من داخل واحدة من هذه السيارات يطلب منا التوقف بينما توجهت البنادق المثبتة على هذه السيارات باتجاهنا وهذا اجبر سائقي السيارات التي ترافقنا الى المطار على التوقف على جانب الشارع، بسرعة كبيرة نزل الجنود ببنادقهم الألية واحاطوا بنا بينما فتح الباب علينا جنود اخرون وسحبوا البنات وضعوهن في احدى الهمرات وانا وضعوني في سيارة همر اخرى وانطلقوا باتجاهات مختلفة تاركين الشباب الذين رافقونا يقرفصون على الارض واضعين ايديهم فوق رؤوسهم، كنت انظر الى سيارة الهمر التي اقلت بناتي وهي تبتعد بينما تدلف السيارة التي تقلني الى شارع جانبي عندها ادركت انني لن استطيع رؤيتهن مرة اخرى وان الزمن منحني ساعة واحدة لأشعر بأمومتي مرة اخرى، لكنها كانت كافية بالفعل، شعرت بانتشاء حقيقي حتى وانا اعرف ان هذه السيارة تقودني الى المجهول، اخيرا وصلنا الى بيت فخم البناء يقع داخل شارع تقع في مدخله الوحيد سيطرة

عسكرية بينما اغلق الجانب الاخر بالصبات الكونكريتية العالية، انزلوني من السيارة وسحبوني داخل البيت قبل ان يفتحوا الباب ويرموني داخل غرفة بلا نوافذ كي اتفاجأ بنوار وهو يقرفص على الارض قبل ان يقفز وهو يراني ويصرخ

- حسنة ....ما الذي يجري
- لا اعرف....اخذوا بناتي

عندها سقطت على الأرض وبدأت ببكاء مر، جعله يحتضنني من دون ان يقول شيئا فهو ايضا لا يعرف نوع المصيبة التي تحيطنا الان، كانت الغرفة فارغة الا من ثلاجة صغيرة تستقر في احدى زواياها وهذا جعله يفتحها ويستخرج قنينة ماء، يفتحها ويرش وجهي بالماء قبل ان يدفع ببعض الماء الى داخل فمي فاهدأ واجلس قربه من دون كلمة واحدة، كنا ننتظر ولا نعرف ماذا ننتظر، الموت وحده هو المعرفة الممكنة الان غير ذلك فيغوص داخل جهل اعمى لا يستطيع كسر ملل الانتظار هذا، بعد حوالي ساعة دخلوا علينا رجلان وهم يحملون كرسيين مع فرش واغطية ورموها داخل الغرفة قبل ان يحملوا الينا الطعام وهذه المرة مكون من الكباب المشوي مع الطماطم المشوية والخبز الحار وشرائح من الطرشي داخل صندوق مصنوع من مادة الفلين، لم يقولوا شيئا، كانوا يرمون كل هذا ويغلقون الباب خلفهم ويذهبون، لم نأكل لكننا جلسنا على الكراسي ورغبة المعرفة غطت على اي رغبة اخرى، حتى التوقع هنا بدى غير ممكن فنحن داخل مصهر كبير يحتوي على وحوش كثر يتصارعون بنا فيما بينهم وكل جهة منهم ترفعنا لترمينا في الفراغ لتتلقفنا جهة اخرى وترمينا بقوة على الارض ونحن لا ندرك من هي هذه الايادي التي تفعل بنا كل ذلك، في حول الساعة السادسة مساء فُتح باب الغرفة ليدخل علينا شيخ ابراهيم، كنا نجلس

صامتين، لم نقف ولم تبدر منا أي ردة فعل لدخوله فأسوأ توقعاتنا حصلت وها هي تقف امامنا وتقول لنا بلهجة متهكمة

- يا اهلا وسهلا.....لماذا هذه الغيبة ...حسنة حبيبتي...ألم تشتاقي لزوجك طوال عشر سنوات، وانت هكذا تفعل بعمك الوحيد...للأسف...ما كنت اتوقع منكم بالذات الخيانة، على ان اعترف انني كنت مخطئا عندما منحتكم ثقتي
- شيخ ابراهيم...أي ثقة مثل هذه التي بين فخذي...اجابه نوار
- طيب ..أبن أخي...لقد حصلت على انتقامك والان جاء دوري
- لن تستطيع ان تفعل شيئا...انت تعرف اننا سنفضحك اذا حصل لنا أي شيء...اترك حسنة تذهب مع بناتها وانا سأبقى معك حتى نهاية الانتخابات
- هذه كانت خطة هذا الغبي شيخ حسن...لكن خطتي مختلفة...البنات سيبقن معي ولن ارسلهن ليصبحن عاهرات في بلاد الغرب اما هذه العاهرة (اشار الى حسنة) فهي حصتي فقط...كان عليها ان تفهم ان لا أحد يخون ابراهيم وينفذ بجلده، حتى الاستاذ وشيخ حسن فسيدركون خسارتهم بعد ان تجرؤ على خيانتي
- وماذا تستطيع ان تفعل لهم...قال له نوار وهو يبتسم
- فعلت....تغديت بهم قبل ان يتعشوا بي، تركتهم والان انا تحت ظل واحدة من اكبر الاحزاب الاسلامية في العراق، هم ايضا يعرفون انهم لا يستطيعون اللعب مع هذا الحزب...كنت مخطئا منذ البداية عندما عملت مع هذا الكافر الذي يشرب العرق بالحذاء..
- اسمعني ...انا ايضا اعرف كيف العب معكم...اذا لم نعد للأردن انا وحسنة والبنات فسنبث البرنامج ونفضحكم، تخيل لو ان العراقيين عرفوا ان الشيخ الذي يدعي الفضيلة والدين

هو من قام بأبشع جريمة وبأبن أخيه الشهيد، وهو من ساهم في نشر الطائفية في المجتمع العراقي، هو من ساهم بسرقة ملايين الدولارات ليمنحها للحزب، تخيل فقط لو ان العراقيين فهموا ان شيخ الفضيلة الذي يصلي للرب ليل نهار هو رب فساد اخر...اتركنا نذهب وتذكر اعترافات دكتور مصطفى، تذكر موقفك امام حزبك الجديد خاصة والانتخابات على الابواب..

عندها ضحك شيخ ابراهيم بصوت عالي قبل ان يقول له

- اذا كنت تتصور اننا سنخاف من برنامجك هذا فانت واهم كبير لأننا ببساطة نستطيع ان نشتريه، بضعة الاف من الدولارات لصاحب القناة التي يعمل فيها صديقك هذا وكل اشرطة البرنامج ستكون بين يدي، حتى اذا بُثَّ البرنامج فلن يعتبره اتباعنا سوى محاولة تسقيط سخيفة للحزب، تأكد من شيء ان العراقيين يعرفون كل شيء، لانهم يلمسون يوميا حجم الفساد والجريمة ولكنهم يتحركون بدوافع طائفية فقط ولن يؤثر بهم برنامج مثل هذا...
- لو كان الامر كما تقول لما اختطف شيخ حسن البنات
- كانت محاولة للنيل مني، رسالة مفادها انني لن استطيع ان اترك الحزب بلا خسائر لكنك مثلما ترى ...حزبي الجديد حل المسألة وها انتم بين يدي وبناتي في البيت
- وماذا تريد منا الان
- اولا دعني انهي مشكلتي مع حسنة

يلتفت الي، يمسد على شعري، ويهمس في أذني

- تعرفين للأن لم أصدق انكِ فعلت ذلك، لم تكوني امرأة، لم اشعر يوما انكِ تملكين رغبة من نوع ما فكيف فعلتِ ذلك

- نعم لم أكن امرأة معك لأنك انت لم تكن رجلا، كنت مجرد مسخ بلا مشاعر ولا احاسيس، هل تعرف كنت دائما اشعر انك مخصي بالرغم من انك تستطيع قذف حيامنك داخل رحمي ولكنك مخصي من أي مشاعر، من اي رغبة وانا ايضا تماهيت مع هذا المسخ، كنت اعرف ان سليمة فعلت بك ذلك، دفنت كل رغباتك في الارض لكنك لم تكن تفهم انني امرأة، امرأة تمتلك جحيم من الرغبات والمشاعر، وكنت احتاج رجل حقيقي، رجل اشعر معه انني انثى وليست مسخ
- ولكن نوار كان بلا رجولة
- نوار منحني كل شيء، كان اكثر رجولة من كل رجال العالم، غبائكم صور لكم انك قتلتم رجولته، انتم قتلتم قدرته على الانجاب فقط، ومنحتوه قدرة هائلة على إرضاء الانثى، كان عليّ ان اخونك لأنك انت خنت العالم كله، خنت اخاك الذي قتلته سياراتكم المفخخة، خنت الوطن عندما ساهمت في ادخاله في كابوس الصراع الطائفي وخنت الله عندما لبست عمته وتحولت الى شيطان حقيقي، كان عليّ ان اخونك لكي اشعر انني مع الوطن والله
- لكن لا أحد يخون شيخ ابراهيم وينجو
- افعل ما تشاء...كان حلمي الاخير ان ارى بناتي وفعلت ذلك، الان لا يهمني حقا ماذا ستفعل بي، لأنك ستبقى مجرد مسخ حقير يحلم ان يكون رجلا في يوم ما لكنه لن يتمكن من ذلك
- اصمتي
- هل تعرف....كنت عندما تنام معي كل الذي اشعر به انك تبول عليّ، هذا الذي بين فخذيك لا ينفع لشيء سوى للبول ولذلك انت بلا نساء، اعرف انك تخجل من نفسك، تخجل من رجولتك الميتة ولهذا تتجنب اي ارتباط معهن، صحيح انك لم

تخنِ مع امرأة اخرى، كنت اعرف ذلك ولكن ليس لأنك شريف ولكن لأنك بلا رجولة، بلا احساس بالحياة، انت مجرد رجل ميت يعرف كيف يبول على النساء

- اصمتي...انتِ امرأة ملعونة...اصمتي

تبدأ ملامحه تتغير، شفتاه ترتجفان وجسده كله يهتز من الغضب، يحاول ان يقول شيئا لكنه لا يتمكن من فعل ذلك فيركض نحو احد الحراس يسحب المسدس منه ثم يعود ويقف امامي، انظر الى وجهه وابتسم بعد ان تحول الى مسخ حقيقي، شعرت للحظة براحة كبيرة وانا اجعله يهتز من الغضب، شعرت بانتصار حقيقي عليه حتى وهو يوجه مسدسه نحو رأسي وقبل ان يضغط على الزناد ويطلق رصاصته التي تخترق رأسي بالكامل، كنت ابتسم وانا اغوص في ظلام هائل....

الهروب

اليوم فقط احسست بأنني رجل مخصي فقد القدرة على الاستمرار بالحياة وكأن الله آجل هذا الاحساس لعشر سنوات لكي يمنحني القدرة على الاستيعاب، على التصريح بأن هذه العمامة التي تلوثت بخراء السياسة افقدتني القدرة على الحياة والى الابد، حسنة كانت اسفنجة لامتصاص مثل هذا الشعور، لإقناعي بأن لا شيء تغير وانني مثل الكثيرين الذين يعانون مشاكل في الانجاب ومن دون ان يخصيهم أحد، عاشت معي على هذا الاساس لكن الحقيقة مختلفة تماما، فانا رجل بلا خصيتين وأي امرأة سترى ذلك ستفهم انها إزاء رجل غير مكتمل الرجولة ولكن ماذا افعل بالنساء بعد حسنة؟، كانت هي نصيبي فقط وعليّ الان ان اتوقف تماما من التفكير بالنساء، حتى هذا التفكير يبدو سخيفا وانا اجلس في غرفة مغلقة تماما وبقربي كرسي ملطخ بالدم من كل جوانبه، دم حسنة التي سحبوا الجنود جثتها ليدفنوها في مكان ما او ربما ليرموا جثتها بالنهر حتى انني لا اعرف ما الذي يجعلني مرعوبا من منظر هذا الدم، هو دم حسنة فقط، المرأة التي نمت بحضنها الاف المرات، التي توغلت فيها دائما بل الطفلة التي ربيتها على يدي وحولتها من امرأة قروية لا تفهم شيئا عن العالم الى حسنة المثقفة القادرة على استيعاب وفهم الاخرين وبطريقة مميزة، حسنة التي تقول كل شيء وبصراحة رائعة لكن هذه الصراحة تسببت بموتها هذه المرة فمن الخطأ ان تكون صريحا امام وحش نتن وتضع حقيقته امام عينيه دفعة واحدة، السؤال الذي دمرني هو ماذا استطيع ان افعل بدون حسنة، هي وحدها كانت تجعلني اتحمل هذا العالم، تجعلني اتجاهل حقيقتي هو انني رجل ناقص الرجولة وغير قادر على الحياة، الان علي ان اتعامل مع نوار

جديد، نوار بلا حسنة هو نوار اخر، رجل بلا خصيتين ولا شعور بالحياة وغير قادر على الحب ولا على اجترار الرغبة رغم ذلك فربما سيفعل شيخ ابراهيم ما يفعله دائما ويجعلني ارحل وراء حسنة، هذا يبدو مريحا لي لكنه ليس منطقيا، لأنني سأشعر بوجع حقيقي حينها لأنني لم اتمكن من الانتقام من هذا المسخ الذي سلبني كل شيء، لم يكتفِ بفقداني رجولتي ولكنه سلب مني الحياة الوحيدة الممكنة التي منحها لي الله بعد ذلك، لا اعتقد ان الرب سيمنحني حياة اخرى ولا حسنة اخرى ربما يمنحني انتقام اخر فقط وهذا مهم جدا بل سأعيش ما تبقى من حياتي من اجل هذا الانتقام فقط بالرغم من انني ابدو الان ضعيفا وغير قادر على الاستمرار، لم استطع ان اضع شيئا في بطني كما انني لم أنم فكلما اغمضت عيني وقفت امامي حسنة ورصاصة الشيخ ابراهيم تخترق رأسها لتثر دمها على الحائط، كانت تبدو كامرأة هندية تضع نقطة حمراء على جبهتها دلالة على انها امرأة متزوجة، الرصاصة لم تصنع سوى نقطة حمراء على الجبهة لكنها صنعت فتحة كبيرة للرأس من الخلف رغم ذلك فما زالت طراوتها واضحة حتى عندما حملوها الملثمون وخرجوا بها، كانت تبدو وكأنها وصلت لتوها الى حافة الشبق الجنسي ولم يعد جسدها قادر على استيعاب المزيد، هنا ايضا كانت تبدو وكأنها اكتفت من الحياة تماما ولا يهمهما لا جسدها الميت ولا رأسها المثقوب لكنها لا تعرف ان خلفت ثقبا هائلا في روحي لا يمكن ردمه الا بالموت، عندها فقط صرخت بأعلى صوتي وانا اضرب باب الغرفة بكل قوتي

- شيخ ابراهيم...اقتلني حالا...اقتلني ايها الغبي...افعل ذلك ارجوك....كان عليك ان تفكر بقتلي منذ البداية من دون ان

تسلبني حياتي بهذه الطريقة...افعل ذلك الان وكن رجلا...ايها الملعون...افعل ذلك...خلصني ارجوك....
عندها اقترب احد الشباب واخبرني ان شيخ ابراهيم ذهب للبيت وانه لن يعود الا في الغد وهذا جعلني ارتمي على الارض واغوص في بكاء مر، كنت ابكي من دون ان افكر بشيء، احسست حينها بتعب شديد وبخواء هائل فنمت حتى من دون ان ادرك ذلك، نمت هذه المرة من دون ان احلم بشيء فكل خلايا جسدي وصلت الى حدود الإعياء ولم تعد قادرة على الصحو فغابت تماما رغم ان يدي كانت تقترب ومن دون ان اشعر وتلامس دم حسنة الذي شكل نهر صغيرا على ارضية الغرفة يسير بهدوء حتى يقف بين اصابعي ...
قفزت فجأة على صوت اطلاقات نارية قريبة جدا، شعرت بألم شديد في راسي وانا احاول ان اقف لأرى ماذا يحدث وهذا جعلني اعاود الارتماء على الارض مرة اخرى خاصة بعد ان اخترقت رصاصة باب الغرفة واصطدمت بالجدار المقابل، وضعت رأسي بين يدي وانا اتوقع المزيد من الرصاص لكن شخص ما ركل باب الغرفة بقوة وتقدم نحوي، كان يبدو شابا قويا ملثم الوجه ولا تظهر سوى عينيه من خلف اللثام، سحبني بقوة فوقفت واندفعت معه لكن ما أن خرجنا من باب الغرفة حتى اصابته رصاصة في رأسه بشكل مباشر فافلتني وسقط على الارض، التفت فرأيت احد الشباب وهو يصوب مسدسه نحوي وهذا جعلني ادخل للغرفة مرة اخرى واختبأ خلف الجدار، عندها تعالى اصوات الرمي قبل ان يهدأ قليلا وهذا جعلني امد رأسي لأرى ما يحدث، كان الممر فارغا فتجرأت وسرت بهدوء قبل ان اصل الى السلم الذي يوصلني الى سطح المنزل، كنت افكر بالتخلص

من الرصاص فقط ولم تكن حينها عندي أي نية للهروب لكنني عندما وصلت الى السطح ورأيت سلم الطوارئ الذي يضعني بشكل مباشر عند الحديقة الخلفية احسست ان فكرة هروبي ممكنة جدا وهذا جعلني انزل السلم بسرعة كبيرة قبل ان اعبر جدار البيت الخلفي واسقط وسط شارع داخلي يقودني بشكل مباشر الى الشارع العام، ركضت بقوة وأشرت الى اول سيارة اجرة صادفتني حتي من دون ان اعرف الى اين اريد ان اذهب لكنه عندما سألني اجبته وبشكل مباشر

- الى كراج علاوي الحلة

تحسست جيبي لأتأكد من ان محفظتي ما تزال في مكانها فلم أعد قادرا على التأكد من اي شيء، كنت في شبه غيبوبة، ارى العالم من دون ان استوعبه حتى الشوارع تحولت الى خطوط ضوئية تصل الي وتفلتني لكنني انتبهت الى شرطي المرور الذي اشار بيده للسيارات ان تعبر ساحة التحرير، انتبهت ايضا للنهر، كان غريبا وغامضا، تمنيت للحظة لو ان السائق يفقد سيطرته على السيارة فتسقط في النهر، كنت احتاج ان اغتسل، ان اتطهر من هذا العالم حتى ولو بالموت، والحقيقة ان الموت بهذه الطريقة سيكون اكثر روعة من رصاصة شيخ ابراهيم، الغرق، الاحتواء الكامل لهذا الكائن الذي يسير منذ الازل، الرحيل وانت منتشٍ بالاختناق، الاختناق نشوة ايضا، غربة هائلة، وحدة تخلصك من كل هؤلاء الموتى الذين يمشون في الشارع ، احسست بضيق شديد بعد ان عبرت السيارة جسر الجمهورية لتضعنا في احدى مداخل المنطقة الخضراء التي تشبه حقنة كبيرة مثل الذي غرزها في بطني دكتور مصطفى وقتلت هذين الرمزين المهمين بين فخذي، الرمزان اللذان يدلان عليّ فقط، التفت

السيارة نحو السفارة الايرانية قبل ان تصل الى مبنى المحافظة الممسوخ بصفائح حديدية حمراء ورصاصية ذكرتني بشكل بثوب حسنة اول ما رأيتها، كان ملئ بمربعات ملونة ومن دون اي معنى، اسندت رأسي على المقعد واغمضت عيني فلم اعد قادرا على رؤية كل هذه البشاعة والافضل ان انسى كل شيء الان لكن صوت السائق سرعان ما جاء قويا وكأنه من عالم اخر

- وصلنا ...استاذ

اخرجت المحفظة ورميت له عشرة الاف ونزلت، كنت اعرف ان الاجرة اقل من ذلك لكنني تذكرت انه هذا السائق انقذني من عالم شيخ ابراهيم البشع، وصل في الوقت المناسب بالضبط وربما لو تأخر قليلا لكنت الان في نفس الغرفة اجلس على نفس الكرسي وانا اراقب دم حسنة الذي انتشر على الحائط والارضية، نزلت من السيارة وتوجهت مباشرة نحو الكراج، كنت متعبا وجائعا فذهبت الى محل صغير يبيع سندويشات الفلافل مع العصائر والشاي، لكنني اكتفيت بشراء قطعة كعك مدورة من بائع متجول مع قدحين من الشاي قبل ان اسأل هذا البائع عن السيارات التي تذهب الى المحافظة، حينها فقط كنت قد قررت العودة الى تل الخصيان، قررت ذلك من دون ان افكر فيه وكأن هذه القرية هي من تقودني اليها هذه المرة، كان علي ان اتخلص من هذه المدينة فشيخ ابراهيم وحتى شيخ حسن سيعثرون عليّ بطريقة ما لو بقيت هنا، انتظرت داخل سيارة ال(GMC) حوالي نصف ساعة قبل ان تمتلأ السيارة بالركاب وننطلق نحو الخلاص....

لم أنم كما انني لم أكن في حالة من الصحو طوال الطريق، كنت اشبه بالسكران او المغيب عن العالم، فتحت عيني واغمضتها عشرات المرات، المرة الوحيدة التي تكلمت فيها هي عندما سألت الراكب الذي يجلس بقربي عن الوقت بعد انطلاق السيارة بقليل، اخبرني ان الساعة الثانية عشر والثلث ليلا، هذا يعني اننا سنصل الى المحافظة مع صلاة الفجر، حينها علي ان انتظر لساعة او اكثر حتى احصل على سيارة تقلني لتل الخصيان ولكن هذا الامر لا يبدو مهما والحقيقة انني كنت احاول ان افكر بأي شيء يبعدني عن تذكر وجه حسنة وهي تتلقى رصاصة شيخ ابراهيم، عليّ ان ادفن هذه الذاكرة الان على الاقل للفترة القادمة وافكر ماذا افعل وكيف استطيع العودة الى الاردن وانا بلا جواز سفر ومطارد من قبل اكبر الاحزاب التي استلمت السلطة بعد ٢٠٠٣ حتى انني لا اعرف الان هل اتمنى ان يبث عصام الصافي البرنامج ويفضحهم ام لا، وهل فعلا مثل هكذا فضيحة لن تؤثر عليهم وعلى مصداقيتهم امام الناس، المشكلة انني لا اعرف ان كانت لديهم مصداقية ام لا، فالناس تشتمهم ليل نهار لكنها تنتخبهم في كل مرة، تشتمهم وتصفق لهم اذا قابلتهم في مكان ما، الناس كانت تعرف كل شيء لكنها لا تفهم، هناك دائما مسافة بين المعرفة والفهم فهي تعرف انهم فاسدون لكنها لا تفهم امكانية ان يقودوا البلاد اشخاص اخرون غيرهم، ربما يكون لمثل هذا الفهم تاريخ طويل فالزعماء في هذا البلد دائما فاسدون ويمتلكون قدرة كبيرة على التدمير لكنهم يملكون كاريزما الزعيم وهذا يكفي الناس، الناس هذه الايام تصفق للجبة والعمة فقط لا للإنسان الذي داخلهما كما كانت تصفق لبدلة الديكتاتور، يبدو لي هذه طبيعة تفكير ترسخت خلال

تاريخ طويل، تاريخ من الساسة الفاسدين والاقطاعيين والديكتاتوريين والقتلة الذين أخصوا هذه الارض طوال عمر الزمن، المهم انني الان الشذوذ الوحيد داخل هذا التناسق الشاذ اصلا وربما يستطيع هذا الكائن المرعب ان يلتقطني بأطراف أظافره ويرميني بعيدا كما تلتقط المرأة الاوساخ من بين حبات الرز وترميها بعيدا، لكنني سأحاول ان اختبأ بشكل جيد بين هذه الحبات حتى لو كنت الشذوذ الوحيد داخل عمى البياض هذا، قبل الساعة الرابعة بعشر دقائق توقفت السيارة ففتحت عيني ولملمت نفسي ونزلت من السيارة، رغم حرارة الجو ولكن نسمة خفيفة اصطدمت جعلتني اشعر بشيء من الانتشاء، ذهبت مباشرة الى بائعة القيمر التي تفترش الارض في احدى زوايا الكراج وامامها صحن كبير من القيمر، اشرت لها برأسي ففتحت صمونة ما تزال حارة ومسحت داخلها القيمر بملعقة كبيرة والتفت الي وسألتني

- دبس
- نعم

من قنينة معدنية مرسومة عليها نخلة زاهية وضعت القليل من الدبس على القيمر الابيض فشكل طريقا يقود الى المجهول وربما الى معدتي فقط داخل وهذا جعلني التهمها بلذة غريبة اشرب بعدها قدح كبير من الشاي واحمل حقيبتي واجلس بانتظار السيارة التي تقلني الى القرية، في ذلك الاثناء بدأ صوت مؤذن الجامع القريب يرتل آيات قرآنية، بدى صوته حزينا بالرغم من ان هذه الآيات تتحدث عن النعيم الذي سيحصل عليه الانسان عندما يصل الى الجنة حتى انني للحظة اعتقدت انه هو نفسه لم يكن متأكدا من وصوله الى هناك، بدى متعبا او غير واثق مما يقوله لكن هذا الارتباك

ولد شعورا مريحا لدي، على الاقل عثرت على انسان اخر غير متأكد من شيء، ولا يعرف ماذا ستكون الخطوة التالية او ما الذي يفعله في هذا المكان من العالم، كنت انظر الى الشارع الفارغ تماما الا من بعض كبار السن وهم في طريقهم الى الجامع قبل ان يبدأ بالآذان واقامة الصلاة، فكرت للحظة لو اذهب للجامع لكنني عدلت عن الفكرة بعد ان شعرت بعدم الرغبة بالتحرك من مكاني الذي اجلس فيه، اغمضت عيني فرأيت حسنة ففتحتها بسرعة عندها بدأ المصلون يخرجون من الجامع وبدأت السيارات تعبر من امامي وهذا جعلني اقف كي اؤجر سيارة تقلني الى القرية حتى انني لم انتظر طويلا لأنه سرعان ما وقفت امامي سيارة صفراء في داخلها رجل ملتحي يبدو انه قد تجاوز الخمسين من العمر، من خلال زجاج الباب الجانبي سألته

- الى تل الخصيان
- نعم
- اقصد...الى قرية الشيخ
- اصعد

بمجرد ان تركت سيارة التاكسي الشارع الرئيسي ودلفت الى شارع فرعي حتى تغير شكل العالم وتحولت معها الرمال الصفراء الى مناطق خضراء واسعة ولكن كل هذه الخضرة لم تكن من صنع الانسان بل مجرد حشائش نمت لوحدها وبطريقة غير نظامية مع وجود بعض الشجيرات الصغيرة وبقايا اشجار السرو التي ماتت في وقت سابق، كانت هناك بقايا لقمريات الاعناب ولكنها بلا اعناب هذه المرة، مجرد تشكيلات مصنوعة من الخشب ومرمية وسط هذا الخضار، رغم ذلك تنتشر بعض البيوت المبنية من الطابوق في اماكن

متفرقة، عندما وصلت السيارة الى الجسر العائم طلبت من السائق النزول وعبور الجسر مشيا، كنت خائفا فوضعية فالجسر كان متعبا ويبدو انه غير قادر على حملنا الى الجهة الاخرى لهذا انتظرت حتى عبرت السيارة ومن ثم عبرت الجسر وانا انظر الى النهر الذي كان قليل العمق وتظهر من خلاله حركة الاسماك، تمنيت للحظة لو انزل الى النهر وامسك هذه الاسماك بيدي، بدى الامر ممكنا جدا، لكن النهر يبدو مرعبا عندما تصل الى وسطه، في الحقيقة تشعر هنا بطعم الغرق فوجود الجسر وسط هذه الكمية الهائلة من الماء لامعنى له، الماء وحده هو الذي يحتوي كل شيء، هو الوجود الحقيقي حتى اذا كانت قدماي تدوس على الالواح الخشبية التي استندت على براميل حديدية ضخمة تتحرك بقوة دفع ماء النهر، هذا النهر عداء رائع، فهو يجري بكل سرعته ولا يبالي لا بي ولا بالبساتين الميتة التي تنتشر على ضفتيه، من الجانب الاخر نزل سائق السيارة وبدأ يشير لي للالتحاق به وهذا جعلني انسى النهر واعبر الجسر، فكرت للحظة ان اذهب الى بيت جدي لكنني عدلت عن الفكرة وقررت الذهاب الى بيت ابو مصطفى، فأول شيء يجب ان افعله هو الاتصال بعماد الصافي والطلب منه ببث البرنامج ومهما كانت النتائج، علي ان افعل شيئا تجاه قتل حسنة، على الاقل لأشعر بشيء من الراحة، اخيرا وصلت السيارة امام بيت ابو مصطفى، اعطيت السائق الاجرة ونزلت لأرى انه لا شيء تغير في هذا البيت حتى سياجه الخارجي ما زال يمتلك نفس اللون بالرغم من ان اثار السنين بدت واضحة عليه، طرقت الباب ليقف امامي بعد دقيقة مصطفى، كان

يبدو شابا جميلا حتى وهو يرتدي دشداشته المتسخة بأوراق الاشجار، نظر الي لبرهة ثم صرخ

- نوار
- كيف حالك مصطفى
- ارتمى علي واحتضنني قبل ان يصرخ
- ابي...هذا نوار ابن سعود عاد الينا

ركض الاب نحوي حتى اذا وقف امام الباب ورآني تغيرت سحنته وهو يقول

- نوار...ابن الغالي...اهلا

احتضنني حتى ظننت للحظة انه سيبكي لكنه تمالك نفسه وجرني الى الداخل لأرى حجية سريوه تجلس على الكنبة قبل ان تتناول نظارتها الطبية ذات العدسات المدورة وتضعها على عينيها لكنها لم تستطع ان تعرفني وهذا جعلها تلتفت لأبنها وتسأله

- من جاءنا ابني
- هذا نوار ابن سعود
- أبن الهولندية

اقتربت منها، سحبت يدها وقبلتها وقلت لها

- نعم...ابن الهولندية
- الله يرحمها...اهلا ابني...

احسست للحظة انها على وشك البكاء ايضا لكنها تمالكت نفسها وقالت لي وهي تبتسم

- اخيرا ذكرت جدتك سريوه
- في الحقيقة لم أجئ لرؤيتكم وانما لأحتمي بكم ...قلت لها

هنا مسكني والد مصطفى وقال لي بجدية

- ما الذي حصل...

- دعوني ارتاح قليلا وسأخبركم بكل شيء

مصطفى قدم لنا الشاي مع خبز العروك الحار وهذا منحني راحة كبيرة جعلني اخبرهم بكل ما حدث لنا منذ اليوم الذي الاول الذي فكرت فيه العودة الى العراق، طلبت بعدها منه هاتفه الخلوي واخرجت رقم هاتف عماد الصافي واتصلت به، جاء صوت عماد متعبا وهو يخبرني ان مالك القناة التي يعمل فيها رفض عرض البرنامج، طلبت منه البحث عن قناة اخرى، صرخت وكأنني اتوسل به

- لقد قتلوا حسنة...عماد هؤلاء الكلاب قتلوا زوجتي

بعد لحظات قال لي

- اطمئن نوار البرنامج سيبث يعني سيبث حتى اذا خسرت عملي جراء ذلك
- ارجوك عماد...لا اعرف ان كنت سأستطيع الاتصال بك مرة اخرى ولكن هذا هو طلبي الاخير اذا كنت تعتبرني أخوك الذي لم تلده لك امك كما كنت تخبرني دائما
- اطمئن نوار...اطمئن

اغلقت الهاتف وذهبت بعدها لأنام...اخبرتهم ان يتركوني انام فانا لم أنم منذ وقت طويل لكنني لم أنم الا بعد معاناة حقيقية فوجه حسنة لم يفارق مخيلتي ولو لدقيقة واحدة....

كنتُ وحدي على الجسر، شيخ ابراهيم كان مشغول بتناول فخذ طفل ما زال جسده حيا، كان الطفل يصرخ ويتلوى من الالم وهذا جعلني اركض نحوه لكنه تحول فجأة الى غصن يابس حمله شيخ حسن الذي ظهر فجأة ورماه في نار قريبة فبدأ بالاحتراق حتى كأنني كنت اشعر به وهو يحترق، شعرت بوجعه وهو يلفظ انفاسه الاخيرة الا ان تحول الى رماد عندها تحول المشهد كله الى اللون الاخضر، كانت

حسنة وحدها تركض في هذا الخضار الشاسع، حسنة بثوبها الابيض المرصع بورود حمراء تركض نحو النهر لكنها تلتفت اليّ فجأة وتقول لي

- هل ما زلت حزينا نوار
- لا...لا حسنة ...انا الان في غاية السعادة
- ابقى هكذا دائما ، اضحك ارجوك...اضحك

ابدأ بالضحك حتى يعلو صوتي فأجد نفسي على الجسر لكن هذه المرة تفلت حباله من الجانبين ويندفع مع الماء بقوة، شيخ ابراهيم يلتهم هذه المرة قضيب شاب لم يتجاوز العشرين من العمر، يمص قبعته بلسانه فتصيبه نشوة كبيرة قبل ان يقضمها بقوة بأسنانه اما شيخ حسن كان يصيح بوجه دكتور مصطفى ودكتور مصطفى يطرق رأسه على الارض لا يستطيع ان يقول شيئا بالرغم من ان النهر بدأ يصعد هذه المرة الى السماء وانا احاول ان امد يد واتناول يد حسنة التي تركض في هذا الخضار الشاسع الذي يحيط بالنهر من الجانبين، صرخت بأعلى صوتي

- حسنة

قبل ان اقفز من الفراش واكتشف انني نمت يوم كامل وان الساعة تقترب من التاسعة صباحا وان ام مصطفى اعدت لنا فطور رائع بالفعل يستطيع وحده سد هذا الجوع الهائل الذي اشعر به الان، بعد ان اكملنا الافطار قالت لي حجية سريوه

- هل تعرف ...انت تشبه أمك كثيرا
- هل تتذكرينها
- أمك من الناس الذي يكفي ان تراهم لمرة واحدة لتتذكرهم على الدوام
- في الحقيقة انا لا أتذكر الكثير منها الان

- هي الوحيدة التي صدقتني في هذا العالم
- ماذا صدقت
- كل انسان تحت جبته قصة ما وانا املك قصتي التي لم يصدقها احد
- انتِ تقولين انني اشبهها كثيرا، هل هذا يعني انني سأصدقك ايضا
- لا اعرف...ربما كنت تفكر مثل أبيك...
- اذا دعيني اسمع القصة...ربما لأكتشف أي شخص انا
- بعد كل هذا العمر
- القصص لا تموت جدتي ...الا اذا كانت ميتة منذ ولادتها
- لكن امي تتكلم عن تاريخ...انا ايضا لم اصدقها حتى جاءت امك وجعلتنا نرى ذلك بأم أعيننا...قال جمال
- ماذا رأيتم؟...سألته
- عليك ان تعرف اولا وبعد ذلك سترى
- اذا اسمع

كانت الشمس قد بدأت ترسل اشعتها الحارة رغم ذلك فكان الجو جميلا والمروحة السقفية توزع الهواء على اجسادنا بالتساوي، عندها تكلمت شهريار او حجية سريوه وبدأت اتعرف على شخصيات كثيرة، شيخ حسن الوادي وابنته العذراء، رجل الجينز الرمزي والفلاحون وصراعهم الأزلي مع الاقطاعيين واخيرا الشباب التسعة الذين أخصوهم داخل الكهف القريب من هذا البيت، كانت حكاية رائعة بالفعل لكنني لم أكن لأصدقها حتى انني شعرت ان تحتوي على الكثير من الثغرات السردية، ربما لأن من ألفها عقل غير علمي وليس له معرفة كبيرة بمقتضيات السرد، رغم ذلك كانت تمتلك المنطق اللازم خاصة وهي تقودك الى تسمية

حاضرة ومعروفة بالنسبة لديك لكن ما الذي يمكن يكون سبب تسمية قرية نائية مثل هذه بتل الخصيان غير قصة من هذا النوع وهذا يدل على ان شيئا ما حدث هنا، ربما يكون ما ذكرته حجية سريوه وربما يكون شيئا اخرا بالرغم من ان لا أهمية لذلك الان ما دام لا أحد غيرها يمتلك قصة ما، عندما اكملت القصة اراد ابو مصطفى ان يقول شيئا لذلك التفت الي وقال

- امك بعد ذلك طلبت منا....

لكن حجية سريوه مسكته من يده وقالت له

- دعهُ يكتشف هذا لوحدهِ

ابتسم بوجهي وصمت

بعدها تغدينا وذهب ابو مصطفى الى السوق مع مصطفى بينما تمددت حجية سريوه على فراشها ونامت وهذا جعلني اخرج الى الحديقة الصغيرة التي تتقدم البيت وابدأ بإعادة القصة من جديد، حاولت ان اكتشف ما الذي يمكن ان حدث حينذاك من خلال قصة حجية سريوه، اعتقدت للحظة ان هذا ممكنا وربما لجأت الى التفكير بقصة تل الخصيان هروبا من تذكر ما حدث لي، هروبا من ذكرى موت حسنة الذي تحول الى جرح داخلي ينزف طوال الوقت، هذه القصة منحتني شيء من النسيان وهذا جعلني اشعر بشيء من الخدر جعلني ارمي رأسي على حافة الكرسي واتأمل هذا العالم الذي يحتويني الان، فجأة سمعت صوت سيارات تقف امام البيت، ركضت وصنعت فتحة صغيرة في الباب الخارجي لأرى ما الذي يحدث، كان هناك اربع سيارات دفع رباعي برفقة سيارة الاجرة التي اقلتني من الحافظة الى هنا، نزل السائق العجوز واشار للمسلحين على البيت فأغلقت الباب بقوة

وركضت الى الجهة الخلفية من البيت، عبرت الجدار العالي بصعوبة قبل ان ارمي بنفسي الى الجانب الاخر والذي يؤدي الى خارج البيت، أحسست للحظة انني اطير في الهواء قبل يرتطم جسدي بالأرض واتمدد قرب ساقية صغيرة توصل الماء الى البساتين التي تقع خلف البيت، رفعت رأسي لأرى السحالي العشرة يقفن في الجانب الاخر من هذا الساقية الصغيرة، بدأن بالتصفير وكأنهن يقولن لي شيئا ما وهذا جعلني اقف بسرعة خاصة وانا اسمع صوت الملثمين الذين كسروا الباب الخارجي ودخلوا الى البيت، ركضت السحالي وانا ركضت ورائها، كنَّ يقدنني الى مكان ما، انا اثق بهن كثيرا، اثق بهن اكثر من أي انسان اخر لهذا اندفعت خلفهن بسرعة، كان هناك بيت كبير ذو سياج طيني تخرج من فوقه اشجار البرتقال ليتشكل ظل هذه الاشجار على طول السياج، عندما وصلنا الى نهايته اندفعنا يسارا لأجد نفسي امام تلة البلدة ومن دون ادنى تفكير اندفعت خلف السحالي وبدأت بتسلق التلة قبل ان نصل الى فتحة المغارة التي تقع وسطها تقريبا، كان المنظر رائعا وكأنني اقف فوق الاشجار بينما كان النهر يشكل بعد ثالثا للمشهد وهو يندفع بقوة نحو المجهول، دخلت السحالي التلة فدخلت ورائها وقبل ان ادلف الى داخلها وجدت فانوس وعلبة كبريت مركونة في احدى الفتحات الصغيرة للجدار، اشعلت الفانوس ودخلت الى داخل المغارة، كان بحق مكانا جيدا للاختباء ومن هذا الفانوس اكتشفت ان اخرين يدخلون اليها بشكل مستمر، ربما يكونون مثلي، هاربون يبحثون عن مكان اختباء جيد فقط، وقفت فجأة وانا ارى افعى صغيرة تحركت بسرعة واختبأت داخل احدى الجحور بينما كان منظر الخفافيش المعلقة في سقف المغارة

مصدر قلق دائم لي فانا حقا لا اعرف متى سيهجمنَّ علي ويمتصصن دمي لكن السحالي بدت متأكدة وهي تصفر وتدعوني للحاق بها، اخير اصطفت السحالي وكأنها تخبرني انه هذا هو المكان حتى انني لم افهم لماذا سأختبأ هنا وليس في مكان اخر من هذه المغارة لكنني لم تكن لي الرغبة لمعارضة هذه الكائنات الصغيرة التي تبدو انها تعرف اكثر مما اعرفه في هذا المكان، رميت الفانوس على الارض واسندت ظهري على الحائط وجلست لأخذ نفسا بعد كل هذا الركض، كان ضوء الفانوس يصطدم بالجدار المقابل مولدا اشكال ضوئية مهتزة لكن شيئا اخرا كان على الجدار جعلني اقف واقترب منه لأرى اشكال محفورة عليه، لم اتبين هذه الاشكال في البداية الا بعد ان ازلت التراب العالق عليها عندها اتضحت الاشكل، كانت اعضاء ذكرية منتصبة، اسفل هذه الاعضاء كانت بقايا لحمية تسيل منها قطرات من الدم حتى تصل الى ارضية المغارة، بدأت أعد هذه الاعضاء...
واحد، اثنان، ثلاثة، اربعة، خمسة، ستة، سبعة، ثمانية، تسعة...
عندها التفت الى السحالي التي وقفت بهدوء وهي تراقبني، فجأة تحركت السحالي التسعة وتسلقت الجدار وتشكلت داخل هذه الاعضاء الذكرية، اختفت السحالي بينما تحول شكل الاعضاء الذكرية الى اللون الحليبي المشوب بصفرة خفيفة المنقط بنقط سوداء، تلمست هذه الاعضاء، كان ملساء بشكل غريب عندها التفت الى سحليتي التي وقفت لوحدها تراقب المشهد، رفعت حجرا وبدأت احفر شكل عضو ذكري منتصب، لكنني توقفت ورسمت عضو نائم بل ميت، كان صغيرا وينزل رأسه للأسفل ومنكمشا بطريقة مقرفة، اطلقت

سحليتي صفيرا عاليا قبل ان تتسلق الجدار وتتشكل داخله وتختفي الى الابد.....